يوميّات الثورة

من ميدان التحرير.. إلى سيدي بوزيد..
حتى ساحة التغيير



نواف القديمي

الشبكة العربية للأبحاث والنشر
ARAB NETWORK FOR RESEARCH AND PUBLISHING

يوميَّــات الثـــورة

من ميدان التحرير .. إلى سيدي بوزيد .. وحتى ساحة التغيير

بقلـم

نواف القديمي





يوميَّـــات الثـــورة

من ميدان التحرير .. إلى سيدي بوزيد ..

وحتى ساحة التغيير

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد الشبكة العربية للأبحاث والنشر
القديمي، نواف
يوميّات الثورة: من ميدان التحرير .. إلى سيدي بوزيد .. وحتى ساحة التغيير/ نواف القديمي.
٢٧٢ ص.
ISBN 978-9953-533-83-4
١. البلدان العربية ـ الأحوال السياسية. أ. العنوان.
320

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٢

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

بيـروت ـ لبنـان
هاتف: ٧٣٩٨٧٧ (١-٩٦١) ـ ٢٤٧٩٤٧ (٧١-٩٦١)
E-mail: info@arabiyanetwork.com

أيُ شَعْبٍ لا يَنْتزِعُ حُريَّتهُ .. لا يُعَوَّل عَليْه

ابن عربي، ٢٠١١م

الإهـــداء

إلى المهدي زيّو، وضيف الغزّال، وغِياث مَطر،
وأحمد حرارة، ومحمد البوعزيزي.

إلى الأحرار في سيدي بوزيد، وحِمص، والسويس،
وتعِز، وبنغازي، وكل عواصم الثورة.

إلى من حقنوا الأمل في شرايين الشعوب.. وبعثوا شُعلة الكرامة
من تحت رُكام الرماد.. وسقوا بنزف دمائهم أرضاً كانت مَوَاتاً..
وأوقدوا قناديل المُستقبل في عَتمة الطريق.

إلى شباب الربيع العربي.. فوق أي أرضٍ، وتحت كلِّ سماء.

سنظلُّ نلهجُ بذِكركم.. وننحتُ حروف أسمائكم على جُدران
الذاكرة.. ونتلو على أرواحكم آية الوعد الإلهي:
(ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا).

وسنبقى نُردد معكم ومع محمود درويش:
نُحب الحياة إذا ما استطعنا إليها سبيلا..
ونفتح باب الحديقة كي يخرُج الياسمينُ إلى الطُرُقاتِ نهاراً جميلا.

المحتويات

دراســــة:

مدخل،،

في لحظة الإلهام الأولى

أشعرُ أنني ابنٌ صميمٌ للثورات العربيّة.. تنفّستُ هواءها المُشبع برائحة الدم.. وسهِرتُ مع الوجوه المُحتقِنة بالغضب.. ورأيتُ رُكام الألم كيف تحوّل إلى ثورة.. وسمِعتُ حشرجاتِ ذلك الصوت الموجوع وهو يتردد في كل أوطاننا: يا توانسة يللي قهروكم.. يا توانسة يللي عذبوكم.. يا توانسة يللي سرقوكم.. تنفسوا الحُريّة.. شعب تونس هدالنا الحُريّة.. بن علي هَرَبْ.. المُجرم هَرَبْ.. السارِق هَرَبْ.

بالنسبة لنا في الخليج.. لم تكن الثورات العربيّة مُجرد تحولاتٍ سياسيّة كُبرى تحدثُ في الجِوار.. بل شكّلت للكثيرين مُنعطفاً فكرياً ووجدانياً سيبقى حاضراً في النفس سنين طويلة.. عام ٢٠١١م كان بالنسبة لنا عام وِلادة.. وِلادة الأمل بالمُستقبل، والثِقة بالإنسان، واليقين بنصر الله عز وجل للشعوب التي قررت أن تكون لها إرادة.

حين التقيتُ في تونس بأحمد الحفناوي ـ ذاك الذي

أثناء تدويني لمُشاهداتي في ميدان التحرير، لم أكن مهموماً بالتأريخ للثورة والتوثيق لتفاصيل بداية الانفجار الشعبي، بقدر ما كنتُ معنياً برواية اليوميات، وتسجيل التفاصيل التي ألتقطها في ثنايا الميدان.. بخِلاف ما كتبته بعد ذلك عن احتجاجات المغرب، وثورتي تونس واليمن.. حيث كنتُ مهتماً بشرح الخلفيّة التاريخيّة للثورة، وتسجيل أبرز محطات البداية وكيفية تطورها، وسرد شيءٍ من طبيعة المشهد السياسي في هذه البلدان.

ولأن لدى الشبكة العربية للأبحاث والنشر ـ التي أديرها ـ مكتب في القاهرة، يقع بالقرب من ميدان التحرير.. كنتُ لا أغيبُ عنها أكثر شهرين.. فحضرتُ بعض المظاهرات المليونيّة في الميدان.. واقتربتُ من خطوط المواجهة الداميّة في شارع محمد محمود.. وشهدتُ الاعتصام أمام مجلس الوزراء.. والتقيتُ ببعض شباب الثورة، ومرشحين للرئاسة، وقيادات حزبيّة، ومجموعة من النُخب الفكريّة والسياسيّة.. وكان غالب ذلك يجري في الميدان.. لذلك أشعرُ دوماً بعلاقة وجدانية حميمة تجاه ميدان التحرير، وأنني جزءٌ صميمٌ مما جرى في مِصر.

خارج ميادين الثورة.. يسر الله لي أن اقترب من بعض المشاهد الاحتجاجيّة العربيّة.. فشهدتُ أحد الاحتجاجاتٍ في الأردن بقرب القصر المَلَكي، ورأيتُ الحشود وهي تُردد أظرف هتافٍ سمعته في الربيع العربي: (الشعب يُريد إس إس ،، تتربوا والا نكمّلها).. وفي الكويت حضرتُ اعتصام ساحة الإرادة في ١٩ أكتوبر بصحبة الأصدقاء فيصل اليحيى وعلي السند وطارق المطيري، وهم من طليعة الشباب

الناشطين في الوسط السياسي الكويتي.. وكنت أود أن أكتب تقريراً عن نشأة الحراك الشبابي في الكويت، ولكن الوقت لم يُسعفني في ذلك.

وفي مؤتمر شبيبة حزب العدالة والتنمية بالمغرب الذي عُقد في شهر يوليو الماضي، التقيت ببعض قيادات المجلس الانتقالي الليبي، ودارت معهم نقاشات طويلة عن تفاصيل الثورة الليبيّة.. وكتبتُ بعض التقارير عنها.. كما التقيتُ بالشيخ راشد الغنوشي، ود.رفيق عبدالسلام، وعددٍ من قيادات حزب النهضة التونسي.. وفي إسطنبول حضرت إعلان تشكيل المجلس الوطني السوري الذي جرى بتاريخ ١٥ سبتمبر، وتحدثتُ مع عددٍ من قادة المُعارضة السوريّة في الخارج، ونشرتُ في الجزيرة نت مقالاً بعنوان (المُعارضة السوريّة والبحث عن مجلس وطني).. ومن ناحية أخرى التقيتُ في لبنان بعدد من الشخصيات المعروفة بقربها من النِظام السوري، كتّاب ومُثقفين، ورئيسي تحرير صحيفتي الأخبار والسفير، وقيادات في حزب الله، ودارت نقاشات طويلة وساخنة عن موقفهم من ثورة في سوريا، وأسباب انحيازهم لنظامٍ فاق الآخرين في بطشه ودمويته.

أما البحرين.. فكانت الأكثر جدلاً وانقِساماً.. وبسبب الاستقطاب المذهبي صار التوتر الطائفي في الخليج بشِعاً بكل المقاييس.. وبات مجرد الحديث ـ ولو بكلماتٍ في تويتر ـ عن المشهد البحريني يعني عاصفة من الردود من هذا الطرف أو ذاك.. أمّا إذا اخترتَ ألا تنحاز إلى طرفٍ ضد آخر، وكان موقفك يتضمّن نقداً لكلا الطرفين.. فهذا يعني أنك ستواجه امتعاض الجميع.. وقد التقيتُ مع بعض الأصدقاء بأبرز

شخصيتين سياسيتين في طرفي هذا الصِراع (الشيخين عبداللطيف المحمود وعلي سلمان).. ودارت حوارات طويلة عن الحراك البحريني، وأين أخطأ كل طرف.. وعن انعكاسات ما جرى ويجري في تأزيم المشهد الطائفي في الخليج.

أيضاً كان هذا العام مكتظاً بالمؤتمرات والندوات التي تتحدث عن الربيع العربي.. فشاركتُ في سبعٍ منها بأوراق بحثيّة.. وكان الالتقاء ببعض المُثقفين والسياسيين على هامش هذه المؤتمرات أكثر أهميّة مما يُطرح من أوراق.. إذ يجعلك تسمع منهم ما لا يُروى على مِنصّة المؤتمر من تفاصيل المشهد الداخلي في البُلدان الثوريّة.

فكرت لوهلة أن أنشر في هذا الكتاب كل ما كتبته عن الثورات العربيّة من تقارير ومقالات وأوراق بحثيّة.. ولكنني عَدلتُ عن ذلك.. وقررتُ أن أكتفي باليوميات.. وبدراسة تحوي شيئاً من الأفكار والتأملات عن الربيع العربي وموقف الإسلاميين منه.. إضافة إلى بعض الصور من ميادين الثورة.

وفيما كانت الشعوب العربيّة الثائرة غارقة حتى الثُمالة في تفاصيل شؤونها الداخلية.. بقي شباب الخليج هم الأكثر اهتماماً ومتابعة لتفاصيل ما يجري في جميع الثورات العربية على حدٍّ سواء.. وقد كشفت مواقع التواصل الاجتماعي (فيس بوك وتويتر) حجم هذا التفاعل اليومي الكبير، والارتباط الوثيق بنبض الشارع العربي، ومطاردة كل التفاصيل والتطورات.. وإذا كانت الثورات قد أحدثت تحولات سياسيّة كبرى في بعض الدول العربيّة.. فقد أحدثت أيضاً تحولات فكريّة ووجدانيّة عميقة في أوساط شباب الخليج.. وهنا يُمكن أن أشير إلى المقال الطويل والعاصِف للصديق العزيز سلطان

الجميري، بعنوان: (مشاعر سعودي يوم تحرير طرابلس)، كنموذج لحجم الارتباط الروحي بما حصل في الربيع العربي.. وكنت أود نشر هذا المقال ـ كمشاركة من صديق ـ في هذا الكتاب، إلا أن طوله، ورغبتي بعدم تسمين الكتاب حالا دون ذلك.

* * *

ليس احتراق جسد البوعزيزي هو الذي صنع الثورة.. فليس من أشعل الفتيل هو من أوقد غابات النار.. بل فعل ذلك الاستعداد الداخلي الكامن.. الشيء الذي يتنامى في الوعي والوجدان.. وبراكين السَخَط القابلة للانفجار.. والغضب الذي يتراكم كُل يومٍ بسبب الظُلم، والقهر، والاستِعباد، والتمييز، وإذلال الشعوب.. إهانة الإنسان هي من فعلت كُل ذلك.. وستفعل أكثر.

ورغم خشونة الثورة.. إلا أنها بدت مشهداً رومانسيّاً بامتياز.. ولحظةً صوفيّة موغِلة في التجلّي.. ومَلحَمة شِعريّة طويلة ومُلهمة.. فهل هُناك أكثر رومانسيّة من ثائرٍ يستند على صخرةٍ في ليلةٍ مُقمرة.. يحتضن بُندُقيّته.. ويرقُبُ السَمَاء على أحد مداخل مِصراطة؟

وهل هُناك أكثر رومانسيّة من فتىً ترك دِفء العيش.. ليتدثّر البرد في ساحة التغيير.. يلهَثُ وراء الحُلُم.. ويسعى لغدٍ أفضل؟

وهل هُناك أكثر رومانسيّة من كهلٍ ترك الزوجة، والأطفال، والدُكّان، والخوف.. ليهتف بالحُريّة في أزقة بابا عمرو.. ويقضي بقيّة ليله ينزف على وقع رصاص الشبِّيحة؟

وهل هُناك أكثر رومانسيّة من طبيبٍ مرموقٍ ترك عِيادته ليقف أمام جبروت الأمن، والظُلم، ليُضحي بعينه الأولى في جُمعة الغضب.. ثمّ لا يكتفي بذلك حتى يُقِّدم عينه الأخرى قُرباناً للثورة في شارع محمد محمود؟

هل هُناك أكثرُ رومانسيّة.. من الثورة؟

١٧ ديسمبر ٢٠١١م

في ذكرى لحظة الإلهام الأولى

الرياض

من ميدان الشباب الذين صنعوا الثورة ..
من ميدان التحرير



(*) نُشرت في صفحتي بالفيس بوك صباح الأحد ٣٠ يناير.

كان يوماً مشهوداً.. عشرات الآلاف توافدوا إلى ميدان التحرير من كل الطُرُقات والأزقة.. في ملامحهم ترى ثورة الغضب .. وعلى وجوههم تبدو كل مرارات السنين .. وهم يلهثون بالأيمَان المُغلّظة أنهم لن يبرحوا هذه الساحة إلا بزوال النِظام.. هل انفجر المكبوت في دواخل هؤلاء بعد أن ظلّت نفوسهم تختزن لعقودٍ مزيداً من وقود الاشتعال؟!

ميدان التحرير الذي يتوسط القاهرة ضخمٌ جداً.. أكبرُ من ساحتي الشُهداء ورياض الصلح في وسط بيروت، التي يملؤها المُتظاهرون من تيّاريّ ١٤ آذار و٨ آذار في الأزمات السياسيّة، ويُطلِقون على تلك التجمّعات (المُظاهرات المليونية).. وكان يُسمى ميدان الإسماعيليّة ـ نسبة إلى الخديوي إسماعيل ـ .. ثم أُطلق عليه ميدان التحرير بعد انقلاب الجيش على النظام الملكي في يوليو ١٩٥٢م.. وقد بناه الخديوي إسماعيل على غِرار ساحة النصر بباريس.. لذا يبدو المِعمار الفرنسي الذي يمتاز بالواجهات الحجريّة، والشُرُفات الأنيقة، والنوافذ المُتعاقبة، واضحاً على مباني الميدان.. وتتفرع من الميدان تسعة شوارع، من أشهرها شارع

القصر العيني، وكبري قصر النيل، وشارع طلعت حرب، وميدان عبدالمنعم رياض المُحاذي لميدان التحرير والمُجاور للمتحف المصري.. وعلى أطراف الميدان يقع عددٌ من المواقع المُهمة، مثل مجمّع التحرير الضخم، ومقر الجامعة الأمريكيّة، ومبنى جامعة الدول العربيّة، والمتحف المصري، ومسجد عمر مكرم، وسواهم من معالم.. وبقربه يقع مقر التلفزيون المصري (في ماسبيرو)، ووزارة الخارجيّة، وأحد أضخم مقرّات الحزب الوطني، ومقر الأوبرا المصرية.. كما تقع في أحد الشوارع المتفرعة منه (شارع القصر العيني) مواقع تسع وزارات، إضافة إلى مقر مجلس الوزراء، ومجلس الشعب، ومجلس الشورى.. باختصار.. ميدان التحرير هو شريان الحياة في مِصر.

ومنذ بدأت الثورة في ٢٥ يناير، كان ميدان التحرير هو موقع المعركة والاعتصام، الذي شهد جمعة الغضب التي سقط فيها أكثر من مائتي قتيل، وأدت إلى انكسار جهاز أمن الدولة المصري، وبدء اعتصام الثورة المصرية وسط الميدان.

ومنذ صبيحة جمعة الغضب (٢٨ يناير) والأخبار تتوالى عن حشود ضخمة ستتجه إلى ميدان التحرير بعد صلاة الجمعة.. وأن الأمن متأهب لمواجهة حشود مليونية.. وأن مستقبل البلد مفتوح على كل الاحتمالات.

قُبيل عصر جمعة الغضب وصلتُ إلى مطار القاهرة.. وقد بدا واضحاً أن ثمة حركة مرتبكة وقلقة في صالات المطار.. وأن هناك أعداداً كبيرة من غير المصريين بدأت تصل سعياً للمغادرة على أي رحلات مُتاحة.. وجموع الناس بدأت

تتكدس.. وكان القطع المُتعمّد لشبكة الهواتف المحمولة والإنترنت قد فاقم من قلق الناس، وأشعرهم بأنهم معزولون عن العالم.

بعد أن استلمت حقيبتي خرجتُ بحثاً عن سيارة أجرة توصلني إلى وسط القاهرة.. وإذ بالمكان الذي تتكدس فيه عادة سيارات الأجرة شِبه فارغ!.. سألت بعض الناس، فقالوا لِي إن البلد (مقلوبة)، وهناك مواجهات دامية بين مئات الآلاف ورجال الأمن في مناطق عديدة بالقاهرة ومدن أخرى، وأن هناك احتمالات واردة لإعلان حظر تجوّل.. لذلك لن تجد سيارات أجرة بسهولة.. وبالطبع لم يُفوّت أحدهم هذا الحوار دون أن يقول: ياراجل دي الناس بتهرب من البلد وانتا لسا جاي.. دانتا رايق أوي.

وحين سألوني عن وجهتي والحي الذي أسكن فيه.. قلت لهم: الزمالك (وهو حيٌ بجوار ميدان التحرير).. فقالوا لي لن تجد أحداً يوصلك إلى هناك.. وإن أمامي خيارين.. إما أن أبقى في المطار حتى تهدأ الأمور، ولا يبدو أنها ستهدأ.. أو أن أبحث عمن يوصلني إلى مدينة نصر (وهي من الأحياء الجديدة في القاهرة والقريبة من المطار).. فقلت لهم: إذن أدخل إلى مدينة نصر.. وبالفعل.. بعد ربع ساعة من الانتظار وجدتُ من يوصلني إلى مدينة نصر.. وطلبت من سائق الأجرة أن يأخذنا إلى أي فندق في هذا الحي.

وبعد بعض الوقت وصلتُ إلى فندق الهوليدي إن بمدينة نصر.. وحين سألت موظفة الاستقبال عن توافر غرف.. قالت لي إن الفندق ممتلئ تماماً بسبب خروج كثير من الأجانب من وسط القاهرة إلى الأطراف.. ولكن ربما يتوافر (سويت) شاغر

بعد قليل.. وأثناء هذا الحوار.. أعلن التلفزيون المصري عن حظرٍ للتجول يبدأ في الساعة السادسة مساءً (أي فقط بعد ربع ساعة من لحظتها).. ولأن السائق كان قد غادر.. لم يكن أمامي سوى البقاء في هذا الفندق.

قضيت تلك الليلة أتابع ما يجري متنقلاً بين قناتي الجزيرة والعربيّة وبقية القنوات المصريّة، وأصوات الرصاص كنت أسمعها كل قليلٍ تتعالى في الخارج.. وكانت كل القنوات التلفزيونية وسط اهتمامها بما يجري، تنتظر كلمة للرئيس حسني مبارك كانت الرئاسة قد أعلنت عن قرب بثها على الجمهور.. وهي أول كلمة للرئيس منذ بدأت الاحتجاجات.

في الساعة السابعة من صباح البارحة (السبت ٢٩ يناير)، ومع لحظة انتهاء ساعات حظر التجول، حملت حقيبتي، وركبت مع سائق أجرة باتجاه الفندق الذي كنت قد حجزت به سابقاً في حي الزمالك.. وفي الطريق، كانت القاهرة شبه فارغة.. لا ترى أيَّ رجل أمنٍ في المدينة.. وكانت الأدخنة تتعالى من بعض المباني.. وثمّة سيارات معطوبة أو محترقة على جانبي الطريق.

لم يأخذ الطريق إلى الزمالك سوى وقتٍ قصيرٍ مُقارنةً مع ما كان يأخذه في السابق.. بعد وصولي إلى الفندق، أبلغني موظف الاستقبال وأنا أستلم مفتاح غرفتي أن اتصالاتٍ عديدةٍ من الأهل والأصدقاء أتت ليلة البارحة تسأل عني من الرياض (خطوط الهاتف الجوال كانت مقطوعة، ولكن الهاتف الثابت كان يعمل).. وضعت حقيبتي في الغرفة.. وحاولت الالتقاء ببعض الأصدقاء الذين كنّا قد اتفقنا على أن

نلتقي بقرب الفندق.. وفي حدود الساعة العاشرة صباحاً اتجهنا سويّاً إلى ميدان التحرير.

بدا لي ميدان التحرير ـ الذي أعرفه تماماً وتجولت فيه عشرات المرّات ـ وكأنما أراه لأول مرة.. آثار الخراب والسيارات المُحترقة تحيط بالميدان من كل اتجاه.. والنار تتعالى بوضوح من مبنى مقر الحزب الوطني الضخم.. ومداخل الميدان جميعها مُغلقة، وعلى أطرافها تقف مجموعات من شباب الثورة، تقوم بمَهمّة تفتيش من يريد الدخول للميدان للتأكد من هوياتهم، وأنهم لا يحملون أسلحة نارية أو بيضاء.. ووسط الميدان كان هناك عشرات الآلاف.. وآثار معركة البارحة وبعض الدماء بدت واضحة على الأرض.

وما إن اقترب وقت الظهر حتى اكتظ ميدان التحرير بالحشود.. لدرجة أن المُراقب من علٍ لا يكاد يجدُ فيه بُقعة فارغة.. وتتكتل هذه الحشود في الميدان على شكل مجموعات ضخمة، تظل تهتف بالشعارات السياسيّة التي تُطالب الرئيس بالرحيل.. وتستمر على هذه الحال من أول النهار حتى آخر الليل.. وكل قليلٍ تختار كل مجموعة هتافاً آخر لترداده.. ثم ينتقلون لهتافٍ جديدٍ مُشبع أيضاً بكل نوايا الإصرار والتصميم.. وكثيرٌ من هذه الهتافات مُحمّلة بالظَرَافة المِصرية المعهودة حتى في الأزمات.. وتبقى قبضات الأيدي تتعالى مع كلِ هُتاف جديد.. وحناجر عشرات الآلاف تصدح في جميع أنحاء الميدان.. وتُحدِث دويّاً لذيذاً يوقد في النفس كُل كوامن الثورة.

الشعب .. يُرِيد .. إسقاطَ النِظام

يسقط يسقط حسني مبارك

ارحل ارحل يا مُبارك .. السعوديّة بِانتِظَارك

بالجيش .. والشعب .. حنكمّل المِشوار

تغيير .. حُريّة .. عدالة اجتماعية

ارحل ارحل زي فاروق .. شعبنا منك بقى مخنوق

عَلِّي وعَلِّي وعَلِّي الصوت .. الـ حيهتف مش حيموت

يا حُريّة فينك فينك .. حسني مبارك بينّا وبينك

يا حاكمنا بالمباحث .. كل الشعب بظلمك حاسس

ارحل بقا ياعم .. وخلي عندك دم

هو مُبارك عايز إيه .. عايز الشعب يبوس رجليه

يا مُبارك مش حنبوس .. بكرة عليك بالجزمة ندوس

يا جمال قل لأبوك .. كل الشعب بيكرهوك

ثم يأتي أحدهم يهتف بصوت عالٍ: حُسني مُبارك

فترُد الجُموع المُمتدة بكل ما أوتيت من صوت: باااطِل

حُسني مُبارك ... باااطِل

جَمَال مُبارك ... باااطِل

الحِزب الواطي ... باااطِل

أحمد عز ... باااطِل

فتحي سرور ... باااطِل

إضافة إلى هتافاتٍ عديدة تُرحب بالجيش .. وتعوّل عليه .. حتى إن أحد الضباط نزل من دبابته واختلط بالحشود، وقام الناس برفعه على الأكتاف والهتاف باسم الجيش، وهو يهتف معهم بالثورة، والحُرية، وحق الشعب المظلوم.

وعلى أطراف الميدان كانت هناك مجموعة من دبابات الجيش يقف على ظهرها بعض الجنود.. فصارت جُموع الناس تُحيي الجنود وتهتف باسم الجيش.. ثم بعد مُنتصف النهار، اعتلى عشرات الأشخاص هذه الدبابات.. وبدأت بعض هذه الدبابات بالدوران في الميدان وبين الحشود وسطحُها مُمتلئ عن آخره بالناس.. فصار المُتظاهرون يدورون على ظهر هذه الدبابات وكأنهم في نُزهة أو في مدينة ألعاب!.. والجيش مُحتفٍ بهم ولا يُحاول إنزالهم.

وحين يأتي وقت الصلاة تسكت غالب الهتافات .. وتتعالى أصوات الأذان في أرجاء الميدان.. ثم يبدأ كثيرٌ من الناس بالتراصّ للصلاة.. ويُكبِّر الإمام.. وتمتد الصفوف إلى ما لا تُدركه العين.

وفي ثنايا النهار.. وكل ساعة تقريباً.. تأتي من جهة شارع القصر العيني (الذي يقع في طرفه الآخر مستشفى القصر العيني التاريخي المشهور) جنازة لأحد الضحايا الذين سقطوا في مواجهات الأمس.. فيحملها الناس بحماسٍ وغضب.. ويدورون بها في أرجاء الميدان.. وعندها يشتعِلُ هُتاف الآلاف: (عاوزين حقه .. عاوزين حقه).. وبعد أن يُلهبوا حماس الثوار في الميدان، يضعون الجنازة في مُقدمة الصفوف.. ويُصلون عليها صلاة الميّت.

وفي وسط النهار.. كانت دوماً تأتي درّاجات نارية تحمل خلفها سِلالاً ضخمة.. لتوزع بعض الأكل على الجُمُوع.. خاصة على مجموعات الشباب التي قررت الاعتصام، والبقاء ليلاً ونهاراً وسط الميدان.

أثناء وقوفنا وسط إحدى المجموعات المُحتشدة في الميدان، سألتُ أحد المتظاهرين الشباب: إيه توقعاتك لمُستقبل الثورة؟.. فردّ عليّ بحماس: دا نظام فاسد ولازم يمشي.. ومش حنرجع إلا لمّا يسقط النظام.. ثم أضاف بظَرَف: ولما ننتصر.. حنلعب مع تونس ع النهائي :)

من بين الجموع وجدتُ صديقاً عزيزاً يعمل صحفياً في جريدة المصري اليوم.. وهو ناشط سياسي، ومتخصص في الفلسفة.. وكنتُ سابقاً كلّما التقيت صديقي هذا في القاهرة، وتحدثتُ معه عن السيناريوهات المُتوقعة لمُستقبل مصر، يُجيبني بنبرة فيها كثيرٌ من الإحباط واليأس: الوضع في البلد أعقد مما تتوقع.. هناك شبكة فساد سياسي واسعة ومُتواطئة مع شبكة كبيرة من رجال الأعمال.. وكلتاهما مُرتبطة بمصالح متجذّرة مع قيادات الأمن والجيش.. ويحيط بكل هؤلاء شبكاتٌ ممتدة من البيروقراطية المُستنفِعة التي تضم ملايين الناس.. وأحزاب المعارضة كرتونية، وثقة الناس بها مُنعدمة تماماً.. الوضع في البلد مُعقّد جداً.. ولا أدري إن كان هناك حل أصلاً.

حين رأيت صاحبي هذه المرة وسط ميدان التحرير.. قلتُ له مبتسماً: ها يا صديقي؟ ما أخبارك مع هذه الحُشود؟ هل وجدت الآن أن هُناك أمل؟.. عندها أجابني ضاحكاً وعلى وجهه كل ملامح التفاؤل: طبعاً هُناك أمل.. الروح

عادت في الجسد من جديد.. لم أكن أتوقع أنني سأشهد يوماً كهذا.

الدكتور محمد سليم العوا أمضى يومه بين الجُموع، وألقى في الناس خُطبة عصماء وبليغة، حث فيها المتظاهرين على مُلازمة الميدان والصبر، وأن الفرج قد اقترب بإذن الله.. وتلا عليهم الآيات والأحاديث التي تحثهم على مواجهة الظُلم، وأنه أفضل الجهاد.

وكذلك المهندس أبو العلا ماضي مؤسس حزب الوسط كان طِوال اليوم يدور بين الجُموع، وخطب هو أيضاً في المُحتشدين، وحثهم على مُواصلة الصمود، وأنهم أمام مِفصل تاريخي سيكون له ما بعده.. ورأيتُ أيضاً وسط الحشود الدكتور عبدالمنعم أبو الفتوح، ومحمد عبدالقدّوس القياديين الإخوانيين، وكانا طِوال اليوم يلتقيان بالشباب ويخطبان بالناس.. والشيخ صفوت حِجازي الذي كان دوماً يهتف وهو محمولٌ على الأكتاف وينتقل من طرف في الميدان إلى طرف آخر، بهدف إشعال الحماس في نفوس الشباب.. وكذلك الشاعر عبدالرحمن يوسف القرضاوي، والرِوائي اليساري علاء الأسواني، والدكتورة هبة رؤوف عزت التي قطعت رحلتها إلى أمريكا وعادت خِصيصاً لتكون وسط الحشود، والسياسي القومي حمدين صبّاحي، والشيخ محمد عبدالمقصود، وعدد من رموز اليسار، وشخصيات عامة كثيرة، وعددٌ من رجال الدين المسيحي بأرديتهم الدينيّة وصُلبانهم المُعلّقة على رِقابهم.. ومجموعاتٍ من عُلماء الأزهر يرتدون العمائم.. وآلاف النساء ومئات الأطفال الذين قرروا أن يكونوا جُزءاً صميماً من هذه الثورة.

وسط هذه الجُموع، لا تكاد تجد فصيلاً سياسياً غائباً عن ميدان التحرير .. رغم ذلك .. فكُل القيادات السياسية التي رأيتها وسمِعتها تعترف بأن هذه الثورة ليست ثورة أحزاب أو جماعات.. وإنما هي ثورة الشباب بامتياز.. فمجموعات الشباب وفي مُقدمتهم (شباب ٦ إبريل) ومجموعة (كلنا خالد سعيد) على الفيس بوك، هم أكثر من نشطوا في تنظيم هذه المُظاهرات وحشد الناس لها منذ بدايتها.. وهم من حددوا تاريخ ٢٥ يناير لبدء الثورة.. وهم من يبقون مُلازمين للميدان طِوال الليل وحتى الصباح، رغم قِلّة الطعام والشراب، ووسط لفح البرد وأجواء الصقيع، ودون وجود خِيامٍ تذود عنهم الريح.

كل التحية لهؤلاء الأبطال الذين أعادوا الروح إلى جسد الأمة بعد أن كِدنا نفقد الأمل.. وكل التحية لتونس.. التي أشعلت الثورة.. وحقنت دماء البوعزيزي في شرايين الشعوب العربيّة.

وبدأت جمهوريّة التحرير وسط الميدان



(*) نُشرت في صفحتي بالفيس بوك صباح الثلاثاء ١ فبراير.

باستثناء ميدان التحرير الذي يبقى كخلية نحلٍ حتى الصباح، تبدو بقية أحياء القاهرة في المساء وكأنها مدينة مهجورة.. فالخوف الذي أصاب الناس من الفوضى، وحظر التجوّل الذي فرضه الرئيس بصفته الحاكم العسكري، الذي بدأ في يوم الجمعة من الساعة السادسة مساءً، ثم تقدم يومي السبت والأحد ليبدأ الحظر من الرابعة عصراً، ثم تقدم مرة أخرى يوم الاثنين ليبدأ الحظر في الثالثة ظهراً.. فصار بعض الناس يخرجون في النهار لتموين البيوت وقضاء الأعمال الضرورية، ويعود الجميع إلى المنازل قبل بدء موعد حظر التجوّل.

وبعد أحداث الجُمعة الماضية (جمعة الغضب)، شهِدت القاهرة حدثاً غريباً، حيث انسحب كل رجال الشرطة والمرور والدفاع المدني وبقيّة القِطاعات العسكرية التي تتبع وزارة الداخلية.. وفي نفس الوقت لم ينزل الجيش بعد.. فعمّت الفوضى في بعض المناطق.. وساد الرُعب عند السُكّان.. وبدأ بعض الأهالي بتنظيم أنفسهم لتشكيل مجموعات حِماية شعبيّة في الأحياء.. خاصة أن أحداث يوم الجمعة شهدت خروج الكثير من السجناء والمجرمين بعد هجوم الأهالي على

السجون لإطلاق أبنائهم.. وتتحدث إحدى التقديرات عن أكثر من ثلاثين ألف سجين تم تهريبهم من السجون، وشارك هؤلاء في كثيرٍ من أعمال الفوضى والتخريب والسّرِقة.

واستمرت حالة غياب رجال الشرطة لعدة أيام، وحتى صباح الثلاثاء لا تكاد تجد أحداً منهم، بعد أن أعلنت وزارة الداخلية نهار البارحة الاثنين أنها ستُعيد نشر رجال الشرطة في العاصمة.

من جانبه فإن الجيش لم ينتشر في المدينة سوى في مناطق محدودة جداً، هي تلك التي توجد بها مرافق عسكرية وحكوميّة مُهمة.. أما بقية الأحياء والمناطق السكنيّة، فتتولى اللجان الشعبيّة حراستها طوال الليل.. لذا فإن سماع صوت إطلاق الرصاص - وبكثافة - صار أمراً مُعتاداً في ليالي القاهرة.

في كل ليلة، وعند قُرابة الساعة العاشرة مساء، تبدأ رحلتي للعودة على الأقدام برفقة بعض الشباب السعوديين من ميدان التحرير إلى الفُندق في الزمالك.. وهي مسافة تمتد لقُرابة الخمسة كيلومترات.. وفي طريق العودة نمرّ على أكثر من عشر نُقاط تفتيش شعبيّة يسألوننا فيها عن هويّتنا وأسباب رغبتنا بدخول الحي وموقع سكننا.. وبعد يومين، صار أفراد هذه اللجان الشعبية أشبه بالأصدقاء، حيث نكتفي بأن نلوّح لهم بالسلام أثناء مرورنا عليهم، وفي بعض الأحيان نقضي معهم بعض الوقت في الدردشة وسماع آخر النُكات التي خرجت على الرئيس.

واللافت في هذه اللِجان - والظريف أيضاً - أن الأدوات

المُستخدمة في الحِماية تتفاوت بحسب المستوى المعيشي في الحي، ففي الأحياء الشعبيّة ترى العصي الغليظة، والسيوف الكبيرة، والسكاكين، وسواها.. أما في الأحياء الغنيّة التي تسكنها طبقة برجوازية، فترى مثلاً في أيدي بعض الناس مضارب بيسبول، وقولف، وعصي بلياردو!.. وحتى الوجوه في الأحياء الغنية تبدو مُختلفة، حيث تتكوّن هذه اللجان غالباً من طلاّب جامعات وأطبّاء ومُهندسين ورِجال الأعمال.

الظريف في الأمر أن هذه اللجان الشعبيّة كانت تتعمد القيام بتفتيش دقيق ـ وبغلظة في التعامل ـ لأي سيّارة شُرطة تمرُّ عليهم.. حتى إننا رأينا مرّة أمامنا سيارة شرطة أوقفها شابٌ صغيرٌ من اللِجان الشعبيّة (عمره في حدود ١٦ سنة) ثم انهمك في تفتيشها، والشرطي الذي كان يقود السيارة يُخاطبه باستعطاف ويقول: ياباشا أنا شرطي، مايصحِّش تفتشني.. فيرد عليه الشاب بمكر: طيب إيه اللي عرفني إنك شرطي ومتكونشي سجين هارب وعاوز تعمل مشاكل.. إديني البطاقة وما تكترش الكلام.

وبعد يوم من اختفاء رجال الشرطة في القاهرة، وجدتُ شرطياً وحيداً أمام أحد الفنادق.. فانتهزتُ الفرصة وقلت له مازحاً: (إيه الحكاية ياعم.. انتو سبتوا البلد ليه بس).. فرد عليّ مبتسماً: (دي إشاعات ياباشا.. انتا لازم تطمّن.. إحنا حامين البلد كويس).. قلت له ضاحكاً: (واللهِ .. لأ دا واضح جداً).. بعد قليل اتضح أنه ليس من رجال الشُرطة، وإنما مُجرد موظف أمن في الفندق.

وفي كل ليلة.. حين نصل إلى الفندق، ونتناول ما نجد من طعام قمنا بشرائه في النهار ـ لأن جميع الدكاكين تُغلق

بعد حظر التجوّل ـ ننزل أحياناً إلى اللجنة الشعبيّة القريبة من الفُندق، ونقضي معهم بعض الوقت في الدردشة وتحليل الأحداث وسماع أحدث النُكات.

وبالطبع فإن أحداث الفوضى التي حصلت لم تكن بسبب المساجين الهاربين فقط، بل كانت أيضاً من بعض سكّان العشوائيات التي تُحيط بالقاهرة .. أذكر أن د.محمد سليم العوا قبل سنة تقريباً قال لي ونحن بمكتبه في إطار حديثنا عن السيناريوهات المُستقبليّة المُتوقعة في مصر: (نحن نخاف من فكرة الفوضى.. فحول القاهرة حِزام بُؤس من العشوائيّات يسكن به قُرابة الستة ملايين إنسان.. وهؤلاء لو هجم نِصفهم على القاهرة، لجعلوها خراباً في يومٍ واحد).. وهذا بالطبع كان أكثر ما يُقلق السكّان من الفوضى وغياب الأمن.

* * *

ولأننا نقضي غالب يومنا في ميدان التحرير، صِرنا نلحظ بوضوح مقدار التفاوت في أعداد الحضور.. فالمتواجدون في الميدان يوم الأحد كانوا أكثر بوضوح من المُتواجدين يوم السبت، ويوم الاثنين زاد العدد بشكلٍ ملحوظٍ عمّا كان عليه يوم الأحد، حيث قدّرت بعض وكالات الأنباء الأجنبية أعداد المتواجدين في الميدان بربع مليون (بالنسبة لي بدت أعداد المُنتمين إلى جماعة الإخوان واضحة جداً يوم الاثنين).. وكان واضحاً أن الأعداد تتزايد باستمرار.. وأن الإصرار يتعاظم.. وأن كل تراجع تُبدِيه السُلطة يعني مزيداً من الإصرار، وأعداداً إضافية من المُشاركين.

وفي نفس الوقت بدأت الضغوط الدوليّة تتزايد..

تصريحات أمريكية وأوروبية.. ومُنظمات دوليّة لا تتوقف عن المُطالبة بالاستجابة لمطالب الشعب.. وأردوغان يُطالب مُبارك بالتنحي والاستجابة للجماهير.. والجيش المصري من جانبه أعلن أنه سيحمي التظاهرات السلميّة، وأنه يُقدِّر مطالب الشعب المشروعة (رغم أن مطلب الشعب الوحيد كان إسقاط النِظام!).. وعمرو موسى يدعو إلى تغيير سِلمي في السُلطة.. وحتى لهجة كثير من المُحلّلين السياسيين المُوالين للسلطة بدأت تتغير باتجاه التضامن مع المطالب الشعبيّة.. بل إن شخصيات كانت حكومية حتى الصميم مثل الفنان عادل إمام اضطُر للحديث إلى قناة الجزيرة وأعلن تأييده لمطالب الشعب، وحين سأله المُقدِّم عن تصريحاته السابقة التي أيّد فيها نظام مبارك، أجاب عادل إمام بتوترٍ ظاهر أنها تصريحات مكذوبة عليه!

طِوال النهار وحتى مُنتصف الليل يبقى ميدان التحرير يضجُّ بدويّ المسِيرات والهتافات المُطالبة بتنحي الرئيس وإسقاط النِظام.. وترى في ثنايا المجموعات المُحتشدة كثيراً من الشخصيّات السياسية والثقافية المعروفة.. بل إن عدداً من الفنانين المصريين المعروفين يشاركون يومياً في التظاهرات، مثل عمرو واكد، وخالد أبو النجا.. وكذلك المُخرج خالد يوسف الذي يقود بنفسه بعض المسيرات.. فيما يبقى المُمثّل خالد الصاوي هو الأكثر حماساً من الجميع، حيث يظلُّ طِوال اليوم محمولاً على الأكتاف أو في مُقدمة بعض الحشود، يهتف بالشعارات المُطالبة بإسقاط النظام، وآلاف المُتظاهرين يُرددون خلفه.

أيضاً تجد لبعض الشخصيات السياسية والثقافية أدوار

نشِطة في الميدان، مثل القيادي الإخواني محمد البلتاجي، والداعية عمرو خالد الذي حضر في أحد النهارات وألقى بعض الكلمات، والمُحلل السياسي المعروف د.عمرو حمزاوي.. وحتى د.عصام العريان الذي أُلقِي عليه القبض قبل بضعة أيام، ثم خرج بعد اقتحام السجون، كان يقضي غالب وقته في الميدان.

من يتجوّل في أرجاء الميدان، ويُراقب التجمّعات والجماهير، ويتحدث مع بعضهم، يلحظ بوضوح أن غالب المُحتشدين هم من أبناء الطبقة الوسطى بامتياز.. وأن دوافعهم للخروج ليست محصورة في العامل الاقتصادي، بل إن العامل السياسي هو الأكثر حضوراً وتأثيراً.

ويوم الأحد حضر إلى الميدان د.محمد البرادعي الرئيس السابق للوكالة الدولية للطاقة، وأحد أكثر الشخصيات التي نشِطت مؤخراً في المشهد السياسي المصري.. وألقى البرادعي كلمة في أحد الحشود، وأمضى بعض الوقت بين الناس، ثم غادر.. لكن لفتني أن كثيراً من المُحتشدين الذين كانوا يحيطون بالبرادعي هم من أبناء طبقة مختلفة، حيث معالِم الغِنى بدت واضحة على وجوههم وملابسهم، ونسبة الحجاب عند النساء مثلاً بدأت تقِل، ومظاهر الترف غدت أكثر وضوحاً.. بل حتى هُتافاتهم كانت وقورة وناعمة.

وفي عصر يوم الأحد حصل أمر لم يكن مُتوقعاً، وكان مؤشراً على مقدار الاستفزاز الحاصل عند السُلطة.. حيث بدأت طائرات حربيّة من طراز إف ١٥ وإف ١٦ بالتحليق بارتفاعات مُنخفضة فوق المُحتشدين في الميدان، مُحدثةً دوياً مُرتفعاً جداً، وذلك بهدف إخافة الحشود.

ورغم انزعاج البعض، وسقوط امرأة كانت بجوارنا مغشياً عليها بسبب ارتفاع الصوت، إلا أن الغالبيّة الساحقة من المُحتشدين لم ينزعجوا من ذلك، بل استغلوا هذا الأمر في السخرية من النِظام.. حيث تملك هذه الحُشُود موهبة مُبهرة في استحداث فوري لهُتافات جديدة تُلائم الحدث.. فبعد تحليق الطائرات بأصواتها المرتفعة، صارت الجُمُوع تشير بأيديها إلى الطائرات وتُردد بمَرَح:

حسني اتجنن .. حسني اتجنن .. حسني اتجنن

وبعد تكرار تحليق الطائرات، بدأت الحشود تُردد:

اتعودنا .. اتعودنا .. اتعودنا

وبعد بعض الوقت بدؤوا يُشيرون إلى الطائرات الحربيّة ويرددون:

الجدع جدع .. والجبان جبان .. واحنا يا مُبارك حنموت بالميدان

ثم بعد قليل أعلن من يُمسك بالميكرفون خبراً مفاده أن البرازيل ألغت الاتفاقية التجارية مع مصر لاستيائها من تعامل الحكومة المصرية مع المُتظاهرين، وهنا بدأت الهتافات فوراً:

ألف تحيّة للبرازيل .. من ميدان التحرير

ولأن المصريين يملكون مهارة استثنائية في النُكتة.. لذلك لا تمرُّ هكذا مناسبات دون مواقف ومشاهد ساخرة عديدة.. حتى إن المُشارك في ميدان التحرير لو قرر أن يلتقط فقط المواقف والعروض الساخرة، لأمكنه أن يخرج منها بكتابٍ كبير.

ففي أحد مداخل الميدان مثلاً، تجد مجموعة من الشباب يجلسون بقالب فني بديع، ويُغنّون بطريقة استعراضيّة مُخاطبين الجُمُوع التي تدخل:

اللي يجي ميروحشِ .. علشان نِمشّي الجحش

وفي أحد أطراف الميدان ثمة سيّارة نقل محروقة بالكامل، ومملوءة بأكوام من القِمامة، وكان يقف على طرفها الخلفي شابٌ قام بوضع لوحة كرتونية مكتوبٌ عليها: (مقر الحزب الوطني)، ثم قام بوضع لوحة أخرى على صدره مكتوب عليها: (لا لنِظام مبارك .. إنجازات مبارك: ١ ـ فساد ٢ ـ قانون طوارئ ٣ ـ عدم تنفيذ أحكام القضاء ٤ ـ تزوير الانتخابات التشريعيّة ٥ ـ رعاية صحية وتعليم فاشل ٦ ـ غذاء مسرطن ومحسوبيّات ٧ ـ فقر).. ثم قام بتعليق لوحة ثالثة مرسوم عليها وجه كاريكاتيري لحسني مبارك، ومكتوب عليها: هارب العباسية (والعباسية هي المنطقة التي تضم مُستشفى المجانين)، وطوال ساعاتٍ استمرّ هذا الشاب واقفاً على السيارة المُحترقة، ويهتف: (هنا مقر الحزب الوطني الجديد.. والحكومة في العربيّة مع الزبالة.. وحسني مبارك اتجنن وبندوّر عليه!)

وبالطبع لا تمضي هذه الأزمة دون تدشين عشرات النُكات والمقولات الفكاهيّة الساخرة.. فمثلاً من النُكات التي كانت تتردد في الميدان:

ـ قائد الجيش راح لحسني مبارك، وقال له: خلاص ياريّس.. انتهى كل شيء.. لازم تكتب خطاب الوداع.. هنا أجابه حسني مبارك: الله!.. هو الشعب رايح فين:)

- وزير الزراعة قال لحسني مبارك: يا ريّس السُلحفات دي بتعيش ٤٠٠ سنة.. فرد عليه الريّس: هاتها.. ويبقى نشوف هتعيش كم؟ :)

- حسني مبارك اتصل على زين العابدين بن عليّ في جدة.. وقال له: لو حتنام بدري ابقى والنبي سيبلي المفتاح تحت الباب :)

* * *

في الليل.. يتحوّل ميدان التحرير إلى مجموعة من اللوحات الفنيّة.. ففي الوقت الذي تبقى فيه مجموعاتٌ كبيرة تضم كل واحدةٍ منها من بضعة مئات إلى بضعة آلاف، حيث تستمر في مسيراتها وهتافاتها السياسية المعتادة.. تتشكل في الوقت ذاته عشرات المجموعات التي تضم كل واحدة منها عشرات الشباب في كل أنحاء الميدان.. وتبدأ هذه المجموعات بإبراز المواهب الفنيّة المُختلفة عند الشباب.. فمجموعات تُردد بشكل جماعي الأغاني النِضالية للشيخ إمام.. ومجموعاتٍ يلقي فيها بعض الشُعراء قصائد فصيحة.. وثالثة تُلقى فيها القصائد المصريّة الشعبيّة.. وأخرى تضج بالأناشيد والأهازيج.. والتصفيق والتصفير يتعالى في المكان.. وكأننا في رحلة خَلَويّةٍ لا حشداً سياسياً.

ومن المشاهد اللافتة في الميدان حجم التكافل الاجتماعي المُبهر.. فكل حينٍ يدور بين المُحتشدين بعض الشباب الذين تطوّعوا بتوزيع بعض الأطعمة الخفيفة أو الماء.. لذلك.. وتضامناً مع هذا المشهد الجميل، قررنا - أنا وبعض الأصدقاء السعوديين - أن نقوم يومياً بالاتفاق مع مطعمٍ

لتحضير ٥٠٠ وجبة خفيفة لتوزيعها على المُحتشدين طوال أيام بقائنا.. وكنت أقول لهم ضاحكاً: أتمنى ألا يَعتبِر النِظام هذا الفِعل تمويلاً خارجياً للثورة :)

ومن المظاهر الجميلة أيضاً التي رأيناها في ميدان التحرير، هو تطوّع العديد من الناس بحمل أكياس كبيرة وجمع القِمامة من أرجاء الميدان.. وكان واضحاً أن بعض هؤلاء هم من أبناء الذوات والمُتعلّمين، ومع ذلك لم يستنكفوا القيام بهذا العمل.. وفي الأحياء السكنيّة كان ينشط دوماً عددٌ من سكان الحي بمَهمّة تنظيف الطُرُقات.. وفي أحد النهارات رأيتُ في حي الزمالك ـ حيث نسكن ـ مجموعة من الفتيات من بنات الحي يرتدين أغطية للفم والأنف، وينظفن الشوارع.

ورغم غياب النظام، واختفاء رجال الأمن، إلا أن القاهرة بدت في حالة تكافلية استثنائية ومُبهرة.. كان الجميع يُحس بالمسؤولية.. وشعر الناس بأن التخويف بالفوضى كان مجرد ورقة يستخدمها النظام للتخويف من أي ضغوط شعبية تُطالب بالإصلاح، فضلاً عن الثورة.. ولكن الثورة قامت.. ولن تهدأ إلا بإسقاط النِظام.

في المليونية الأولى..
تشكيل السُلطة بمقهى شعبي



(*) نُشرت في صفحتي بالفيس بوك صباح الأربعاء ٢ فبراير.

منذ أول صباح يوم الثلاثاء بدأت جُمُوع الناس تتجه بكثافة إلى ميدان التحرير، تلبيةً للمظاهرة المليونية التي دعا إليها شباب الثورة.. من جانبها قامت الحكومة بعمل إجراءاتٍ عديدةٍ لمنع تدفق الناس.. فقامت أولا بإيقاف كل شبكة القطارات منذ يوم الاثنين، حتى لا يتدفّق الناس من الأقاليم إلى القاهرة.. ثم قامت بعمل حواجز تفتيش أمنيّة كثيرة تتعمّد تعطيل الناس لساعات، سواء في الطُرُقات السريعة خارج العاصمة، أو في الشوارع المؤدية إلى ميدان التحرير داخل القاهرة.

وتسببت هذه الإجراءات في منع عشرات الآلاف من الوصول للتحرير.. لذا توقع البعض ألاّ يكتظ الميدان بالحضور.. ولكن ما إن اقترب وقت الظهر، إلا وميدان التحرير مُمتلئ بالناس إلى حد الانفجار، في مشهد يُشبه زحام الحجيج المُتعجّلين في طواف الوداع.. فرغم ضخامة الميدان.. إلا أنك لا تستطيع السير بداخله بضعة أمتار إلاً بمشقّة بالغة.. حتى إن أحد الشباب المُنظِّمين للتظاهرات قال ساخراً ووجهه ينضح بالفرح: (إحنا صحيح قلنا عاوزين الناس تجي كتير.. بس مش للدرجة دي.. بقينا مش عارفين نمشي خطوتين).

وفي مدخل ميدان التحرير، كانت قوات الجيش تطلب من جميع الداخلين عرض هوياتهم الشخصيّة.. وكان أحد الضباط يقف على رأس الدبابة ويُردِّد: (طلعوا الهويات يا جماعة.. وممنوع دخول رجال الشرطة).. حيث كان الجيش يمنع دخول رجال الشرطة بلباسٍ مدني، خشيةً من أي أعمال شغب أو تخريب يقومون بها.

كان ميدان التحرير يرتج بالدوي طِوال اليوم.. والأمواج البشرية التي تملؤه تهتف بأعلى صوت مُطالبة بإسقاط النظام.. وأحياناً تُردد هتافاتٍ فيها كثير من السخرية.. حيثُ خاطب المُتظاهرون الصحافة المصرية الرسمية التي شككت بقدرة المعارضة على حشد حتى عشرات الآلاف.. وقالوا:

الصحافة فيين .. المليون أهُمّ .. الصحافة فيين .. المليون أهُمّ

ثم استمرّت الهُتافات الساخرة:

عايزين حكومة حرّة .. العيشة بقت مُرّة

عايزين حكومة جديدة .. بقينا ع الحديدة

وفي وسط الميدان كان هناك شابٌ يحمل (كيس زبالة)، وكان يدور ويُردد وهو يجمع القِمامة من الناس: تبرّعوا للحزب الوطني .. تبرّعوا للحزب الوطني.

وفي طريقنا إلى أحد أطراف الميدان، كانت هناك جُمُوع تُصلي العصر.. وهناك ممر صغير بمحاذاتهم لعبور الناس.. وإذ برجل مُسِن يسدّ هذا الممر ويصلي فيه.. الغريب أنه كان يصلي باتجاه مختلف عن اتجاه بقيّة المُصلّين!.. فقال له أحد

المارّة وهو يُصلّي: (ياحج انتا كدا قفّلت الطريق.. وبعدين انتا بتصلّي عكس القبلة).. فرد عليه شخص آخر كان يسير وراءه: (يا عم مش مشكلة.. أهم حاجة انو بيصلي).

وفي مُنتصف العصر، خرجت مع بعض الأصدقاء إلى أحد الطرق المُتصلة بميدان التحرير (شارع شامبليون)، وجلسنا على قهوة شعبيّة بقرب الميدان.. وإذ بمجموعة من ثمانية أشخاص يجلسون بجوارنا، أحدهم كان مُستفرداً بالكلام وبحماس والبقية صامتون.. زعيم هذه المجموعة الذي كان يتحدث طِيلة الوقت، استطاع أثناء جلسته هذه في المقهى ـ وخلال ربع ساعة فقط ـ أن يُعيِّن حكومة جديدة.. ويُشكّل مجلساً جديداً أسماه مجلس رئاسة.. ثمّ قام بتعيين رئيس جديد للدولة.. وبعد ذلك أعلن أول عشرة قرارات ستُصدرها الحكومة الجديدة.. أولها قرار إنهاء معاهدة كامب ديفيد.. ثم قرار رفع الحد الأدنى للأجور.. وتشكيل مجالس شعبيّة.. ثم قام بوضع دستور جديد.. ولم يُبقِ شيئاً يُمكن للحكومة الجديدة (التي شكلها بنفسه) أن تفعله خلال عشرة أعوام إلا وعمله خلال الربع ساعة تلك.. حتى إن أحد الجلوس قال له بسخرية: ياعم انتا باقي بس تعلن الحرب :)

وما هي إلا دقائق، وإذ بنفس المجموعة ـ بقيادة الزعيم طبعاً ـ يقومون بكتابة البيان رقم واحد.. حيث تداولوا بشأنه لبعض الوقت.. ثمّ وقف الزعيم فوق الكرسي وبدأ يقرأ البيان على الناس.. عِلماً أن مجموع من كانوا في القهوة لحظتها لا يتجاوز الـ ١٥ شخصاً!

وبعد أن فرغوا من هذه المهمّة النضالية الشّاقة.. وأنهى الزعيم قراءة البيان.. نزل من على الكرسي، وبدأ يُغني أغاني

وطنية حماسية: (خلي السلاح صاحي) و (يا دولةَ الظُلم انمحي وبيدي).. وصار جميع الحضور يُغنُّون معه.. وبدأ المُحيطون بالمقهى يقتربون ويُغنُّون ويصفِّقون.. واستمر الوضع على هذه الحالة قرابة النصف ساعة.. وقد قمتُ خلالها بتسجيل عددٍ من المقاطع لهذا الاحتفال المُبكّر بالنصر.. ثم بعد فراغهم من الغِناء، صافح الزعيم جُمُوع المُواطنين (عندها كانوا قرابة الـ ٢٥ شخصاً) وهو يقول: دي حاجة بسيطة كده.. يعني يمكن اعتبارها ترفيه للثورة.. وبعدها راجعين تاني لمُبارك :).. (بعد عودتي أنزلتُ هذه المقاطع باليوتيوب تحت اسم «ترفيه الثورة على قهوة مصريّة»).

وفي الطرف الآخر من المقهى كان هناك عجوزان يشربان الشاي ويتكلمان بحماسٍ عن الثورة.. وبعد قليل جاءهم عجوزٌ ثالث وقال لهم ضاحكاً: (إيه اللي مطلّعكم في وقت حظر التجوّل يا بشوات؟) .. فرد عليه أحدهم: (أصل انتا مش فاهم.. دا حظر تجوّل للحكومة مش للشعب).

وفي زاوية ثالثة بنفس المقهى كانت هناك امرأة كبيرة تجلس وبصحبتها طفلة صغيّرة.. الطفلة خاطبت أمها بلثغة جميلة: (ياماما احكيلي حدّوتة).. فردت عليها الأم: (شوفي يا بنتي.. لما الرئيس يغور ححكيلك أحلى حدّوتة).

بصراحة حوت هذه الجلسة البسيطة في المقهى من الظَرَف ما لن نجده في أي مسرحيّة ساخرة.

وبعد صلاة المغرب، عُدنا إلى ميدان التحرير.. ومكثنا بضع ساعاتٍ نتجول في جميع الزوايا والأنحاء.. نسمع الهُتافات المُختلفة.. ونتحدث مع الشباب.. ونرقب الناس

بأطيافهم الفكرية والسياسية وهم يجتمعون خلف مطلبٍ وطني واحد.. كان التحرير يعيش يوتوبيا حالمِة.. جمهوريةً مثاليةً تشكلت وسط الميدان.. ففي لحظة غياب للدولة.. يحتشد يومياً مئات الآلاف.. ولا أحد يؤذي أحداً.. ولم تُرصد حالة سرقة أو تحرّش.. وكان التكافل في الطعام والعلاج والنظافة والهمّ السياسي سِمة يلحظها الجميع.. كانت لحظةً وطنيةً استثنائيةً سيتوقف عندها التاريخ طويلاً.

بعد الساعة العاشرة ليلاً.. استأذنت أصحابي.. وجلستُ بمفردي على رصيفٍ في أحدِ أطراف الميدان.. وكتبت:

* * *

صباح كل يوم.. نتيهُ بين الحُشُود.. وسط مِئات الآلاف في ميدان التحرير.. نتنفّس هواء الحُريّة المُشبع برائحة الغاز المُسيل للدموع.. ونهتفُ مع الهاتفين.. ونلهثُ وراء الأمل الكبير لهذه الأمواج البشريّة.

إرادة التحرّر التي أشعلت الكرامة في شرايين الشعب.. وروح الثورة التي أوقدت كل كوامن الوجع المُتراكم عبر السنين.. هي التي ستصنع النصر.. وهي التي ستُعيد الإرادة للأمة من جديد.. وهي التي ستقتلعُ الشوك من حُقول الحُلُم.. وستزرع أزهار الزنبق في أراضي الجدب.

ما يجري الآن في ميدان التحرير.. لا يقف على أعتاب (إزالة ظالم).. بل يمتدُّ إلى ما هو أكبر وأهمّ.. إلى إعادة إنتاج الإرادة.. إلى تدشين صرح الحُريَّة بالعَرَق والدمّ.. إلى بناء متاريس، وحَفر خنادق، تقف دون اغتصاب القرار، ومُصادرة حق الأمة في الاختيار.

وسط الجُمُوع المُكتظّة في الميدان.. أتفرّس في الوجوه.. في الغضب المُتراكم خلف الملامح الهادئة.. في الحناجر التي ما ملّت الهُتاف.. وأقتربُ من رجلٍ خمسينيٍّ أنهكه التعب.. يجلس في وسط الميدان مع طفله ذي السبعة أعوام.. ومشغول بالحديث معه.. أجلسُ بقربه.. وأستلقي على ظهري.. وأستمعُ لهذا الأب وهو يقول: (يا ابني.. احنا طِلعنا هنا علشان كرامتنا.. وحنبات هنا علشان كرامتنا.. مش مهم نكون بردانين أو دفيانين.. المهم انه مش أي واحد يُحكُمنا ويظلمنا.. احنا لازم يكون لنا رأي.. ومنسكتشِ ع الظالم).. وأنا أستمع لهذا الكلام المُشتعل وسط لفح الصقيع.. شعرتُ بحُنجرتي تتيبَّس.. وبشيءٍ ساخنٍ يحجب الرؤية عن عينَيّ.. وعرفتُ حينها ماذا تعني التربية.. وماذا تعني القدوة.. وماذا تعني الكرامةُ حين تسري في دم الفقير والكادح فلا تزيده إلا إصراراً ويقيناً.

ليست حروب الرغيف هي التي أخرجت الحشود.. ولا أود الجوع هو ما ألهب نار الغضب في أرواحِهم.. ولا ارتباكاتُ الجيوبِ الخاوية هي التي جعلت حناجرهم تهتفُ وتُنادي.. بل هو الأمل.. والكرامةُ التي قد تذوي لكنها لا تموت.. ووجع الظُلم الذي يُشعل الثورة من تحت الرماد.

دوي الحشود يرجُّ ميدان التحرير صباح مساء.. فيتداعى ذلك الصوت إلى كُلِ العالم.. ليصل إلى تخوم المُحيط وشواطئ الخليج لحناً جميلاً وعذباً يُخبِرنا: أن أحجار الدومينو بدأت تتهاوى.. وأن حيّ الرُؤساء في جدة بانتظار الجميع.

* * *

في كل ليلة أتجوّل فيها وسط الحُشُود بميدان التحرير، لا أجد شيئاً يتردد على لساني أكثر من: (رحم الله الدكتور عبدالوهاب المسيري).. فكم كنتُ أتمنى لو شَهِد هذه الأحداث.. فها هو الحُلُم الذي طالما آمن به واشتاق إليه يتحقق على الأرض.. وفي آخر لقاءٍ لي معه في القاهرة قبل شهرٍ ونِصف من وفاته، قُلت له وأنا أرى نشاطه المُستمِر مع قوى المُعارضة، ونزوله الدائِم في المُظاهرات رغم مرضه الشديد: (يا دكتور أمازلتَ تعتقدُ أن هُناك أمل؟!.. تخرجون في المُظاهرات ولا يخرج معكم سوى مئة شخص!.. الناس يئست من التغيير.. ولا أمل يلوح في الأفق).. عندها كان يُجيبني بثقة: صدقني أن الأمور تغيرت.. والناس صارت أكثر وعياً.. انظر ماذا فعل العُمّال في (المحلّة الكبرى)، لأول مرة يتحرّك المُحتجون بهذا العدد.. انظر إلى سقف المطالب التي تُنادي بها حركة كفاية.. كان هذا شبه مُستحيل قبل سنين.. ويستمر د.المسيري بذكر شواهد عديدة على تطور الأمور.. ثم يقول: أنا مُتفائل.. مُتفائل كثيراً بالتغيير!

وها هو التغيير قد بدأ بالفِعل ..

من خط المُواجَهة
في موقعة الجمل



(*) نُشرت في صفحتي بالفيس بوك صباح الخميس ٣ فبراير.

دون شكٍ كان يوم الأربعاء أكثر أيام الثورة المصريّة أهميّة.. فقد كان الأشد عُنفاً.. والأكثر سخونة وجدلاً.. والأعلى في عدد المُصابين.. بالنسبة لي.. فإن ما حدث في ميدان التحرير يوم أمس كان تجربة مُثيرة واستثنائية بكل المقاييس.

بدأت المسألة مُنذ ليل الثلاثاء الذي شهد المظاهرة المليونية في ميدان التحرير.. حيث ألقى الرئيس حسني مبارك خطاباً عاطفيّاً قدَّم فيه بعض التنازلات، وحقق فيه بعض المطالب التي كانت تُنادي بها المُعارضة طوال السنين الماضية، والتي ترتكز على تغيير المواد (٧٦ ـ ٧٧ ـ ٨٨) من الدستور.. بحيث يجب أن ينصّ الدُستور المُعدَّل على عدم تجاوز مدة الرئاسة لفترتين فقط، وأن تُلغى من الدستور الشروط التعجيزيَّة لمن يُمكنه الترشّح للرئاسة، وأن يتم إقرار الإشراف القضائي على صناديق الانتخاب.. وقد حقق الرئيس في خطابه المطلبين الأولين، دون أن يُحقق المطلب المُتعلِّق بالإشراف القضائي.

ولكن طبيعة المطالب الشعبيّة شهدت تحوّلاً جذريّاً بعد

٢٥ يناير.. ولم تَعُد تقتصر على تعديل المواد الدستوريّة المذكورة.. بل تجاوزت ذلك وانحصرت في مطلب واحد فقط، هو (إسقاط النظام، وإنهاء حكم الرئيس مُبارك).. إضافة إلى أن هذا الحَرَاك الشعبي لم يعُد بيد أحزاب المُعارضة، بل صار أقرب إلى طموح المجموعات الشبابيَّة التي نزلت إلى الميدان، وبدأت الثورة.

وبعد خِطاب الرئيس في ليل الثلاثاء.. كان الحِزب الوطني قد أعدّ العُدَّة يوم الأربعاء لتسيير جماهير مُوالية له ترفع شعار أنها اقتنعت بخِطاب الرئيس، وأنه حقق لها مطالبها، وأنها تُطالب بإنهاء التظاهرات.

قامت الحشود الموالية للنظام بالتجمّع في ميدان مصطفى محمود بحي المهندسين في الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء.. وبدأت مسيرتها باتجاه ميدان التحرير.. وكانت الخُطَّة تتضمن أن تدخُل هذه الجماهير الموالية للنظام إلى ميدان التحرير، وترفع الصور والشِعارات المؤيّدة للرئيس مُبارك، وتطرد بالقوة حشود الثورة المُعتصمة في الميدان.

في الساعة الواحدة ظهراً بدأت الحُشُود الموالية للنظام ـ وتُقدّر بعشرات الآلاف ـ تصل بكثافة إلى ميدان التحرير، وبدأت بالدخول إلى الميدان من ثلاثة مداخل (من كبري قصر النيل.. ومن جهة كبري أكتوبر عبر مدخل ميدان عبدالمنعم رياض الملاصق لميدان التحرير.. ومن شارع طلعت حرب).. واستطاعت هذه الحشود أن تدخل وبكثافة وعُنف إلى الميدان حاملة العِصي والسكاكين واللافتات المؤيدة للرئيس.. وكان في طليعة هذه الحشود بعض الأفراد يعتلون أحصنة

وجِمال وبِغال، حيث تمكنوا من اقتحام الميدان بقوة وغفلة من الثوّار.. وتمكنت الحشود الموالية للرئيس من السيطرة على ثلث الميدان تقريباً.. وهنا بدأت معارك شديدة بالأيدي والعِصي والسكاكين بين شباب الثورة ومؤيدي النِظام، وحصل كل ذلك على مرأى ومَسمَع من قوّات الجيش التي بقيت تتفرج ولم تُحرّك ساكناً!

في هذه اللحظة كنا ـ أنا ورفاقي ـ خارج الميدان.. وفي قرابة الساعة الثانية ظهراً توجهنا إلى ميدان التحرير بعدما رأينا المواجهات على شاشة قناة العربية ـ طبعاً بث قناة الجزيرة مقطوعٌ في كُل مصر ـ.. وفي الطريق مع سائق الأجرة بدأنا نستمع إلى الإذاعة المصرية الرسميّة، وكان المُذيع لحظتها يتواصل مع مُراسل للإذاعة في الميدان، ويسأله عن الأوضاع هناك، وعما إذا كانت الساحة مُنقسمة بين المُعارضين والمُوالين.. هنا أكد المُراسل أن الجماهير المؤيدة للرئيس تُسيطر على كل الميدان، وأن الصور والشعارات المؤيدة هي وحدها المرفوعة هُناك.. ثم أكد بطريقة كوميديّة أن غالب المُعارضين انضموا إلى الحشود المؤيدة للرئيس، وأعلنوا توبتهم، وأكدوا أنهم كانوا على خطأ، وأن كل الميدان حالياً يهتف باسم (الريّس)، وأن الناس بدأت تشعر بالأمان والاستقرار!

وصلنا الميدان قُرابة الساعة الثانية والنصف ظُهراً.. وساعتها كانت المداخل الرئيسية للميدان مُغلقة وتقف عليها الحشود الموالية للنِظام.. هنا فكرت بأنه قبل البحث عن منفذٍ لدخول الميدان.. لماذا لا أقترب أكثر من الحشود الموالية للنظام، وأقضي معهم بعض الوقت في محاولة لمعرفة ما إن

كانوا بالفعل أناساً عاديين موالين للنظام، أم مجموعات مرتزقة ومأجورة.. فقررت مع أصحابي أن ننخرط ابتداءً بين المُوالين، لنتعرّف عليهم عن قُرب، ونرى الوجوه، ونستمع إلى الأحاديث، فذلك دون شك سيُعطينا مؤشراً واضحاً عن طبيعة هذه الحُشود.

طبعاً كان يشوب هذا الفِعل بعض الخطورة.. ففي مثل هذه الحالات.. حين يكتشِفُ كلُ طرفٍ أن بين حشوده أشخاصاً غرباء عنه، سيتهمهم مباشرة بأنهم موالون للطرف الآخر ـ هل سنُنكر لحظتها أننا موالون بالفعل للثوار :) ـ.. عندها قد يأتيك من الضرب والعُنف ما لا يعلمه إلا الله.. وقد شهدتُ بنفسي عدة مرات الطريقة التي يتم فيها القبض على الغُرباء والمُندسين.. وكان بعضهم بالفعل على وشك الموت بسبب شدة الضرب الذي لاقاه على يد مِئات المتجمهرين الذين يهجمون بعنف ويباشرون الضرب دون أن يتأكدوا من صِدق الاتهام الموجه لهم!.. كانت حالة غوغائية مُخيفة.. ولكنَّ التجرِبة كانت تستحق.

اتجهنا ابتداءً إلى مدخل الميدان من جِهة كُبري قصر النيل، وإذ به مُكتظٌّ عن آخره بأنصار النِظام، الذين استطاعوا أن يُسيطروا على كل المدخل وأجزاء من الميدان، واكتشفنا أن المعارك مازالت مُشتغلة بين الموالين للنظام وشباب الثورة داخل الميدان ـ لا كما قال مُراسل الإذاعة ـ وأن المواجهات مستمرة بالأيدي والعصي والسكاكين، وأن آلاف الحِجارة مازالت تُقذف من كل طرفٍ باتجاه الآخر.

عندها قررنا الخروج من هذا المدخل والاتجاه إلى مدخل التحرير من جهة ميدان عبدالمنعم رياض المتاخم

للمتحف القومي.. بصراحة.. كان المشهد هناك مُرعباً ومُفاجئاً.. آلاف المُحتشدين من أنصار النِظام يُشكلون كتائب مواجهة ترمي بآلاف الحجارة وأعداد من قنابل المولوتوف.. وقد تمترس كلُ طرفٍ (الموالون والثوّار) بعددٍ من السواتر الحديديّة.. بحيث بقي كل طرفٍ بعيداً عن الآخر قرابة الخمسين متراً.

حين تُراقب المشهد عن قُرب، وتُدرك طبيعة المعركة.. ترى آلاف الحِجارة التي تنهال في سماء المعركة.. وكانت الحِجارة التي تُرمى ذاتَ أحجام كبيرة نسبيّاً، بحيث يُمكن أن تكون مُميتة في حال أصابت الرأس، أو على الأقل ستتسببُ في إصابات بليغة.. كما أن قنابل المولوتوف تُحرقُ أجزاء كبيرة من الطُرُقات وبعض الدكاكين.. وكنّا كل قليلٍ نرى مُصابين غارقين بدمائهم ومحمولين على الأكتاف، يتم إرجاعهم إلى الصفوف الخلفيّة للعلاج.. وغدا الخَرَاب في الشوارع التي تجري فيها المواجهات وكأنها شوارع بيروت زمن الحرب الأهلية.. أما السيارات التي كانت تقف على جانبي الطريق فقد تهشّمت تماماً، إن لم تكن قد احترقت بقنابل المولوتوف.

استطعنا الاقتراب أكثر من خط المواجهة في الطرف الذي كان يُسيطر عليها الموالون للنِظام.. وكنتُ طيلة الوقت أحاول الاقتراب أكثر من هؤلاء، والاستماع إلى حِواراتهم، والتأمل في هيئاتهم.. وشاركناهم الكر والفر، حيث كانوا يهجمون بأعداد كبيرة، ثم بعد دقائق لا يستطيعون الصمود فيهربون بسرعة شديدة.. وكان في الخلف مجموعةٌ ممن يقودون هذه الهَجَمات، ويحرِّضون الشباب على الدخول،

ويصرخون فيهم: (يلاّ ياشباب.. اهجموا عليهم.. لازم مايجيش المغرب إلا واحنا مطلّعينهم من الميدان) ثم يقوم بعض هؤلاء القادة بدفع الشباب بالأيدي نحو المُقدِّمة للمشاركة في المُواجهات لكون البعض كان يُحجم عن ذلك.. وبسبب أننا اتفقنا ـ أنا ورفاقي ـ ألا نتحدث بلهجتنا أمامهم حتى لا يُدركوا أننا لسنا مصريين، فقد كانوا أحياناً يوجهون لنا الخِطاب الغاضب: (يلاّ.. أهجموا عليهم.. مالكو واقفين).. بل إن أحدهم قام بدفعنا إلى الأمام لنُشارك في المعركة.. وفي ثنايا وجودنا على هذه الجبهة.. وبسبب اقترابنا من الخط الفاصل بين الفريقين.. ومشاركتنا بمسيرات الكر والفر.. قُمتُ بحركات وأعمال ـ من ناحية الركض والقفز على الحواجز والدخول بين السواتر ـ لم أكن أتوقع أنني سأقوم بها يوماً.. كانت دورة ميدانية مُكثّفة :)

وبعد ساعة ونِصف قضيناها مع هذه الحشود المُوالية للنظام على ثلاثة مداخل للميدان.. وبعد سماعنا لكثيرٍ من أحاديثهم وحواراتهم، ورأينا هيئاتهم وأشكالهم، وصلتُ إلى نتيجة لا تُخالطها عندي ذرّة شك.. هي أن هؤلاء عبارة عن فريقين اثنين.. الأول: مجموعات من البلطجيّة الذين قام النِظام باستئجارهم من الأحياء العشوائيّة.. والثاني: مجموعاتٍ من رجال الأمنِ والشُرطة بملابس مدنيّة.. وفي مواجهاتٍ كهذه.. يُمكن أن تعرف بوضوح ـ من الطبيعة النفسيّة، والهتافات، ومقدار الشجاعة ـ الفرق بين صاحب القضية، والمأجور.

أيضاً لاحظتُ أن أكثر الشعارات التي يرفعها هؤلاء الموالون للنِظام ـ طبعاً بعد صور الرئيس والعِبارات الداعمة

له ـ كانت شعاراتٍ تشتم في البرادعي، وتتهمه بالعمالة لأمريكا وإسرائيل.. عندها أدركتُ أن البرادعي هو أكثر طرفٍ يُزعج النِظام حالياً.. وبالطبع ليس لأنه الأكثر شعبيّة.. بل لأنه وجهٌ معروف دولياً، ويُمكن أن يقبل به الغرب كبديلٍ للنظام الحالي.. لذا يعتبره نظام مُبارك أنه أكثر أطراف المُعارضة خطراً عليه.

وحينما كنتُ أستمع للحوارات التي كانت تدور بين الموالين للنظام، سمعتُ حواراً جرى بين مجموعةٍ منهم شعرتُ تجاهه بكثيرٍ من الألم.. وذلك حين قال أحدهم لبعض المُحيطين به وسط فورة المعركة: (إحنا مش كل الدول ضدنا يا رجّاله.. فيه دول كمان معانا وبتحبّ الريّس.. دي السعودية كلها معانا).. بصراحة شعرتُ حينها بالخزي.. هل صِرنا نحن في صف هؤلاء المُرتزقة والبلطجيَّة!

* * *

في قرابة الساعة الرابعة عصراً، قررنا أن نُفتّش بأي شكلٍ عن طريقة للدخول إلى الميدان.. يجب أن ندخل لنرى كيف تبدو المعركة من جهة شباب الثورة.. وبعد البحث في أغلب المداخل.. وجدنا أحدها من جهة (شارع محمد محمود) يسوده هدوء نسبي.. ويُسيطر عليه شباب الثورة.. اقتربنا منهم.. وأعطيناهم هوياتنا الشخصيّة.. فرحبوا بنا، وقاموا بتفتيشنا ـ كما هو معتاد ـ ثم أدخلونا إلى الميدان.

ميدان التحرير من الداخل يبدو وكأنه في حالة حرب.. ففيما بقي بعض النساء والأطفال الذين كانوا يبيتون هنا منذ البارحة.. ومن ثمّ حُوصروا وسط الميدان.. ترى جُمُوع

الشباب وكأنهم في جبهات قتال.. كان هناك آلاف الشباب الذين رأيناهم يركضون ويلهثون في سبيل تأمين مداخل الميدان.. وكانوا قد نظّموا أنفسهم على شكل مجموعات.. كل مجموعة تتكفل بحماية أحد المداخل.. وكلما اشتد القتال على مدخلٍ غادر بعض الشباب مواقعهم وذهبوا لمساندة الجبهة الساخنة.. وبالإمكان أن ترى بوضوح الفرق الكبير في الروح القتالية والقدرات التكتيكيّة بين شباب الثورة مقارنة بمجموعات البلطجيّة الموالين للنظام.. فشباب الثورة صنعوا لأنفسهم ابتداءً متاريس من الحديد وضعوها في خطوط المواجهة.. وقد قسّموا أنفسهم بشكلٍ أكثر احترافاً.. فهناك فريقٌ يهجم على الطرف الآخر.. وتجد هؤلاء قد ربطوا فوق رؤوسهم ألواحاً كرتونيّة أو بلاستيكيّة أو حتى أغطية قدور طعام، وذلك لتقي رؤوسهم من وابل الحِجارة.. وهناك فريقٌ آخر يستريح قليلاً بعد أن رجع للتو من المعركة، كي يعود بعد قليلٍ للمواجهة.. وهناك فريقٌ ثالث يُعِدُّ الحجارة ويقوم بتكسيرها ويوصلها للشباب في الصف الأول.. وهناك مجموعاتٍ مسؤولةٍ عن المُصابين، بحيث يتم نقلهم مباشرة إلى عياداتٍ طبيّةٍ تم تجهيزها في مواقع آمنة ويُديرها أطبّاء متطوعون من شباب الثورة.. وهناك أشخاص يجهِّزون قنابل المولوتوف.. وآخرون يقومون بنقل السواتر الحديدية وتقديمها عدة أمتار في كل مرة ينجحون فيها بإرجاع الموالين للنِظام للوراء.. فيما كان هناك بعض الشباب يقفون فوق بعض المباني القريبة من مناطق المواجهة ويقتصر عملهم على إحداث ضجيج مرتفع عبر الضرب العنيف على ألواحٍ من الحديد في حالات هجوم شباب الثورة على خصومهم بهدف إخافتهم.. وكانت التكبيرات تتعالى بشكل كثيف عند كل

هجوم.. ووابلٌ من آلاف الحجارة وقنابل المولوتوف ملأت سماء مناطق المواجهة بين الطرفين.

من المشاهد اللافتة حين يستطيع كل طرفٍ أن يقبض على أشخاصٍ من الطرف الآخر.. فقد كانوا يتعاملون معهم وكأنهم (أسرى!).. فكان البعض يبدأ بضربهم بشكل عنيف ـ كِلا الطرفان يفعلان ذلك ـ فيما كان البعض الآخر يحاول إيقاف الضرب وتذكير الشباب بوجوب حسن التعامل معهم.. ثم كانوا يُجْرُون معهم تحقيقات سريعة.. وقد اعترف بعض المقبوض عليهم من الموالين للنِظام بأنهم تلقّوا ٥٠٠ جنيه نظير مُشاركتهم في هذا اليوم.. ثم بعد انتهاء التحقيق، واستلام البطاقة الشخصيّة، يقوم كل طرف بتسليم رهائنه لقوّات الجيش.

بدا لي بوضوحٍ أن الشباب المُعتصمين في الميدان كانوا أكثر استبسالاً وشجاعة.. كانت المسألة بالنسبة لهم قضية حياةٍ أو موت.. لذلك كانت النِداءات تتردد بينهم وكأنهم في جبهة حربٍ حقيقيّة.. فالحديث يتعالى عن الجهاد، والصمود، والصبر.. وكان بعض الشيوخ يخطبون عبر الميكروفونات ويدعون الشباب لمواجهة مجموعات البلطجيّة، وحماية الثورة، ويتلون عليهم الآيات والأحاديث التي تحثهم على جهاد الظالمين.. وفي خط المواجهة، سمعتُ أحد الشباب الغاضبين يصرخ في خصومه وهو يهمّ بإلقاء حجر كبير عليهم: (يا كَفَرَة).. وكان آخر يخطب في الشباب ويقول لهم: لسنا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاهم في النار!.. فيما قام النساء والأطفال المُحاصرون داخل الميدان بتشكيل مسيراتٍ تقترب من خطوط المواجهة، وتهتف للشباب بالأناشيد الحماسية، والأغاني الوطنيّة.

استمرّت شدة المعركة من الساعة الواحدة ظهراً وحتى الثامنة مساءً.. وقد استطاع شباب الثورة بعد سبعِ ساعات من المعارك العنيفة على عدة مداخل للميدان، أن يطردوا البلطجيّة الموالين للنظام من هذه المداخل.. وأبعدوهم لمئات الأمتار، حتى عن الطُرُق والميادين القريبة.. ثم قاموا بوضع متاريس حديديّة متقدمة في أطراف كل الشوارع المُحيطة بميدان التحرير، وأشعلوا النار ببعض الإطارات والأخشاب في المواقع التي لا يُريدون أن يتجاوزوها.. فصار ميدان التحرير بالكامل وكل الشوارع المتفرعة منه (مناطق مُحرّرة).. ولم يتبقَ موقع للمواجهة سوى مكانٍ واحدٍ هو آخر ميدان عبدالمنعم رياض المتصل بميدان التحرير، وذلك بسبب وجود كبري أكتوبر الذي يجعل من قدرة الشباب على تجاوزه أمراً صعباً.. وفي هذا الموقع استمرَّت بعض المُناوشات طِوال الليل.. أما في المداخل الأخرى، فقد تقدّمت بعض قوات الجيش ـ التي ظلَّت تُراقِب المعركة بصمت! ـ.. وقامت بإطلاق رصاص كثيف في الجو لتُعلِن استلامها لتلك المداخل.. وقد أسفرت هذه المُواجهات في هذا اليوم عن سقوطِ أحد عشر قتيلاً، وأكثر من ألفِ جريح.

طوال الأيام الماضية التي قضيتُ فيها غالب وقتي بميدان التحرير، كان من بين الأمور التي كنتُ حريصاً على رصدها وتقديرها هي (مدى مُشاركة الإخوان المُسلمين في الحشود المُعتصمة بالميدان).. وقد لاحظت أن حضور الإخوان كان محدوداً يوم السبت.. ثم ازداد بعض الشيء يوم الأحد.. ثم بدا واضحاً تماماً يوم الاثنين، حيث أقدِّر أنهم كانوا يُمثلون ـ يوم الاثنين تحديداً ـ رُبع المُعتصمين في الميدان.. أما يوم

أمس الأربعاء ـ يوم موقعة الجمل ـ فبتقديري كان قُرابة الـ ٥٠٪ من شباب الثورة الذين تولوا مواجهة البلطجيّة المُوالين للنِظام هم من شباب الإخوان المسلمين.. وهذا كله بالطبع تقدير شخصي وليس رصداً دقيقاً.

ماذا كان سيحصل لو نجح المُوالون للنظام بطرد شباب الثورة من الميدان؟.. في تقديري أنهم كانوا ينوون أولاً تفريغ الميدان بالكامل من أي اعتصام للثورة.. ثم يُعلن الجيش بعد ذلك منع أي تظاهرات في الميدان.. وتُغلَق المنطِقة بالكامل.. وكان هذا الأمر ـ في حال تم ـ سيُشكِّل ضربة مُوجعة لمسيرة الثورة التي ما فتئت تتعاظم ويزداد ضغطها على النِظام.. ولكن شباب الثورة الشُجعان أبطلوا هذا السيناريو، وكسبوا مزيداً من تعاطف الشرائح الصامتة من الشعب.

فتعظيم سلام لهؤلاء الأبطال ..

وفي المغرب.. شباب ٢٠ فبراير يُردِّد:
المُواطن لا يُهان.. والبوعزيزي هو البُرهان



(*) نُشرت في صباح ٢١ فبراير ـ الدار البيضاء.

منذ وصولي إلى الدار البيضاء في المغرب يوم ١٦ فبراير والحديث لا يكاد يتوقف عن توقعات ما سيحدث في يوم (٢٠ فبراير).. حيثُ أعلنت مجموعات شبابية عبر الفيس بوك هذا التاريخ كموعدٍ لبدء التظاهرات في كُل المُدن المغربيّة.. وذلك للإعلان عن عددٍ من المطالب الإصلاحية الجذرية في النظام السياسي.. مُستفيدة من موجة الثورات والتحرّكات الديمقراطية التي بدأت تجتاح العالم العربي.

وكان أول من دعا في المغرب إلى هذه التظاهرات شابٌ من قوى اليسار اسمه (أسامة الخليفي)، وذلك عبر مقطع فيديو قصير يظهر فيه وهو يدعو إلى التظاهر في هذا التاريخ.. ثم تبعه تسجيل آخر لشابٍ من الإسلاميين اسمه (سعيد بن جبلي).. وبعدها توالت دعوات الشباب، وبدأت كرة الثلج تكبر، ومعالم المطالب السياسية لهذه الدعوات تظهر وتتشكل.. وحين استمرَّت مساحة المُطالبة بالتظاهر تتسع، بدأت تنضمّ لها بعض الأحزاب والمجموعات الشبابيّة المؤطرة حزبياً.. وكانت الأحزاب اليسارية هي أول من بادر بإعلان انضمامها لهذه التظاهرات، حيث أعلن كلٌ من حزب النهج الديمقراطي (وهو اشتراكي ثوري)، واليسار الاشتراكي الموحد، والطليعة الديمقراطي، انضمامهم لدعوات التظاهر.. في المُقابل

أعلنت شبيبة العدل والإحسان (التي يتزعمها الشيخ عبدالسلام ياسين) وشبيبة الاتحاد الاشتراكي، وشبيبة حزب العدالة والتنمية الإسلامي، انضمامها لهذه التظاهرات.. كما انضمّت لدعوات التظاهر كثيرٌ من المنظمات الحقوقيّة المغربيّة.

وفي يوم الخميس (١٧ فبراير) عقد مجموعة من الشباب المنظمين لهذه التظاهرات (أطلق عليهم بعد ذلك «حركة ٢٠ فبراير») مؤتمراً صحفياً في مقرّ الجمعيّة المغربيّة لحقوق الإنسان، أعلنوا فيه لائحة مطالبهم بكل وضوح، وفي مُقدمتها: تشكيل ملكيّة برلمانيّة، تكون فيها الصلاحيات بيد رئيس وزراء قادم من أغلبية برلمانية.. ووضع دستورٍ جديدٍ يتكئ على أسس ديمقراطية.. وحلّ البرلمان الحالي، وإقالة الحكومة.. وفي المؤتمر ذكروا أنهم تعرّضوا لضغوط أمنية عديدة وتهديدات، بل وأعلنوا أن الأمن قام باعتقال بعض أفراد مجموعتهم.

ومن بين القضايا التي أثارت جدلاً واسعاً في الفضاء السياسي المغربي كان موقف حزب العدالة والتنمية الإسلامي، الذي شهِد انقساماً واضحاً في موقفه من هذه التظاهرات.. فمن جِهة أعلن الأمين العام عبدالإله بن كيران أن الحزب لن يُشارك في هذه المظاهرات.. وهو الأمر الذي رفضه عددٌ من قيادات الحزب الذين أكدوا أن بن كيران أعلن عدم المُشاركة دون الرجوع لمؤسسات الحزب (مجلس الأمانة العامة).. وكان مجلس الأمانة بدوره مُنقسماً تجاه المشاركة في هذه التظاهرات.. ففيما كان بعض أعضاء المجلس يتفقون مع موقف بن كيران.. كان آخرون يُفضلون أن يتمثّل موقف الحزب بـ (الصمت) دون إعلان المُشاركة من عدمها، وعلى رأس هؤلاء الأمين العام السابق، ورئيس المجلس الوطني في الحزب د.سعدالدين العثماني.. فيما كان فريقٌ ثالث من أعضاء

مجلس الأمانة يرون ضرورة المشاركة في هذه التظاهرات، وفي مقدمتهم أحد أبرز صقور العدالة والتنمية، ورئيس الكتلة البرلمانية للحزب، المُحامي مصطفى الرميد.. ولأن الأمين العام عبدالإله بن كيران أعلن عدم مشاركة الحزب دون الرجوع إلى مجلس الأمانة العامة.. أعلن المحامي مصطفى الرميد ود.عبدالعلي حميدالدين وآخرون من أعضاء مجلس الأمانة العامة قرارهم بالمشاركة في هذه التظاهرات لأسبابٍ عديدةٍ ذكروها في بيان خاص.. ولكون عبدالإله بن كيران هو الأمين العام للحزب، قام بالضغط على قطاع شبيبة العدالة والتنمية (ويضم الآلاف) الذي كان قد أعلن نيته المشاركة في مظاهرات ٢٠ فبراير.. فأعلنت الشبيبة مُجدداً انسحابها من المُشاركة.

بدا المشهد السياسي في المغرب مشوباً بكثيرٍ من القلق.. فقطار الربيع العربي منذ اعتلاه جسد البوعزيزي لا يكاد يتوقف.. فما إن قامت ثورة تونس بإسقاط النظام في (١٤ يناير).. حتى بدأت الثورة في مصر، وأسقطت النظام في (١١ فبراير).. ثم بدأ فتيل الثورات يتصاعد في عددٍ من الدول العربية الأخرى.. فبدأت ثورة اليمن في (١١ فبراير).. ثم ثورة البحرين في (١٤ فبراير).. ثم ثورة ليبيا في (١٧ فبراير).. لذا كان إعلان الشباب المغربي عن مظاهراتٍ تعمّ جميع المدن المغربية في ٢٠ فبراير مُثيراً لكثيرٍ من الأسئلة حول السقف الحقيقي لمطالب هذا الحراك؟ وهل سيبقى في حيّز الإصلاح أم سيتجاوزه إلى إسقاط النظام؟.. وعن مدى الزخم الشعبي لهذه المظاهرات، والكيفية التي سيتعامل بها الأمن المغربي معها.

في ظهيرة السبت (١٩ فبراير) كنتُ مدعواً على الغداء مع عددٍ من قيادات حزب العدالة والتنمية ومنظمة الكرامة

لحقوق الإنسان في منزل المحامي مصطفى الرميد بالدار البيضاء.. ودار في ذاك اللقاء نقاشٌ كثيف حول تصوراتهم لمظاهرات الغد.. وعن انقسام حزب العدالة والتنمية تجاه هذا الحَدَث.. وطلب مني المحامي الرميد أن أتحدث لنصف ساعةٍ عن تجربتي في ميدان التحرير أثناء الثورة في مصر.. وعن طبيعة حراك الشباب المصري.. وعن المخاوف الأمنيّة التي كانت سائدة.. وعلاقة الشباب بالأحزاب.. وتأخر مُشاركة جماعة الإخوان.. وعن كثيرٍ من الأسئلة التفصيليّة حول الثورة المصريّة.. ومن خلال النقاشات التي تجري في الصالونات السياسيّة، وما يدور في مواقع النت والقنوات والصحف المغربية، بدا واضحاً أن المشهد السياسي المغربي بكل أطيافه يترقب باهتمامٍ مظاهرات الغد.

في صباح اليوم الأحد (٢٠ فبراير) انطلقتُ عبر القِطار من الدار البيضاء إلى الرباط.. حيث ذكر لي المحامي الرميد أن العاصمة ستشهد أكبر تجمّعٍ لحشود المتظاهرين.. وكانت حركة ٢٠ فبراير قد أعلنتً المواقع التي ستجري بها المظاهرات في كل المُدن المغربيّة.. وفي الرباط سيكون التجمّع في أكبر ميدان بالمدينة (ساحة البريد)، التي تقع في أهمّ طريقٍ بالعاصمة (شارع محمد الخامس).. وهذا الشارع - الذي تتوسطه الساحة - بناه الفرنسيٌّون في مطلع القرن العشرين بالمنطقة الواسعة التي تقع بين الرِباط القديمة والقصر المَلَكي.. حيث يقع في وسطها مقرّ البرلمان، والبنك المركزي، ومحطة القطار.. وفي طرفها يقع القصر الملكي، ومسجد (السُنّة) الضخم الذي بُني قبل ثلاثة قرون.

وفي ذات الساحة كان هناك المركز الثقافي السوفييتي

الذي استمر في ذات المكان لأكثر من ثلاثين سنة.. ثمّ بعد سقوط الاتحاد السوفييتي . ويا للمُفارقة . تأسس في موقعه أول فرعٍ للمطعم الأمريكي الشهير ماكدونالدز!

بدأت أفواج المُتظاهرين بالتجمّع قُرابة الساعة العاشرة صباحاً.. وما إن بلغت الساعة الحادية عشرة حتى بلغت الحشود قُرابة العشرين ألفاً.. وبدأت تتشكل مجموعات عديدة كلُ واحدة منها تضمّ بضعة آلاف، ويغلب على بعضها طيف فكري أو سياسي مُحدد (مجموعة يغلب عليها اليساريون، وأخرى شباب جماعة العدل والإحسان، ومجموعة كان فيها بعض ضحايا وأهالي مُعتقلي السلفيّة الجِهادية ...الخ).. وبدأت الشِعارات ترتفع وسط حضورٍ واضح لما حصل في تونس ومصر خلال الأسابيع الماضية، ولما يحصلَ الآن في بعض الدول العربية وفي ليبيا تحديداً.

جزء كبير من الشعارات التي أُطلِقت في هذه التظاهرة كانت ضد الوزير الأول عبّاس الفاسي (لا يوجد في المغرب «رئيس وزراء»، يوجد «وزير أول» بصلاحيّات محدودة) وضِد عائلة الفاسي التي صارت تُتَّهم بأنها النُسخة المغربيّة من عائلة الطرابلسي التونسية، ومن أحمد عِزّ المِصري.

وفي ثنايا الحشود تسمع هتافاتٍ عديدة، مثل:

الشعب .. يُريد .. تغيير الدستور

الشعب .. يُريد .. إسقاط الحكومة

الشعب .. يرفض .. دستور العبيد

حُكُومة فاشيّة .. حُكُومة انتهازيّة

الحكومة فاسيّة (نسبة للفاسي) .. والشعب هو الضحيّة

الاحتِجاج حقٌّ مشروع .. والمخزن ماله مخلوع (المخزن وصف يُطلق في المغرب على السُلطة السياسية، وأحياناً الملِك تحديداً)

إدانة شعبيّة .. للسيّاسة المخزنيّة

إدانة شعبيّة .. للمجازر الليبيّة

القذافي يا حقير .. قتلتَ قتلتَ الجَمَاهير

القذافي يا خسيس .. الدم الليبي ما هو رخيص

المُواطن لا يُهان .. والبوعزيزي هو البُرهان

مش بِعيد مش بِعيد .. الرِباط وسيدي بوزيد

ثم يقوم أحد الشباب ويردِّد عبر الميكروفون:

نااضل يا مُناضل .. نااضل يا مُناضل .. من أجل الحُريّة

فترد عليه الحُشود: ناااضل

ضد استبداد .. ناااضل

ضد الطبقيّة .. ناااضل

ضد الفاسيّة .. ناااضل

ضد التفقير .. ناااضل

ضد التجويع .. ناااضل

وفي المجموعات اليساريّة تُطلق كثيرٌ من الشعارات الاشتراكيّة، وترتفع صور غيفارا وبعض المُناضلين اليساريين المغاربة.. وتُطلق أحياناً هُتافات أكثر جذريَّة:

مُبارك راح راح .. والسادس ما هو مرتاح (أي الملك مُحمد السادس)

الدور الدور .. الدور الدور

فيهتف أحدهم: تونس

فيردون عليه: جاها الدور

مِصر .. جاها الدور

ليبيا .. جاها الدور

البحرين .. جاها الدور

والمغرب .. بيجيها الدور

التقيت وسط الحشود عدداً من الأصدقاء والمثقفين المغاربة.. المحامي مصطفى الرميد.. ود.عبدالعلي حميدالدين.. والمثقف محمد الشيخي.. والكاتب المعروف توفيق بوعشرين رئيس تحرير صحيفة «أخبار اليوم».. والأستاذ أحمد ساسي نائب الأمين العام لحزب «الحركة من أجل الأمة».. وسواهم.. وكنت كل حينٍ أتحدث مع بعضهم ـ خلال الساعات التي قضيتها في ساحة التظاهر ـ عن تقديرهم لمدى نجاح مظاهرات اليوم.. وعن تصوراتهم للمستقبل.. وكان الجميع متفقين على أن الحراك السياسي الذي بدأ اليوم سيتعاظم إذا لم تقم السُلطة بإصلاحات جذرية في النظام السياسي.. وأن على السُلطة المسارعة بذلك، لأن النظام الملكيّ مازال محل إجماع في المغرب.. وأن الإصلاحات السياسية هي الطريق الوحيد لقطع الطريق على أي أصوات قد تُطالب مستقبلاً ـ في حال رفض السُلطة القيام بإصلاحات ـ بإسقاط النظام.

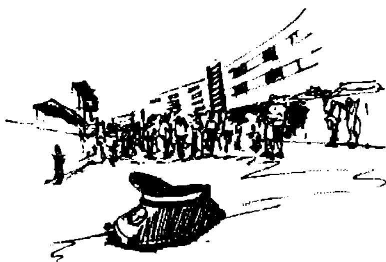
خلال تواجدي بين الحشود حرصتُ على أن أتجول في كل أرجاء الساحة.. بهدف الاقتراب من كل المجموعات.. وسماعِ أكبر قدرٍ من الهُتافات.. وقد ساعدني بعض الأصدقاء في تعريفي بالهويّة الحزبية والسياسية لعددٍ من المجموعات.. وبدا واضحاً ـ وكما في ميدان التحرير المصري ـ أن النواة الصلبة لشباب حركة ٢٠ فبراير هم من أبناء الطبقة الوسطى، الذين يحظون بقدرٍ جيدٍ من التعليم، ويملكون وعياً وانضباطاً عالياً في العمل السياسي.

قدَّرتْ بعض وسائل الإعلام المُحايدة أن تِعداد من تظاهر في كُل المغرب قارب المائة وخمسين ألفاً.. حيث تظاهر في الرباط ما يُقارب العشرين ألفاً.. وفي كل مدينة كبيرة بالمغرب كانت هناك حُشود تتراوح بين عشرات الآلاف وبِضعة آلاف.

كان واضحاً أنه بسبب الطبيعة السياسيّة للمغرب، ومقدار الانفتاح السياسي النسبي، والوجود الحقيقي للعمل الحزبي، بدت تجربة التظاهر سلميّة وهادئة إذا ما قورنت بما يحصل في ليبيا واليمن والبحرين.. إلا أن كثيراً من القوى السياسية تُعوّل على نجاح هذه التظاهرات في الضغط على السُلطة من أجل إحداث تغييرات كبيرة وجذريّة في النظام السياسي باتجاه مزيدٍ من الديمقراطية وحقوق الإنسان.

رحم الله البوعزيزي.. فقد كانت روحه حاضرة في فضاء التظاهرات والثورات التي عمّت مُدن المغرب والمشرق، وألهبت وجدان المُواطنين العَرَبّ من المُحيط الهادر، إلى الخليج الثائر.

الطريق إلى سيدي بوزيد ..
أرض السابقين الأولين في الثورة



وأنا أستمع إلى الأستاذ الذي هاتفني ليدعوني للمشاركة في مؤتمرٍ سيُعقد بتونس.. لم أفكر لحظتها في طبيعة المؤتمر وموضوعه، بقدر ما شعرتُ بأنها لحظة مناسبة لرؤية (تونس ما بعد الثورة).. تلك التي أوقدت الشرارة، وفيها سقط حَجَر الدومينو الأول في مشهد التداعي العربي الكبير.

وحين أتحدث عن (تونس ما بعد الثورة) فكان بداهة ـ عندي على الأقل ـ أن تشمل الرحلة زيارة المدينة الصغيرة التي انطلقت منها الثورة (سيدي بوزيد).

ولأن المؤتمر يتحدث عن العالم العربي بعد الثورات. وقد اختار لهذا السبب تونس مكاناً لانعقاده.. فقد دفعني هذا إلى توقع أنني سأجد عدداً من ضيوف المؤتمر يُشاركونني الرغبة في زيارة سيدي بوزيد.. ولم تكن المفاجأة في أنني لم أجد أحداً ينوي ذلك.. فهذه المدينة الصغيرة ليست قريبة من العاصمة، بل تقع في منطقة صحراوية حارّة بوسط تونس، وتحتاج لكي تصل إليها إلى أكثر من أربع ساعات بالسيارة.. لكن المفاجأة كانت في مدى اندهاش الكثيرين حين أسألهم إن كانوا يرغبون في الذهاب إلى هذه المدينة.. وكان سؤالهم

المُتكرر: وهل في سيدي بوزيد شيء يستحق الزيارة؟!..
فكنتُ أجيبهم ضاحكاً: بالطبع.. هناك البَرَكة.

أصدقاء توانسة قالوا لي بأنه يجب الحَذَر في هذا الوقت تحديداً أثناء زيارة سيدي بوزيد.. لأن مناطق قريبة تشهد حالياً مواجهات دامية مع الأمن، وقد سقط حتى الآن عشرة قتلى وتسعون جريحاً.. وقد تتسع رقعة المواجهات أكثر وتمتد إلى مُدُن أخرى.

تقع مدينة سيدي بوزيد بوسط تونس تماماً، وهي جنوب العاصمة بقرابة الثلاثمئة كيلو متر.. وفي منتصف الطريق إليها تقع مدينة القيروان التاريخية.. لهذا انطلقتُ صباح الأحد ٥ يونيو في حافلة بصحبة عدد من المشاركين في المؤتمر، الذين قرروا زيارة عِدة مدن سياحية بدءاً بالقيروان.. وعند وصولنا بمحاذاة جامع عقبة بن نافع وسط القيروان ـ التي كنتُ قد زرتها من قبل ـ.. ودّعتهم وركبت مع سائق أجرة للبحث عن وسيلة تنقلني إلى سيدي بوزيد.

كانت الساعة دون العاشرة صباحاً بقليل.. ذهبتُ إلى محطة الحافلات الكبيرة، فأخبروني بأن حافلة سيدي بوزيد ستتحرّك في الثانية عشرة والنصف ظهراً، أي بعد ساعتين ونصف.. سألت سائق التاكسي عن حلٍّ أسرع للوصول.. فأخبرني بأن عليّ أن أتوجه إلى (الولاج) وهي المحطة الخاصة بالحافلات الصغيرة (الميكروباص) التي تنقل الركاب إلى عدة مُدن من دون توقيت مُحدد للانطلاق، ولكن بمُجرد امتلاء الحافلة.

وفي الولاج حجزت مقعداً في الحافلة المتجة إلى سيدي بوزيد، وعند توجهي إليها تفاجأتُ بأنني حتى الآن الراكب

الوحيد على هذا الخط.. وأن عليّ أن أنتظر حتى يأتي سبعة ركاب آخرين كي تمتلئ هذه الحافلة الصغيرة وتتحرّك.. فكّرتُ لوهلة أن أشتري تذاكر كل المقاعد وأتحرك وحدي، فسِعر المقعد الواحد ليس مرتفعاً بالطبع.. ولا أريد إضاعة مزيدٍ من الوقت.. ولكني تراجعت عن هذا السلوك البرجوازي رغبة في الالتزام بتقاليد هذا المكان البسيط.

* * *

ذاكرة احتجاجيّة ..

ما حصل في سيدي بوزيد لم يكن استثناءً في التاريخ التونسي الحديث.. فلتونس ذاكرة احتجاجية عريقة تمتد حتى أواسط القرن التاسع عشر.. صحيح أن الأحزاب المحليّة ضعيفة ولم تلعب دوراً كبيراً في مسيرة النِضال السلمي ضد السلطة.. ولكن ثمة في تونس تشكيلات نقابيّة ومهنية عريقة كانت دوماً رأس حربة في مسيرة الدفاع عن الحقوق والحُريّات.. من أبرزها (اتحاد الشغل) و(نقابة المحامين).

والتجربة الاحتجاجيّة التونسيّة تتذكر دوماً باعتزاز (عليّ بن غذاهم) الذي كان يُلقّب بـ (باي الشعب)، وهو من قبيلة ماجر بولاية القصرين، وقد قاد ثورة ضد الحكومة التونسيّة في عام ١٨٦٤م بسبب مُضاعفة الدولة لضريبة الإعانة رغبةً في حلّ المشاكل الاقتصاديّة التي كانت تعانيها تونس.. وقد شملت الثورة عدة مناطق في الشمال الغربي والساحل والجنوب.. إلا أن قوات السُلطة (الباي) تمكنت في نهاية المطاف من إخمادها.. وتم اعتقال بن غذاهم في فبراير ١٨٦٦م، ومات بالسجن في أكتوبر ١٨٦٧م.

وفي القرن العشرين شهدت تونس كثيراً من الاحتجاجات السلميّة.. من أبرزها تلك التي قادها فرحات حشّاد ضد السلطة الاستعمارية، ونتج عنها تأسيسه لأقوى تشكيل نقابي مُستقل بتونس (الاتحاد العام للشغل) في عام ١٩٤٦م.. وبسبب المواقف الصارمة لابن حشّاد تجاه استغلال السلطة، وبسبب الإضرابات الكبيرة التي قادها، وموقفه الحاد تجاه قوات الاحتلال الفرنسي، تم اغتياله على يد عِصابة (اليد الحمراء) التي تتكون من فرنسيين مُقيمين بتونس، وذلك في ٥ ديسمبر ١٩٥٢م.

وبدوره قاد الاتحاد العام للشغل ـ الذي له حضور واسع في كل المدن التونسية ـ مسيرة طويلة من الاحتجاجات السلميّة.. من أبرزها الإضراب الكبير الذي قاده في العام ١٩٧٨م، وشمل غالب المدن التونسيّة، ونتج عنه مواجهات عنيفة مع السلطة، سقط على إثرها عشرات القتلى، وتم اعتقال قادة الإضراب لعدة أعوام.. أيضاً كان لاتحاد الشغل دور كبير في قيادة ثورة الخبز عام ١٩٨٤م التي اشتعلت احتجاجاً على رفع أسعار الخبز والحبوب، ونتج عنها تراجع الرئيس بورقيبة عن قراره برفع الأسعار.

وكان آخر حدث احتجاجي كبير شهدته تونس قبل الثورة هو (إضراب الجوع) الذي أعلنه ثمانية من القادة الحزبيين والحقوقيين في ١٨ أكتوبر ٢٠٠٥م قُبيل مشاركة إسرائيل في قمّة المعلومات بتونس.. وكان الإضراب موجهاً ضد مشاركة إسرائيل، وضد الاستبداد والفساد وقمع الحريات وسياسة الإفقار والاستغلال.. ونتج عنه تأسيس أبرز تكتل حقوقي بين الإسلاميين والعلمانيين المُتمثل بـ (هيئة ١٨ أكتوبر للحقوق والحريات).

وبرزت في الداخل التونسي شخصيات عدة ـ من الرجال والنساء ـ كانت صارمة في موقفها ضد انتهاكات حقوق الإنسان، وتعرّضت بسبب ذلك إلى الاعتقال والأذى الأمني المتواصل.. من أبرزهم الكاتبة الصحفيّة (نزيهة رجيبة - أم زياد)، والناشطة الحقوقيّة (سهام بن سدرين)، والناشط السياسي والحقوقي (المنصف المرزوقي)، والسياسي (أحمد المنستيري)، وسواهم.



امتدت لحظات انتظاري في المحطة قرابة الساعة.. في ثناياها تجولت على دكاكين تبيع حلوياتٍ تشتهر بها القيروان، وأخرى تبيع مُنتجات شعبيّة.. ثم أخذتُ أتجول بين الحافلات.. أشاهد الناس وأستمع لأحاديثهم.. وقد بدا لي واضحاً أنه كلما نزلت جنوباً في تونس، زاد الفقر، وقلّ التعليم، وبدت سِحنات الوجوه أكثر سُمرة وكدحاً.. حتى إنك تكاد تستطيع أن تُميّز سُكان الجنوب عن الشمال.

وتحركت الحافلة باتجاه سيدي بوزيد ـ بعد أن اكتملت ـ في الساعة الحادية عشرة صباحاً.. وبدا الطريق ضيّقاً وزِراعيّاً في غالبه.. ويمر بوسط عدة قرى.. ويمتد لقرابة المئة وخمسين كيلو متراً باتجاه الجنوب.. وفيه نقطع عدة كيلو مترات من الطُرُق الترابية.. ولأن المزارع كانت تُحيطنا عن اليمين والشمال في بداية الطريق، توقّف سائق الحافلة مرتين كي يشتري ـ هو وبعض الركّاب ـ بعض الفواكه والخضروات من هذه المزارع.. ولكن كلّما توغلت الحافلة في الطريق أكثر، تضاءل منسوب الاخضرار في المُحيط، وازدادت ملامح الصحراء.

وقبل الوصول إلى سيدي بوزيد بنصف ساعة، كان الخبر الأول الذي بثته الأخبار الإذاعيّة هو سفر الرئيس اليمني علي عبدالله صالح إلى السعودية للعلاج، وكيف أن الثوّار اليمنيين اعتبروا خروجه نصراً، وأنه لن يعود.. عندها بدأت التعليقات من ركّاب الحافلة على خبر لجوء الرئيس اليمني ـ بعد رئيسهم زين العابدين ـ إلى السعودية.. وكان جيداً أنني لم أتحدث مع أحدٍ من الركاب أثناء الطريق، لذا لا أحد يعرف أنني سعودي.. فكانت فرصة للاستماع إلى انطباعاتهم دون تحفّظ .. وطبعاً كانت النتيجة ـ كما هو مُتوقّع ـ أننا (تشرشحنا).

وصلتُ إلى سيدي بوزيد قبل الواحدة ظهراً.. وكان بانتظاري الأستاذ محمد طاهر.. وهو رجلٌ في أواخر الثلاثينيّات من عُمره.. ومن أعضاء حزب النهضة الإسلامي.. وقد قضى في شبابه أربعة أعوامٍ في السجن ابتداءً من ١٩٩١م، وذلك بسبب نشاطه مع الحركة الطلاّبية في الجامعة التونسيّة.

بعد ركوبي مع طاهر وترحيبه الودود بي، التفتَ إليّ وقال: ما الذي تريد أن تعرفه في سيدي بوزيد؟.. قلت له مُبتسماً: أتيتُ لكي أسمع القصة من أصحابها، وعلى أرضها، دون أن تُلوثها وسائط العولمة، ودون أن تفقِد روحها وهي تتنقّل في مسارب الأثير الفضائي.

سيدي بوزيد هو اسم لمُحافظةٍ في الوسط التونسي.. تتوسطها مدينة سيدي بوزيد الصغيرة.. ويبلغ عدد سكّان المدينة قرابة الخمسين ألفاً.. جُلُّهم يعمل في الزراعة أو التجارة.. وغالب سكان المدينة ينتسبون إلى قبيلة (بني هلال) التي تسكن عشائرها في عدد من مُدن الوسط التونسي..

ومحمد البوعزيزي ينتمي إلى عشيرة (الحورشان) من بني هلال.. وتُعتبر مدينة سيدي بوزيد من المُدن حديثة النشأة في تونس.. فهي لم تتأسس سوى قبل خمسين عاماً أو أزيد قليلاً.. وقد أُطلق عليها هذا الاسم لكونها تأسست في أرضٍ تضم مقاماً لوليٍّ اسمه (سيدي بوزيد).

مع طاهر اتجهنا أولاً لصلاة الظهر في جامع الرحمة.. هذا الجامع الكبير الذي شهِد الشرارة الأولى للقصة.. فعلى بوابته الغربيّة كانت تقف عربة محمد البوعزيزي (محمد هو اسم الشُهرة، واسمه في الأوراق الرسميّة طارق) ليبيع الخُضار في ١٧ ديسمبر ٢٠١٠م .. وبعد الصلاة أتته (فادية حمدي) المُشرفة في البلدية (مشرفو البلديات يُسمون في تونس بـ «أعوان التراتيب») ومعها رجل أمن، وصادرت الخُضار، وتعاملت معه بقسوة، وتفوّهت عليه بألفاظ نابية، ويُقال بأنها قامت بصفعه أيضاً.

عندها غضب محمد البوعزيزي.. وذهب إلى (قصر البلديّة) ليرفع شكوى على عون التراتيب (فادية) التي أهانته وصادرت خُضاره.. ولكن البلديّة لم تُنصفه ولم تلتفت لشكواه.. عندها اتجه البوعزيزي إلى مقر (الولاية) ليقابل مُحافظ المدينة.. ولكن المُحافظ لم يقبل بلقائه ابتداءً، فضلاً عن أن يستمع لشكواه.. بل قام موظفو الولاية بطرده وشتمه بألفاظ نابية.. وحينئذٍ ذهب محمد وأحضر إناءً يحوي بنزيناً.. ووقف على باب الولاية.. وسكب البنزين على جسده.. ثمّ أحرق نفسه.. تلك هي الخطوط العريضة للقصة كما نُشرت في كل الصُحف والمواقع.

* * *

تداعيات الثورة ..

لم تكن ظاهرة إحراق النفس احتجاجاً على قمع السُلطة مُمارسة جديدةً في تونس.. ولم يكن محمد البوعزيزي هو أول من فعلها.. بل حصلت عِدة حوادث مُشابهة في التاريخ التونسي الحديث.. ففي عام ١٩٩٠م أقدم شابٌ من محافظة سليانه على حرق نفسه أمام مقرّ المحافظة احتجاجاً على مُمارسات قمعيّة مورست ضِده.. وقبل شهور من قصة البوعزيزي أقدم رجل اسمه عبدالسلام تريمش (وهو أبٌ لطِفلين) في الأسبوع الأول من شهر مارس ٢٠١٠م على حرق نفسه أمام مقرّ محافظة المنستير، بسبب مُصادرة مصدر رزقه وإهانته بقسوة.. وبعد هاتين الحادثتين ثارت الاحتجاجات في المُحافظات التي وقعت بها.. ولكن سرعان ما يتم إخمادها بقسوة أمنية.

وبعد إحراق محمد البوعزيزي لنفسه في مساء ١٧ ديسمبر ٢٠١٠م.. نامت سيدي بوزيد وهي على فوّهة بركان.. وكان من المُمكن أن يمرّ مشهد احتراق البوعزيزي كما مرّ غيره سابقاً.. ولكن ابن عمّه وبعضاً من أفراد أسرته وعشيرته الصغيرة قرروا الاحتجاج في الغد أمام مقرّ الولاية.. واحتج ما يُقارب الخمسين شخصاً منهم.. وواجهتهم قوات الأمن بالعصي والقنابل المُسيلة للدموع وتمكّنت من تفريقهم.. وفي اليوم الذي تلاه واصلت ذات المجموعة الاحتجاج.. وتواصل القمع لهذه التظاهرات الصغيرة التي كان غالب المشاركين بها من أبناء عشيرة البوعزيزي، إضافة إلى محامٍ صديقٍ للعائلة.

واصلت هذه المجموعة احتجاجاتها لبضعة أيام.. وكانت في كل يوم تتصاعد المواجهات (لاحظ كيف يُمكن أن يكون

للعشيرة دور إيجابي في الوقوف بوجه القمع والظلم).. وهو ما أدّى إلى ازدياد أعداد المُشاركين في التظاهرات.. وبعد أيام صارت الاحتجاجات تتجاوز الإطار الضيّق وبدأت تعمّ مُعظم المدينة.. وشارك شباب سيدي بوزيد بحماسٍ في هذه الاحتجاجات اليومية.. وسقط منهم قتيل واحد وعدد من الجرحى.. وهنا بدأت الاحتجاجات تتجاوز مُحيط سيدي بوزيد.. حيث انتقلت إلى عدة مُدن محيطة.. فانتقلت أولاً إلى مدينة «القصرين» التي تبعد عن سيدي بوزيد ثمانين كيلو متراً.. والقصرين شهِدت أعنف المواجهات مع الأمن في تاريخ الثورة التونسية.. وتجاوز عدد القتلى بها أكثر من ثلاثين شخصاً.. إضافةً إلى عشرات الجرحى (وهناك أحاديث عن عمليات اغتصاب عديدة قام بها عناصر الأمن).. وهو ما جعل البعض يكتب أن احتجاجات مدينة القصرين كانت مُنعطفاً مُهماً في الثورة.

وعند ذلك بدأت دائرة الاحتجاجات بالاتساع.. ووصلت إلى مدينة تالة القريبة من القصرين، التي شهدت أيضاً مواجهات دمويّة.. وانضمت معظم القرى التابعة لمحافظة سيدي بوزيد إلى الاحتجاجات (المكناسي، وسيدي علي بن عون، ومنزل بوزيّان، والرّقاب).. وفي مواجهتها ازداد استخدام الأمن للرصاص الحي الذي صار يوجه للصدور والرؤوس.. ووسط هذا القمع خرج الرئيس بن علي بخطابه الأول في ٣٠ ديسمبر، وتحدث فيه بلغة حازِمة عن نيته قمع الخارجين عن القانون.. وبعد هذا الخطاب المُستفز، بدأت عدوى المُظاهرات تنتقل إلى عدد آخر من المُدن التونسية.

ومع امتداد الاحتجاجات بدأ الحضور الكبير لـ (نقابة

المُحامين) أولاً، ثم لـ (اتحاد الشغل)، وذلك بالمشاركة في تنظيم وتأطير هذه الاحتجاجات.. حيث كان الحضور الكبير للمحامين ووقوفهم في الصفوف الأولى للمظاهرات دور مُؤثر في التدعيم الحقوقي لهذه الاحتجاجات، وكسب تعاطف المنظمات الحقوقية الدولية.. وبدأ الأمن في مطاردة المحامين، وتم اعتقال وضرب الكثير منهم.. وفي يوم ٦ ديسمبر قام المحامون بإضرابٍ شمل كافة المحاكم التونسية احتجاجاً على التعامل الدموي مع المظاهرات.

ووصلت الاحتجاجات إلى الأوساط الجامعية.. حيث أقدم طلبة الجامعات في العاصمة وفي مدينة سوسة وبعددٍ من المدن التونسية على تشكيل مُظاهرات احتجاجية ضد ما يجري.. ولكن المظاهرات في المدن الكبيرة لم تتجاوز بعدُ الأوساط النقابيّة والجامعيّة.

ومن المنعطفات المهمة في الثورة التونسية كان التظاهر الشعبي الكبير يوم ١٢ يناير بمدينة صفاقس، التي تُعدّ أهم معقِلٍ للنقابيين، وثاني أكبر مدينة بتونس.. حيث تظاهر في هذا اليوم أكثر من خمسين ألفاً.. ويذكر المدوّنون للتاريخ الاحتجاجي التونسي أنه ما إن تُعلن صفاقس العصيان، حتى تتبعها العاصمة تونس.

وفي اليوم التالي بدأت بالفعل التظاهرات الشعبيّة الكبيرة تجتاح العاصمة تونس.. وبدأت تتردد شائعات عن استقالة الرئيس وعن سقوط مئات القتلى في المدن التونسيّة.. وبسبب ذلك سادت بعض أعمال الفوضى والنهب للمحال التجارية، وقام السكّان بتخزين المواد الغذائية، وتمّ إغلاق المؤسسات والمحال التجارية، وتوقفت القِطارات، وقُطعت بعض الطُرق الرئيسية.

وفي اليوم الذي تلاه (١٤ يناير ٢٠١١م) شل الإضراب العاصمة ومعظم المُدن التونسية.. واندفعت الحشود بعشرات الآلاف إلى شارع الحبيب بورقيبة حيث مقرّ وزارة الداخلية.. وغصّ الشارع بالمتظاهرين الذين حاصروا مبنى وزارة الداخلية وهم يرددون الشعارات المطالِبة برحيل بن علي وإسقاط النظام.. وفي الخامسة مساءً تسرّب خبر هروب الرئيس بن علي إلى فرنسا.. ثم تبيّن بعد ساعاتٍ عديدةٍ أن فرنسا رفضت استقباله، وأنه توجه إلى السعوديّة.

* * *

بعد فراغنا من صلاة الظهر في جامع الرحمة أصرّ طاهر على أن يدعوني إلى بيته لنتناول وجبة الغداء.. فذهبتُ معه إلى منزله وتناولنا الغداء بصحبة طفليه برّاق وشاهين اللذين لم تتوقف أسئلتي لهما عن جدول الضرب أولاً، ثمّ عمّا سمعاه من قصة البوعزيزي والاحتجاجات.

وبعد كَرَم الغداء المنزلي الودود، تجوّلت في أرجاء مدينة سيدي بوزيد.. فذهبتُ أولاً إلى (قصر البلدية)، ثمّ إلى (مقر الولاية)، ثمّ إلى جامع الرحمة الذي شهد الشرارة الأولى.. وحادثتُ في تجوالي كثيراً من شباب المدينة ممن كانوا يعرفون محمد البوعزيزي، وبعض من كانوا يُشاركونه بيع الخضار أمام الجامع.

من خلال من التقيتهم بدا واضحاً أن محمد البوعزيزي كان شاباً طيباً ومحبوباً.. ومحافظاً على الصلاة.. ولكنه سريع الغضب.. وقد ولِد يتيم الأب.. وامتهن بيع الخُضار مذ كان في التاسعة عشرة من عمره.

بعد هذه الجولة في طرقات سيدي بوزيد، توجهت إلى منزل أسرة محمد البوعزيزي، وإذ به منزل متواضع جداً لا تزيد مساحته عن خمسين متراً مربعاً، ويقع في زِقاق ضيّق.. وبالطبع كان المنزل فارغاً، لأن والدته وإخوته الصغار كانوا قد غادروا سيدي بوزيد بعد الحادثة ببضعة أسابيع، وأعطتهم الحكومة منزلاً كان يعود لعائلة الطرابلسي في ضاحية المرسى بالعاصمة تونس.

سألتُ صاحبي طاهر عن المكان الذي دُفن فيه محمد.. فأخذني إلى مقبرة مُخصصة لعشيرته تبعدُ عن سيدي بوزيد أكثر من عشرة كيلو مترات.. وفي منطقةٍ وعرةٍ بوسط الصحراء لا تصل إليها السيارات وجدنا المقبرة.. وللقبور وقارها وهيبتها.. فوقفنا على قبره قُبيل المغرب، ودعونا له بالرحمة والمغفرة.. ثم استأذنت صاحبي كي أبقى هنا لبِضع دقائق.. فجلستُ بقرب قبره.. وأمامي بدت عشراتُ القبور المُحاطة بفلاة لا ترى فيها بشر.. وفي الأفق تبدو الصحراء المُمتدة وعلى أطرافها سِلسلة جبالٍ تلوح من بعيد.. وبدأت أكتب.. إلى روح محمد البوعزيزي.. وإلى عربة الخُضار والكرامة:

* * *

ما عادت هذه أخشاباً يا مُحمد.. ولا ذلك الحديد الصدِئ المُتآكل ظلّ يُسمى عجلات.. ما عادت الأرض هي الأرض.. ولا الزمان هو الزمان.. ولا الناس هم الناس.. ولا الفضاء هو الفضاء.

ما عاد العرب هم العرب يا مُحمد.. ولا البُسطاء في هوامش المدن المنسيّة بقوا خارج جداول الحِساب.. ولا

الرابضون لعقودٍ فوق الكراسي باتوا يأمنون مواطئ الأقدام.. حتى الأوغاد المتأنقون أمام كاميرات الإليزيه والبيت الأبيض ما عادوا يزدرون شعوبنا كما كانوا.

هل تعرف ما فعل اللهيب المُشتعل في كرامتك بوطننا العربي المُمتد بحجم الوجع من المحيط إلى الخليج؟!

هل تعرف ما فعل الغضب في الوجوه المُنهكة، والسواعد المكدودة، والأرواح المُثقلة بكل عذابات السنين؟!

هل تعرف ما فعل جسدك المُحترق يا مُحمد؟!

لقد أشعل الكرامة في عروق أوطاننا المطمورة تحت أكوام الفاسدين وأبناء الذوات.. وأوقد نيران الغضب فوق أرضنا التي أعياها التعب.. وبعث الحياة في أرواحٍ كان نبضها يتداعى على أجهزة الإنعاش.. وضخ الأمل في شرايين الشعوب المُعتقلة في كُلِ عنابر الوطن.

أنينُك الموجوع يا مُحمد لم يهدأ بعدُ في النفوس الثائرة بميادين التحرير.. وغضبُك مازال مُشتعلاً في ملايين الحناجر التي تهتف كل يومٍ بساحات التغيير.. والناس في عالمنا العربي الثائر صاروا يقفون أمام قبرك الممتد بحجم أوطاننا، ويتلون كُل صباح: (ومن أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعا).. والشجى مازال يبعثُ الشجى يا مُحمد.

في صدورنا لك عَهدٌ أن نقطع كل الجذوع الغليظة في غابات الظلم والقهر.. وفي نفوسنا لك دَينٌ أن نبتهل إلى الله في الخَلَوَات كي يُعليك في الجنّة بقدر ما هَوَت عروش الظالمين في الدَرَكات.. وفي أعناقنا لك بيعة أن نُشعل الجسد

قبل انتهاك الكرامة.. فلهيب كرامتك يا محمد صنع في أوطاننا ثورة.

نواف ـ سيدي بوزيد ـ مساء ٥ يونيو ٢٠١١م

* * *

بعد حلول الظلام، عدتُ إلى وسط سيدي بوزيد.. والتقيتُ مُجدداً بعددٍ من الشباب قرب المكان الذين كان يبيع فيه البوعزيزي الخُضار أمام جامع الرحمة.. وتحاورتُ معهم وسألتهم عن بعض التفاصيل.. ثم اتفقتُ مع أحد رِفاقه ـ وهو سائق تاكسي ـ كي يوصلني إلى العاصمة تونس.. لأن آخر رحلة كانت تُغادر محطة الحافلات في الثالثة ظهراً.. ولم يعد أمامي سوى الاستعانة بسائق خاص.

ما الجديد الذي يُمكن أن يروى في هذه القصة المعروفة؟!

لا أدري إن كانت بعض التفاصيل تعني القارئ.. ولكنها جزءٌ من المشهد الذي سمعته مراراً في سيدي بوزيد.. وقد بَدَت بعض المعلومات جديدة بالنسبة لي.

فمثلاً.. لم يكن محمد البوعزيزي جامعياً كما تناقلت وسائل الإعلام.. بل كان انقطع عن الدراسة دون أن يكمل السنة الأخيرة في المرحلة الثانوية.. وأيضاً فإن العربة (التي تحوّلت إلى أيقونة للثورة والكادحين) لم تكن مِلكاً لمحمد البوعزيزي.. ولكنها كانت ملكاً لشخص آخر اعتاد أن يستعيرها منه.. ثمّ لمّا أحرق نفسه وبدأت الاحتجاجات.. اشترتها أسرته من صاحبها.

لكن القصة التي بدت غريبة بالنسبة لي.. هي أن عدداً ـ والبعض خالفهم ـ أكدوا أن محمد البوعزيزي حين سكب على جسده البنزين أمام مقرّ الولاية لم يكن ينوي إحراق نفسه.. وإنما فعل ذلك فقط بنيّة تهديد المسؤولين.. ولكنه عندما أشعل النار في ولاّعة كانت معه تفاجأ بانتقال اللهب إلى جسده المُشبع بالبنزين بشكل سريع.. والله أعلم بحقيقة الأمر.

أيضاً ثمّة قصة لم تتناقلها وسائل الإعلام.. تتمثل في السبب الذي دفع الأسرة الصغيرة لمحمد (والدته وإخوته الصغار) إلى مغادرة سيدي بوزيد.. حيث يروي الكثيرون كيف كانت أسرته ـ وأمه تحديداً ـ تتعامل مع القضية بعد انتهاء الثورة وبدء توافد وسائل الإعلام الدوليّة، والاهتمام الكبير بقصة البوعزيزي.. حيث يرون أن الأسرة الصغيرة لم تتعامل مع قصة ابنهم بالاحترام اللازم، بل قامت بما يُشبه المتاجرة بها.. فمن ناحية كانت الأسرة تطلب مبالغ مالية كبيرة من أي جهةٍ إعلاميةٍ تريد لقاء العائلة وتصويرها.. ومن ناحية أخرى بدأت العائلة تتعامل بتعالٍ واضح مع أهالي سيدي بوزيد.. بل وقامت ـ عبر علاقاتها الناشئة مع المسؤولين بعد الثورة ـ بالتعدي على بعض السكان.. كقيام والدة محمد باللجوء إلى أحد المسؤولين لسجن ابن أخيها (ابن خال محمد البوعزيزي) الذي كان من أكبر الناشطين في الاحتجاجات منذ بدايتها، وذلك لأسباب ربما ترجع إلى طبيعة التعامل مع القضيّة.

كذلك بسبب إصرار الأم على معاقبة عون التراتيب (فادية حمدي) التي تعاطف معها سكان سيدي بوزيد، وخرجوا في مظاهرة للدفاع عنها أمام مبنى المحكمة.. وذلك لكونهم يرون

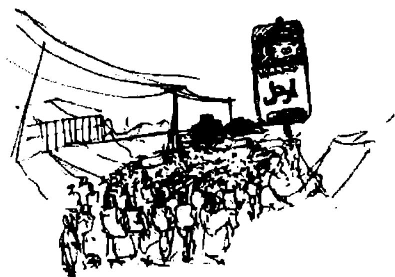
أنها كانت تُطبّق القانون بصرامة، وإن كانت أساءت في التعامل.. إلا أن ذلك لا يستدعي مُعاقبتها بقسوة وسجنها لسنين.. فهي إن كانت أخطأت، إلا أنها ليست المسؤولة عن حرق جسد محمد البوعزيزي.. وساهم هذا الموضوع بمزيدٍ من سوء العلاقة بين الأسرة الصغيرة لمحمد البوعزيزي وكثيرٍ من سكّان سيدي بوزيد.. حتى إن بعض السكان صاروا يرددون ـ وسمعتها من عدة أشخاص ـ أن والدة محمد البوعزيزي صارت تُمثّل (طرابلسية) سيدي بوزيد.. وهي إشارة إلى ليلى الطرابلسي زوجة الرئيس المخلوع زين العابدين بن عليّ، التي كانت معروفة بنفوذها الكبير على أجهزة الدولة.



وبمعزلٍ عن الأخطاء التي ارتكبتها العائلة الصغيرة ومدى دِقتها.. إلا أن محمد البوعزيزي ـ رحمه الله ـ لم يكن طرفاً فيها.. ما هو مؤكد فقط أن محمداً كان طرفاً في موقف الاحتجاج على إهانة الإنسان والتعدي على حقوقه ولقمة عيشه.. وكان طرفاً كبيراً في ثورة الكرامة التي أوقدها جسدهُ المُشتعل في سيدي بوزيد.. فاشتغلت على وقعه ميادين التحرير وساحات التغيير في وطننا العربي الكبير.

الطريق إلى ساحة التغيير

في زيارةٍ أولى إلى صنعاء .. أقتفي آثار قومٍ ثائرين



عند الساعة السادسة مساءً.. ووسط ضجري من إتمامِ أعمالٍ مُملة.. نفضتُ يدي من بين أكوام الأوراق.. ودخلتَ إلى أحد المواقع الإخبارية لأقرأ آخر المُستجدات.. وإذ بأخبار الثورة اليمنيّة تتصدر صفحة الموقع.. لحظتها فقط لا أدري كيف مرّ بخاطري طيف الصديق اليمني شوقي القاضي (هو إمام وخطيب، ونائب في البرلمان، ومن قيادات التجمع اليمني للإصلاح «الإخوان المسلمين»، وأحد أبرز قادة ثورة ساحة الحرية بمدينة تعز).

قمتُ من مكتبي.. ووقفت أمام النافذة المُطلة على طريق الملك عبدالله في الرياض.. فتشتُ في جوالي عن هاتف شوقي.. واتصلت عليه.. وإذ بدل رنة جواله أسمع صوتاً يمنياً جميلاً يشدو بقصيدة أبي القاسم الشابي (إذا الشعب يوماً أراد الحياة .. فلا بُد أن يستجيب القدر).. تمنيتُ ألا يرد سريعاً كي أستمتع بسماع أكبر قدر من القصيدة.. وهذا ما فعله.. وبعد السلام الحار وسؤاله عن أخبار ما يحدث في اليمن.. قال لي بصوتٍ مُلتهب وسط ضجيج الهتافات التي تتردد من حوله: (لا تكتفي يا نواف بأشواق الحرية ـ ولشوقي مع كتابي «أشواق الحرية» قصة

سأذكرها لاحقاً ـ يجب أن تأتي لتعيش الحرية بنفسك.. تعال يا نواف وصدقني لن تندم.. الشباب هنا يصنعون مستقبل اليمن، ويعيشون أجواءً من الحريةِ والحماس لن تتكرر).

لا أدري لحظتها كيف سرى تيارٌ كهربائيٌ من ساحات الثورة في اليمن إلى عروقي.. بدأت أشعر بأن ما أفعله هنا مضيعة للوقت.. في حين أن التاريخ يُصنع في مكان آخر.. وكنتُ أعرف يقيناً أنني سأندم كثيراً على تفويت هكذا فرصة.. لذلك.. لم أختم مكالمتي مع شوقي إلا وقد قلتُ له: (سآتيكم بحول الله يا صديقي.. أيام فقط وأكون عندكم).

وبعد أيام.. وفي يوم الاثنين تحديداً.. اتصلت على شوقي، وقلتُ له: في الساعة الثامنة من صباح الخميس (١٤ يوليو / ١٣ شعبان) سأكون بحول الله على متن الرحلة القادمة من القاهرة إلى صنعاء.. أجابني بترحيب: خيراً فعلت.. وسنكون بانتظارك.

وفي ليلة الخميس الموعود.. وتحديداً في الساعة العاشرة والنصف من مساء الأربعاء.. كنتُ في مقهىً قاهري مع بعض الأصدقاء.. وإذ برسالة جوال تصلني من شوقي: (اشتعلت المعركة، وبدأ القصف في صنعاء بين الحرس الجمهوري التابع للرئيس وقوات صادق الأحمر.. الأفضل أن تُلغي رحلتك).

كانت رسالته مُربكة.. فقد حزمتُ أمري على الذهاب.. وإن لم أذهب الآن فلا وقت آخر لدي لزيارة اليمن ـ التي لم أزرها من قبل ـ بسبب ارتباطات أخرى.. لم أُجب شوقي لحظتها.. وأخبرتُ أصدقائي بمضمون الرسالة.. وبعد ربع ساعة.. فتحتُ صفحتي بالفيس بوك من جهاز الآيفون.. وإذ

برسالة من صديق يمني آخر كنتُ قد أخبرته بموعد قدومي، يقول فيها: (اليوم الأربعاء انتهت هدنة الشهر التي كانت مُبرمة بين الرئيس وعائلة الأحمر.. لذلك بدأ القصف المتبادل بين الطرفين.. والمُتوقع هو اشتداد القتال بينهما.. لذلك ليس هذا وقتاً مناسباً لزيارة صنعاء.. الأفضل أن تؤجل رحلتك أسبوعاً أو اثنين حتى تتضح الأمور وتهدأ المعارك).

اتصلت من فوري على شوقي وقلت له: (إذا لم أقدم الآن فلا أظنني أستطيع خلال شهرين).. ثم أضفتُ وأنا أضحك: (بصراحة أنا مُتهيئ تماماً للقدوم.. فلا تُثبّط عزيمتي).. وسألته عن المعارك إن تدور في كل صنعاء أم في مناطق محدودة.. فأجابني أن المعركة تدور حالياً بوسط صنعاء بين منطقتي الحَصَبة والحِدّة من جهة «حيث مواقع الأحمر»، وجبلي نُقُم والنهدين «حيث مواقع الرئاسة». . ولكن المعارك قد تمتد إلى أي مكان آخر في العاصمة.. سألته: (وهل هناك معارك بجوار ساحة التغيير).. أجابني: (لا.. منطقة الساحة مازالت هادئة).. قلت له وكأنني وجدتُ المَخْرَج: (وهذا هو المُهم).. عندها اتفقنا على أن يكون بيننا اتصال أخير فجر اليوم قبل أن أتجه إلى المطار، كي يُخبرني كيف تبدو الأمور في صنعاء.. وبالفعل.. قُرابة الساعة الخامسة والنصف فجراً اتصلتُ على شوقي.. فقال لي: (المعارك هدأت الآن.. إذا كنتَ مُصِرّاً على القدوم.. فأهلاً بك).. حملت حقيبتي.. واتجهتُ إلى المطار.

* * *

تعرفتُ على شوقي القاضي قبل عام في مؤتمرٍ جمعنا في القاهرة.. وكان لتعرّفي عليه قصة ظَريفة.. فبعد مُدة من

حضورنا لهذا المؤتمر قضينا خلالها عدداً من الجلسات، كنّا فيها أنا وشوقي وصديق يمني آخر هو جمال المليكي وعدد من الأصدقاء الآخرين نتحاور دوماً، ثم صرنا نجلس مع بعضنا في فترات الاستراحة بين الندوات الرسمية، نتحدث، ونضحك (شوقي يملك حسّاً فكاهياً ساخراً بشكل لا يوصف).. وبعد يوم ونِصف من المؤتمر، وكأنَّ شوقي انتبه فجأة لاسمي، فقال لي باندهاش: (أنت نواف القديمي صاحب كتاب أشواق الحرية؟!).. قلت له ضاحكاً: (يا رجُل صار لنا يوم ونصف مع بعضنا.. ما هذا السؤال المُتأخر؟!) ثم أضفت: (وما بالك تتحدث عن أشواق الحرية ـ وهو كتيب صغير يقع في ١٢٨ صفحة ويتضمن تأصيلاً شرعياً للفكرة الديمقراطية ـ وكأنه موسوعة قصة الحضارة؟!.. بصراحة أشعرتني بأنني إنسانٌ مُهم).. عندها التفت شوقي لصديقنا جمال وقال: يا جمال هذا مؤلف كتاب أشواق الحرية الذي اشتغلنا عليه.. جمال بدوره لم يكن قد ربط الاسم مع الكتاب ـ رغم أنني التقيت به قبل هذا المؤتمر ـ .. وعندها أخبرني شوقي بأنهم قاموا بعمل دورات تدريبية عديدة للأئمة والخطباء وبعض المتخصصين الشرعيين في اليمن على كتاب «أشواق الحرية» ـ الذي صدر بطبعة يمنيّة إضافية من مركز المعرفة للتنمية الفكرية بصنعاء .. وأن عدد الذين تدربوا عليه تجاوز الـ ٤٥٠ شخصاً.. ثم أضاف بلكنة يمنيّة ساخرة: (يا رجُل كنا نظنّك شيخاً سلفياً متقدماً في العمر، وإذ بك صحفي شاب يلبس الجينز ويرتدي الـ تي شيرت).. قلت له ضاحكاً: (أستر عليّ الله يستر عليك.. ولا تُخبر أحداً بذلك).

* * *

في الساعة الثامنة من صباح الخميس ١٤ يوليو أقلعت طائرة الخطوط المصرية متجهة من القاهرة إلى صنعاء.. وبعد الإقلاع دُهشت من طول المُدة التي ستقضيها الرحلة.. ففيما كنت أظن أن المسافة لن تطول أكثر من ساعتين.. وإذ بها تمتد لثلاث ساعات ونصف!.. (مرة سافرت من القاهرة إلى موسكو وكانت مدة الرحلة أربع ساعات فقط.. فكيف تستغرق الرحلة من القاهرة إلى صنعاء ثلاث ساعاتٍ ونصف؟!).. وفي الساعة الثانية عشرة والنصف ـ بعد احتساب ساعة إضافية كفارق للتوقيت بين مصر واليمن ـ لاحت لي جبال صنعاء من وراء ضبابٍ خفيفٍ يشوب الرؤية من بعيد.

حكا لي صديق سعودي سافر إلى صنعاء قبل شهر من رحلتي هذه، أن رجال الأمن في مطار صنعاء ـ الموالين للرئيس ـ استوقفوه عند مدخل الجوازات.. وسألوه عن أسباب قدومه في هذا التوقيت، وعدد من الأسئلة الأخرى.. وذلك خشيةً من أن تكون له علاقة بالثورة وقياداتها.. وكنتُ قلِقاً من أن أمُرَّ بذات السؤال.. ولذلك حملتُ معي حقيبة صغيرة إضافية وضعتُ فيها عدداً من إصدارات دار النشر التي أديرها، وبعضاً من قوائم الكتب الصادرة من الدار.. وذلك حتى يكون مُبرر القدوم . في حال سألني الأمن . أنني أتيتُ بمهمة عمل لها علاقة بالنشر والتوزيع ولقاء بعض المؤلفين.

وبعد دخولي لصالة القدوم، بدا لي مطار صنعاء متواضعاً وقديماً.. ويفتقر إلى كثيرٍ من المرافق الخَدميّة.. وقفتُ في الصف الموصل إلى مدخلٍ الجوازات.. ثم مررتُ بعد دقائق قليلة على ضابط الجوازات الذي ختم جوازي دون أن يسألني أحدٌ عن أسباب الزيارة.. فحمدت الله على ذلك.. وعند مكان

نزول الحقائب، استلمت حقيبتي.. وخرجت من البوابة الرئيسيّة للمطار.

في الفناء الخارجي للمطار وجدتُ شاباً ثلاثينيّاً يحمل لوحةً صغيرةً مكتوبٌ عليها اسمي الأول.. ولكنه يحمل اللوحة بالمقلوب!.. فاتجهت له مباشرة وقلت له مبتسماً: (لماذا تحمل اسمي بالمقلوب؟!).. قال وقد بدا عليه الامتعاض: (أنت نواف؟!).. قلت له: (نعم).. قال لي: (ولكنني لم أقلب اسمك.. أنت فقط أتيت من الطائرة ورأسك مقلوب).. قلت له باندهاش: (أووف.. ألم ترَ اللوحة مقلوبة).. هنا أضاف بلكنة يمنية صميمة: (بعدين بصراحة أنا ما أعرف أقرأ ولا أكتب).. هنا زادت دهشتي وقلت له: (ليش طيب؟!.. مازلت صغيراً في السن وتستطيع أن تتعلم).. أثناء هذا الحوار كنّا نسير مُبتعدين عن مبنى المطار باتجاه مواقف السيارات.. وإذ بعد قليل بدأ مُرافقي بالابتسام.. وإذ بالصديق شوقي القاضي يظهر أمامنا فجأة.. وهنا بدآ بالضحك.. فسلّمتُ على شوقي وعرفتُ أنه أحد مقالبه.. وبعد السلام عرّفني بصاحب اللوحة.. وإذ به خريج كلية شرعية، وإمام وخطيب لأحد الجوامع.. واسمه هاني القحطاني.

ركبتُ السيارة بصحبة شوقي وهاني.. واتجهنا إلى وسط صنعاء.. إلى حيث ساحة التغيير.

* * *

التاريخ السياسي لليمن ..

منذ أن قدِم الإمام يحيى بن الحسين (هو يحيى بن

الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب) من الحجاز إلى اليمن في عام (٢٨٤هـ / ٨٩٧م) من أجل الصلح بين القبائل المتنازعة.. ثم استقرّ في شمال اليمن (صعدة) وسمّى نفسه بـ (الهادي)، وحكم أجزاءً من اليمن.. وحتى عام (١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م) ـ أي قرابة الألف ومئتي عام ـ حيث قامت ثورة سبتمبر المسلّحة على حُكم الإمامية.. خضعت اليمن في هذه المدة (وبفترات مُتفرِّقة، حيث يتسع حكمهم للمدن أحياناً، ويتراجع للأرياف أحياناً أخرى) لحكم الأئمة الزيديين.

وبعد أيام من وفاة الإمام أحمد بن يحيى حميدالدين في ١٩ سبتمبر ١٩٦٢م وتولي ابنه البدر مقاليد الحكم.. قامت ثورة سبتمبر في ٢٦ / ٩ / ١٩٦٢م (أو ثورة السلّال كما يُسميها البعض).. حيث خضع اليمن بعدها لحكمٍ عسكري على يد أحد قواد الثورة (عبدالله السلال) الذي كان قائداً للحرس الملكي.

في عام ١٩٦٧م، نشبت معارك بين قوات الثورة، وقواتٍ عسكريةٍ موالية للنظام الملكي.. ونتج عنها حصار صنعاء لمدة سبعين يوماً.. وأثناء فترة الاضطرابات.. وقبل حصار العاصمة.. تمّ الانقلاب على عبدالله السلال أثناء قيامه بزيارة للعراق.. وتمّ تعيين القاضي عبدالرحمن الأرياني ـ الذي كان أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة ـ بدلاً عنه رئيساً للبلاد.

خلال فترة حكمه نظّم عبدالرحمن الأرياني انتخاباتٍ حرة.. وتشكل مجلس شورى مُنتخب بنزاهة.. ثم لما كثرت الاضطرابات في البلاد، وتأزم الوضع السياسي، وازداد

معارضوه.. قدّم استقالته طوعاً عام ١٩٧٤م.. ولكن العسكريين أخفوا الاستقالة.. وأعلنوا عن قيامهم بانقلابٍ أبيض على الرئيس.. وعندما طالبه بعض قادة الجيش وزعماء القبائل الموالين له بأن يتدخل ويمنع الانقلاب.. قال الأرياني كلمته الشهيرة: (لا أرغب في أن يُسفك من أجلي دمُ طائر).

بعد تنحي الأرياني حكم البلاد أحد القادة العسكريين الذي أعلنوا قيامهم بالانقلاب الأبيض.. وهو العقيد إبراهيم الحمدي، الذي كان في بداية الثلاثينيات من عمره.. وقام الحمدي بإقصاء عددٍ من القادة العسكريين المناوئين له.. وفي الوقت نفسه قرّب بعض العسكريين، من بينهم المقدّم أحمد الغشمي، والرائد علي عبدالله صالح.. وكان الحمدي عروبيّاً بامتياز.. ومن أكثر الرؤساء شعبيّة في تاريخ اليمن الحديث.. وحتى في الثورة السلميّة القائمة حالياً، تجد صور إبراهيم الحمدي مُعلّقة في كل مكان بساحة التغيير.. ففي عهده تحسن الوضع الاقتصادي لليمن بشكلٍ ملحوظ.. وبدأ إنتاج البترول.. لكن الحمدي انتهج سياسية مُعادية لزعماء القبائل.. وهو ما أدخله في خصومات ومناوشات كثيرة.. كما أنه انتهج سياسةً مُستقلة عن دول الخليج، ومُقربة من الحكومات العربية القومية.. وبسبب تواضعه، كان يتحرّك دون حِراسات تُذكر.. حتى جاء اليوم الذي تعرض فيه لاغتيالٍ غامضٍ في عام ١٩٧٧م.. وكانت الشكوك تدور حول تورّط الغشمي وعلي عبدالله صالح ـ المُقرّبين من دول الخليج ـ في هذا الاغتيال.

ـ وفي عام ١٩٧٧م تولى أحمد الغشمي مقاليد الحكم.. ولم يبقَ في السلطة سوى سبعة أشهر.. حيث تم اغتياله في العام ١٩٧٨م بشنطةٍ مُفخخةٍ مُرسلة له من رئيس اليمن

الجنوبي سالم ربيع علي.. وكانت علاقة البلدين سيئة بسبب اشتراكية اليمن الجنوبي، وقرب اليمن الشمالي من دول الخليج.

- بعد فترة انتقالية من مقتل أحمد الغشمي امتدت شهراً، تولى الرئاسة في يوليو ١٩٧٨م علي عبدالله صالح.. الذي كان رئيساً لليمن الشمالي.. ثم صار أول رئيسٍ لليمن بعد الوحدة التي جرت في عام ١٩٩٠م.

طبعاً هذه الخطوط العريضة من التاريخ السياسي لليمن تخُص تحديداً (اليمن الشمالي).. أما اليمن الجنوبي فله تاريخ مُختلف، منذ استقلاله عن بريطانيا في نوفمبر ١٩٦٧م - بعد ١٢٨ عاماً من الاستعمار البريطاني - وحتى اتحاده مع اليمن الشمالي في مايو ١٩٩٠م.

* * *

عندما تجول في صنعاء.. تبدو لك العاصمة مدينةً فارغةً.. ففي الشوارع عددٌ محدود جدّاً من السيارات.. والدكاكين مُغلقة.. والقليل من الناس يسيرون على أقدامهم.. ولكن أثناء تجوالك قد تقع على زِحام مُفاجئٍ وسياراتٍ متراصةٍ تمتد كيلومتراً أو كيلومترين.. لتكتشف أن هذا الزِحام ما هو إلا طابور انتظارٍ أمام محطة وقود.. فبعد الثورة.. عمدت السلطة إلى تضييق منافذ العيش على الشعب، بهدف تأليب الناس على الثوّار، وجعلهم سبباً في الأزمة المعيشية.. لذلك انقطع البنزين، والديزل، والغاز - إضافة للكثير من السِلع الغذائية وسواها - وصار البنزين المحدود الذي يتمّ تهريبه، مساحة للاقتتال والتنافس، إضافة للارتفاع الجنوني بالأسعار.. حيث

ارتفع سعر صفيحة البنزين ـ التي تحوي عشرين لتراً ـ من ٧ دولارات، إلى قرابة الـ ٧٠ دولاراً (أي أن سعر اللتر الواحد ارتفع من ١،٣ ريال سعودي إلى حدود الـ ١٣ ريالاً).. وحصل ذات الارتفاع مع كثيرٍ من السِلع الأخرى.. لذلك إذا وجدتَ في صنعاء وسط الشوارع الفارغة طابوراً طويلاً من السيارات، فاعرف أنك ستجد في آخره محطة وقود!.. وطبعاً وجود هذا الطابور الطويل لا يعني أنه يتوفر حالياً بنزين في هذه المحطة!.. فربما تكون المحطة فارغة من الوقود.. ولكنها موعودة بأنه سيأتيها بعض البنزين خلال أيام.. لذلك تصطف السيارات بشكل مُبكر.. وتبقى تنتظر أحياناً لعدة أيام.. وتظل السيارات المُصطفّة في الطابور دون سائقين.. وفي حال وصل الوقود، ينتشر الخبر باعتباره حدثاً مُهماً.. ويبدأ أصحاب السيارات بالمجيء للتقدم في الصف.. وأحياناً تحدث اشتباكات بين المصطفّين بسبب خلافاتٍ على حصص البنزين.. ودائماً ما تنقل الصحف المحليّة حصول عمليات اقتتال ينتج عنها بعض الجرحى ـ وأحياناً قتلى ـ عند محطات الوقود.

لذلك غدا البنزين سلعة ثمينة في اليمن.. فصارت الصحف ترسم كاريكاتيرات ساخرة حول الموضوع.. فمثلاً في كاريكاتير يظهر شابٌ متقدمٌ للزواج، يحاول إغراء والد العروس بالموافقة عليه، فيقول له: سأدفع لك مهراً كبيراً عبارة عن ثلاث صفائح بنزين!

وبسبب انقطاع الوقود وعددٍ كبيرٍ من المواد المعيشيّة، توقفت كثيرٌ من الشركات والمحال التجارية والفنادق عن العمل.. وذلك لصعوبة التنقل.. ولانقطاع الكهرباء غالب

اليوم.. ولعدم وجود وقودٍ للمولدات الكهربائية الاحتياطية.. إضافة إلى أنك تلحظ بوضوح أكوام القمامة في الطرقات، بسبب توقف شركات التنظيف عن العمل.

ولأن المعارك مازالت تدور في صنعاء بين قوات الجيش أو القبائل الموالية للثورة من جهة، وقوات الحرس الجمهوري الموالي للرئيس من جهة أخرى.. بدت صنعاء وكأنها بيروت أيام الحرب الأهلية ـ التي كانت مقسومة إلى شرقية وغربية ـ .. ففي صنعاء هناك مناطق خاضعة للفرقة الأولى في الجيش الموالية للثوار، التي يقودها اللواء علي محسن الأحمر.. وهناك مناطق خاضعة للحرس الجمهوري الموالي للرئيس.. وعلى من يُريد التجوّل في صنعاء، أن يعرف الطرف الذي يُسيطر على المنطقة التي سيتوجه إليها.. وفي طريقنا إلى ساحة التغيير، مررنا بعدة مفارِز عسكرية وسط الطرق السريعة، وعند مداخل المناطق، بعضها تابع للرئيس، وبعضها تابع للثوار.

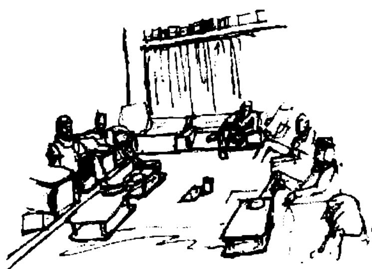
قبل وصولي لصنعاء بيوم، قال لي الصديق شوقي القاضي أن ٨٠٪ من فنادق العاصمة توقفت عن العمل.. وإن أنسب الفنادق المُتاحة لإقامتي هما فندقا الشيراتون والموفيمبيك ـ وهما الفندقان الوحيدان في صنعاء من تصنيف الخمس نجوم ـ .. وأضاف: ولكن المُشكلة أن هذين الفندقين يقعان في المناطق الخاضعة للرئيس.. إضافة إلى كونهما بعيدين عن ساحة التغيير.. ولا تتوفر دائماً وسائل نقل.. عندها قلت لشوقي إن مدة إقامتي في صنعاء لن تتجاوز اليومين وبضع ساعات.. ولا أودّ إضاعة أي ساعة.. لذلك أريد أن أسكن في ساحة التغيير.. في أي مكان وسط الساحة أو قريبٍ منها.. قال

شوقي: ولكن الأماكن المتوفرة هناك متواضعة جداً.. قلت له ضاحكاً: يا رجل أنا أتيت بهدف الاقتراب من ثورة، لا لقضاء رحلة سياحية.. أوجد لي مكاناً للنوم حتى لو كان في خيمة.. وبالفعل.. استأجر لي شوقي غرفة في فندق شعبي داخل ساحة التغيير، ويُطل على خيام الاعتصام.

وفي الدور الرابع بفندق بسيط ـ بالطبع لا يحتوي على مصعد .. وفي غرفة متواضعة قيمة استئجارها اليومي تعادل ٣٥ ريالاً سعودياً (قرابة الـ ١٠ دولار) ـ وبالطبع أيضاً هي دون تكييف ولا دولاب ولا مرآة ولا ...الخ ـ وضعتُ حقيبتي.. وفتحتُ النافذة.. وبدأت أرقب بعض الأبنية والأزقة المُتاخمة لساحة التغيير.. عندها رَبَت شوقي على كتفي، وقال بسخريته المعهودة: أهلاً بك في جمهورية الثورة.

* * *

جولةٌ في قلب اليمن الثائر .. ساحة الاعتصام



وصلتُ إلى الفندق في قرابة الساعة الثانية ظهراً.. فاتفقتُ مع شوقي وهاني على أن نبدأ جولتنا في الساعة الثالثة والنصف.. صليتُ الظهر والعصر جمعاً وقصراً.. ووضعتُ ما كان معي من أجهزة إلكترونية (جوال، كاميرا، لابتوب) على الشاحن (أخبرني موظف الفندق أول وصولي أن الكهرباء تتقطع كثيراً، وأنها اشتغلت قبل دخولي بدقائق، وربما تنقطع بعد ساعة، لذا عليّ المُسارعة بشحن أي أجهزة كهربائية لديّ قبل الانقطاع).. وفي الوقت المُحدد نزلتُ إلى مدخل الفندق على توقيت وصول شوقي وهاني.. واتجهنا جميعاً إلى ساحة التغيير.

بسبب الزخم الذي أحدثته الثورة المصرية في الوجدان العربي طيلة الثمانية عشر يوماً.. ربما كان أول ما يخطر ببال المُتابع لأخبار ثورة اليمن، أن (ساحة التغيير) في صنعاء هي ميدانٌ كبير يُشابه ميدان التحرير في القاهرة.. ولكن الحقيقة أن في صنعاء لا يوجد ميدان باسم ساحة التغيير.. وأن مكان اعتصام المعارضة هو في شارعٍ كبيرٍ ومُمتد.. اسمه الشارع

الدائري.. ويقع أمام مدخل جامعة صنعاء.. ويمتد عن يمينها وشمالها لعدة كيلومترات.

يوجد في صنعاء ميدانٌ آخر يقع في المنطقة التجارية، واسمه يُطابق تماماً اسم الميدان المصري (ميدان التحرير) مع اختلافٍ في الحجم طبعاً، حيث ميدان التحرير في صنعاء أصغر بوضوح من ميدان التحرير القاهري.. وعندما بدأت المظاهرات بمدينة تعز في أول أيام الثورة اليمنية، خشِيت السلطة من انتقال المُظاهرات والاعتِصامات إلى العاصمة صنعاء، فبادرت بإرسال مجموعة من البلطجيّة (ويُسمون في اليمن البلاطجة) الموالين لها إلى ميدان التحرير وسط صنعاء.. وقاموا باحتلاله، ونصبوا الخيام بداخله.. في محاولة لقطع الطريق على المُعارضة كي لا تعتصم بهذا المكان.

المعارضة بدورها بادرت إلى اختيار مكانٍ آخر ملائم للاعتصام، وكان هذا المكان هو الشارع الدائري المُحاذي لجامعة صنعاء، لكونه شارعاً واسعاً ويقع أيضاً في منطقة حيوية وسط العاصمة.. ونصبت المعارضة أول خيام الاعتصام في هذا الشارع مُعلنة انتقال الثورة للعاصمة.. وكانت الخيام في البداية تمتد لبضع مئات من الأمتار.. وفي كل أسبوع تنحاز فصائل جديدة من المعارضة للثورة، وتشارك في الاعتصام، وتنصب لها خيام خاصة.. وحين تجاوز امتداد خيام الاعتصام الكيلومتر الأول، قام شباب الثورة برفع لوحة كبيرة في نهاية هذا الكيلومتر، وكتبوا عليها: (مرحباً بكم في أول كيلومتر كرامة).

اليوم يتجاوز امتداد خيام الاعتصام الأربعة كيلومترات (وفي نهاية كل كيلومتر هناك لوحة مكتوب عليها: أهلاً بك

في ثاني كيلومتر كرامة.. وهكذا).. ولم تكتفِ المعارضة بنصب الخيام فقط على امتداد الشارع الدائري، بل وامتدت الخيام على طول مئات الأمتار في خمسة طرق رئيسية تتقاطع مع الشارع الدائري، هي: شارع القاهرة، وشارع الحرية، وشارع العدل، وشارع الرباط، وشارع العشرين.. واتفقت المعارضة منذ بداية الثورة أن تُطلِق على كل منطقة الاعتصام اسم (ساحة التغيير).

حين تتجول في ساحة التغيير.. ترى في الشارع الدائري ثلاثة صفوف من الخيام الكبيرة والمُتراصة على امتداد الشارع.. وفي أحد التقاطعات الواسعة بين الشارع الدائري وأحد الشوارع الأخرى بقرب بوابة جامعة صنعاء، تم وضع منصّة خشبية كبيرة لتكون الموقع الرئيسي للكلمات والخطابات السياسية.. والجيد أنه في كل ساحة التغيير لا يوجد سوى منصّة واحدة.. بخلاف ما هو موجود مثلاً في ميدان التحرير المصري، حيث هناك أكثر من ست منصات تتوزع على أطراف الميدان، وتمثل كل منصة اتجاه فكري وسياسي، وكثيراً ما كان هذا التنوّع في المنصات سبباً في تأجيج الخصومات السياسية وتضارب الخطابات.

ومع تنامي الاعتصام، وازدياد عدد القوى المشاركة في الثورة.. باتت ساحة التغيير مكاناً للصهر الاجتماعي والسياسي.. ففي جنباتها التقى المختلفون الذين لم يلتقوا سابقاً.. فتجد خيام الإسلاميين بجوار خيام الاشتراكيين.. وخيام مجموعاتٍ من السلفيين بجوار خيام للحوثيين.. واللقاءات والحوارات المتبادلة بين الأطراف لا تكادُ تتوقف.. حتى نشأت بين كثير من أفراد القوى التي كانت متصارعة روابط اجتماعية وثيقة.

ورغم المضمون السياسي لساحة التغيير.. إلا أنها غدت أشبه بجمهورية مثالية.. ففي ثنايا الساحة تجد خياماً خاصة بالنساء.. وملاعب للأطفال.. وأسواقاً شعبية.. وباعةً متجولين.. ومطاعم.. ومراكز رياضية.. وخياماً كبيرة للندوات والمحاضرات.. ومسارح.. وفنّانين تشكيليين متجولين.. وأمسياتٍ شعرية.

كما أقيمت في الساحة عدة فعاليات ثقافية ورياضية.. فأقيمت مسابقة غِنائية كبيرة باسم (فنّان الثورة) شارك بها أكثر من مِئتي متسابق.. وأقيمت مسابقة أخرى باسم (شاعر الثورة) شارك بها العشرات.. وأقيمت عدة دوريات رياضية بين فِرق متنوعة تشكلت من شباب الساحة.. كما تمّ تأسيس مسرح كبير أسموه (مسرح الثورة) قدم فيه الشباب كثيراً من العروض المسرحية.. وأيضاً نشطت القوى السياسية وشباب الثورة في كتابة وإخراج وطباعة نشرات وصحف بسيطة ومتنوعة توزّع فقط في ساحة التغيير، وتحتوي على الأخبار، والمقالات، والتعليقات الطريفة، والرسوم الكاريكاتيرية الساخرة، وبعض الأخبار والشؤون الداخلية للساحة.

وعلى خيام الاعتصام تجد كثيراً من اللوحات المُعلّقة.. بعضها يتضمن تعريفاً باتجاه سياسي يُقيم في هذه الخيام.. وبعضها لوحاتٍ عليها عددٌ من الشعارات المُطالبة بالحريّة وبإسقاط النظام.. وأخرى تحمل صوراً لشهداء الثورة.. ورسوم كاريكاتيرية تسخر من الرئيس صالح ومن الرؤساء الذين أسقطتهم الثورات العربية.. وصور لشخصيات وطنية سياسية وثقافية تمثّل رمزاً لوحدة اليمن ونضاله ضد الاستبداد.

وعلى بُعد مئات الأمتار من المنصة الرئيسيّة، وفي أحد

أطراف جامعة صنعاء، تم تحويل جامع (الجامعة الجديدة) إلى مستشفى ميداني.. بحيث تم إفراغ الجامع من السجّاد، ووضع عشرات الأسرّة لاستقبال المصابين على شكل صفوف داخل المسجد.. وفي الباحة الخارجية للجامع هناك بعض العيادات، وصيدلية، ومخزن للأدوية وبعض اللوازم الطبيّة.. وفي أحد أطراف هذا المستشفى الميداني بُنيت عشرات دورات المياه لخدمة المعتصمين.

وأثناء جولتي في ساحة التغيير بصحبة الصديق شوقي القاضي، بدا لي بوضوح أن شوقي شخصية معروفة بين الشباب والناشطين السياسيين في الساحة.. فكل قليلٍ يأتي أحدهم ليسلم عليه ويتحدث معه أو ليسأله عن بعض الشؤون والأخبار التي تخص الثورة.. ورغم أن الاعتصام قد مضى عليه (لحظة زيارتي في منتصف يوليو / شعبان) أكثر من خمسة أشهر.. إلا أن الحماس والإصرار على البقاء حتى اكتمال الثورة يكاد يكون السمة البارزة عند الشباب.

وفي وسط جولتنا سألت شوقي مستغرباً عن كون الطرقات والشوارع في ساحة التغيير المكتظة بخيام الاعتصام تبدو نظيفة، بخلاف شوارع صنعاء المُمتلئة بأكوام القمامة.. فقال لي إن هناك عشراتٍ من شباب الثورة يتطوعون يومياً لتنظيف الساحة، وإن هناك العديد من اللجان التي تشكلت للقيام بأي مستلزمات خَدَمية يستوجبها الاعتصام.. لذلك فالشباب هنا مُستعدون للبقاء حتى لو طال بهم الأمد.

استطاع شباب الثورة في اليمن أن يجعلوا (ساحة التغيير) من مكان خاص بالاعتصام السياسي.. إلى بُقعة تتمازج في أروقتها جميع الفروق الاجتماعية والثقافية.. وتتضاءل تحت ظلٍّ

خيامها كل الخلافات الفكرية والسياسية.. وينحت فيها الشباب مستقبل وطنهم بسطورٍ ممهورةٍ بلون الأمل، والدم، والثورة.

* * *

المكونات السياسية للثورة ..

من يقترب من أجواء الثورة اليمنية، وساحة التغيير، وخطابات الرئيس التي هاجم بها الثورة، واجتماعات المعارضة، لابد أن يتردد على مسمعه كثيراً اسم (اللقاء المشترك).

اللقاء المشترك هو تجمّع لأحزاب المعارضة اليمنية، تأسس في فبراير ٢٠٠٣م.. وشكل جبهة سياسية موحدة للمعارضة.. وعمل بدرجة عالية من التحالف والتنسيق في مواجهة السلطة اليمنية.. ولهذا اللقاء الدور الأبرز في تنسيق عمل الثورة وإدارتها.. ويضم اللقاء المشترك سبعة أحزاب، سأذكرها بحسب ترتيب حجمها وشعبيتها:

١ ـ التجمع اليمني للإصلاح / وهو تجمّع إسلامي سني، تشكل في عام ١٩٩٠م بعد الوحدة مع اليمن الجنوبي.. ويمثل في غالبه مدرسة الإخوان المسلمين، مع وجود مجموعات صغيرة سلفية ومستقلة منضمّة إلى هذا التجمّع.

٢ ـ الحزب الاشتراكي اليمني / وهو من الأحزاب اليمنيّة القديمة التي ساهمت في حرب تحرير اليمن الجنوبي من الاستعمار البريطاني حتى الاستقلال ١٩٦٧م.. وحكم هذا الحزب اليمن الجنوبي من بداية الاستقلال وحتى الوحدة مع الشطر الشمالي عام ١٩٩٠م.. وحتى الآن للحزب الاشتراكي

حضور واسع في الشطر الجنوبي لليمن، مع حضورٍ معقول في الشطر الشمالي.. تبنّى الحزب لفترة الأيديولوجيا الشيوعية، ثم عَدِل عنها وصار اشتراكياً بالمعنى العام.

١ ـ التنظيم الوحدوي الناصري / وهو حزب قومي يُمثل امتداداً للتيار الناصري.

٢ ـ حزب الحق / وهو حزب إسلامي زيدي.. تأسس في عام ١٩٩٠م.. وقادةُ في بداياته عدد من العلماء لا السياسيين.. يرى البعض أنهم كانوا يفتقرون للثقافة السياسيّة.. وهو ما أدى إلى حدوث بعض الانقسامات داخله.. وأحد هذه الانقسامات كان انفصال الحوثيين عن الحزب.

٣ ـ اتحاد القوى الشعبية / وهو أيضاً حزب إسلامي زيدي.. تشكل بعد انفصال مجموعة من أعضائه عن حزب الحق، لكونهم يمثلون اتجاهاً فكرياً أكثر انفتاحاً.

٤ ـ حزب البعث السوري / انضم إلى اللقاء المشترك قبل الثورة بعدة أشهر.

٥ ـ التجمع الوحدوي اليمني / انضم إلى اللقاء المشترك في بدايات الثورة.

وفي مواجهة (اللقاء المشترك) عمدت السلطة إلى تكوين تكتل من الأحزاب الموالية لها تحت اسم (مجلس التحالف الوطني).. ضم في مقدمته (حزب المؤتمر الشعبي) وهو الحزب الحاكم الذي ينتمي إليه الرئيس علي عبدالله صالح.. و(حزب البعث العراقي).. و(الحزب الناصري الديمقراطي)

المنشق عن التنظيم الوحدوي الناصري.. و(حزب التصحيح الناصري) وهو أيضاً انشقاق آخر عن التنظيم الوحدوي الناصري.

وبدا واضحاً أن غالبية الأحزاب المنضوية تحت لافتة (مجلس التحالف الوطني) هي أحزاب شكلية لا وجود حقيقياً لها على الأرض.. وغالبها تشكّل نتاج سعي حزب المؤتمر الشعبي لعمل انشقاقات في أحزاب اللقاء المشترك.. بحيث يقوم المؤتمر الشعبي بعد ذلك بضم الأحزاب الجديدة الناتجة عن هذه الانشقاقات إلى مجلس التحالف الوطني.

ورغم أن (اللقاء المشترك) يُمثل أكبر كتلة معارِضة للنظام.. إلى أن الثورة اليمنية تضم أطيافاً أخرى لا علاقة لها باللقاء المشترك.. وسأحاول فيما يلي أن أذكر أبرز المكونات السياسيّة المُشاركة في الثورة اليمنية، والمتواجدة في ساحات الاعتصام:

١ ـ اللقاء المشترك / وهو الكتلة الأكبر والأكثر تنظيماً.. ويمثل تقريباً ٦٠٪ من مجموع المُشاركين في الثورة.

٢ ـ الشباب المستقلّون / وهم مجموعات شبابية مُستقلة ومتنوعة الانتماءات (إسلاميين، يساريين، قوميين).. كان بعضهم أول من بدأ الثورة في مدينة تعز.. وبعد الاعتصام تشكلت مجموعات شبابية عديدة في ساحة التغيير وبقيّة ساحات الاعتصام في المدن اليمنية.. من مثل: التحالف المدني للثورة الشبابية، اتحاد شباب الثورة، ائتلاف ثورة التغيير السلمي، شباب التنمية والتجديد، والعديد من التشكيلات الشبابية الأخرى.. ثم

تشكلت (جبهة شبابية) تمثل أكبر تكتّل تنسيقي لحركات الشباب في خيم الاعتصام، اسمها (المنسقيّة العليا للثورة اليمنية).

٣ ـ القبائل / هناك العديد من المشاركين في الثورة لا ينتمون لاتجاهات سياسية، وإنما يمثلون قبائل.. حيث أعلنت عدد من القبائل انضمامها للثورة.. وشاركت بخيام خاصة بها في ساحات الاعتصام.

٤ ـ الحراك الجنوبي / وهو وصفٌ للحراك الذي بدأ عام ٢٠٠٧م في بعض مدن اليمن الجنوبي، اعتراضاً على التهميش المعيشي وعدم مساواتهم بالشطر الشمالي.. وقد توسعت الاحتجاجات وخرجت المُظاهرات في مُدن الشطر الجنوبي خلال الأعوام ٢٠٠٩م و٢٠١٠م الذي شهد أيضاً انضمام عدد من القيادات السياسية لهذا الحراك.. وقد عَلَت مطالبات البعض بالانفصال عن الشمال.. وتمّ تشكيل إطار سياسي للحراك الجنوبي، وأصبح عبدالله حسن الناخبي هو أمينه العام.. وبعد بدء الثورة، أعلن الحراك الجنوبي إيقاف المُطالبة بالانفصال عن الشمال، والانضمام إلى الثورة السلميّة الساعية لإسقاط النظام.

٥ ـ الحوثيون / وهم جماعة زيديّة تنتمي إلى الفِرقة الجاروديّة القريبة من الإماميّة الاثني عشريّة.. أسسها بدر الدين الحوثي الذي كان مُعارضاً للنظام، وأقام في طهران عدة أعوام، ثم قُتل على يد القوات اليمنيّة في أول مواجهات عسكرية جرت بينهما عام ٢٠٠٤م.. ثم قاد ابناه (عبدالملك ويحيى) الجماعة من بعده.. ويتخذ

الحوثيون من محافظة (صعدة) شمال صنعاء والقريبة من الحدود السعودية مقراً لهم.. وقد دخلوا منذ العام ٢٠٠٤م وحتى نهاية العام ٢٠٠٩م في ست مواجهات عسكرية مع النظام، سقط خلالها الكثير من القتلى.. وبعد بدء الثورة قرر الحوثيون الانضمام إليها.

٦ ـ الموالون للواء علي محسن الأحمر / وهو قائد الفِرقة الأولى في الجيش اليمني، وهي أكبر فِرقة عسكرية في الجيش، والمسؤولة عن حِماية صنعاء وشمال اليمن.. وهي الفرقة التي دخلت في مواجهات عسكرية مع الحوثيين.. انفصل اللواء علي محسن الأحمر عن السلطة في اليمن، وأعلن ولاءه للثوار بعد شهر وبضعة أيام من بداية الثورة.. والآن تقوم الفِرقة الأولى بحماية ساحة التغيير.. وهناك عدد من العسكريين والمدنيين الموالين لعلي محسن الأحمر يشاركون في الاعتصام بساحة التغيير.

٧ ـ المُعارضة في الخارج / بعد العام ٢٠٠٧م قام مجموعة من السياسيين والمثقفين اليمنيين المقيمين في الخارج ـ غالبهم من اليمن الجنوبي ـ بالإعلان عن تشكيلات سياسية مُعارضة للنظام تتخذ من عواصم أجنبية أو عربية مقراً لها.. وعقد هؤلاء المعارضون عدة اجتماعات تنسيقيّة جرت في لندن والقاهرة وسواهما.. وبعد بدء الثورة اليمنيّة أعلنت المُعارضة في الخارج انضمامها للثورة.. وقامت مجموعات شعبية محدودة موالية لهذه المُعارضة بالمشاركة في ساحة الاعتصام.

* * *

بعد ساعتين من التجوال في ساحة التغيير.. أخبرني الصديق شوقي القاضي بأننا على موعد مع الدكتور عبدالملك المتوكل، أحد القيادات السياسية في المُعارضة.

الدكتور المتوكل حاصل على الدكتوراه في العلوم السياسيّة.. وهو من أبرز قيادات حزب (اتحاد القوى الشعبية) المُنفصل عن (حزب الحق).. وقد قاد المتوكل لعدة أشهر تكتل اللقاء المشترك ـ قيادة اللقاء المشترك تكون عادة بشكلٍ دوري بين الأحزاب المُشاركة ـ ويُعتبر من الشخصيات المرموقة سياسياً وثقافياً.. ويُصنف باعتباره من الإسلاميين المُستنيرين في الوسط الزيدي.

اتجهت برفقة شوقي إلى منزل الدكتور المتوكل الذي استقبلنا بكل لُطف، وشاركنا اللقاء بعض قيادات اتحاد القوى الشعبيّة.. ودار حديثٌ طويل عن مستقبل الثورة، والسيناروهات المتوقعة، وعن الموقف السعودي والخليجي والأمريكي مما يجري.. وبدوري سألته عما أدهش كثيراً من المُراقبين للثورة اليمنية، هو مِقدار السلميّة التي التزمت بها الثورة، رغم توفر السلاح من جهة، وعُنف السلطة من جهة أخرى؟!

فأجابني د.المتوكل بأن المُعارضة كانت دائماً حريصة على ضبط النفس، وعدم الاستجابة لاستفزاز السلطة واللجوء إلى السلاح، رغم أن السلطة كانت تتمنى أن تلجأ المُعارضة إلى السلاح، كي يُصبح الموضوع أشبه بحربٍ أهليّة، بدل أن يكون ثورة شعبيّة سلميّة لإسقاط النظام.. ومع ذلك فإن استعداد الشباب لضبط النفس كان عالياً بشكل فاجأ حتى القيادات الحزبية، رغم أن الشعب اليمني يملك أكثر من

ستين مليون قطعة سلاح.. وبالطبع فإن ما حصل في تونس ثم مصر كان له دور كبير في إصرار الشباب على سلميّة الثورة.

وعن الشكل السياسي الذي يعتقد أنه أنسب لشكل السلطة في اليمن، قال المتوكل إن الحل هو امتلاك اليمن لجيش وطني قوي ومُحترف ولا يتدخل بالسياسة، وذلك من أجل أن تكون الدولة قادرة على فرض النظام، وإبقاء السيادة للشعب عبر صناديق الانتخاب.

بعد قرابة الساعة من الحوار حول كثيرٍ من تفاصيل المشهد السياسي اليمني.. وقبيل المغرب.. استأذنا الدكتور عبدالملك المتوكل بالانصراف.. فودعنا بعد أن أهدانا مشكوراً بعضاً من كتبه.

خرجنا من المنزل.. واتجهنا مرة أخرى إلى ساحة التغيير.

* * *

الليلة التي أشعلت فتيل الثورة في اليمن



كيف بدأت الثورة؟

من يراقب بدايات الثورات العربية يكتشف بوضوح التأثير الكبير الذي أحدثته كل ثورة على التي تليها.. فتأثيرات ثورة تونس على الثورة المصرية كانت واضحة جداً.. أما الثورة اليمنيّة، فيكفي أن نعرف أن الثورة بدأت في ذات الساعة التي تم فيها الإعلان عن تنحي الرئيس المصري.

في يوم الجمعة ١١ فبراير كان ملايين اليمنيين ـ كما في كل العالم العربي ـ يتابعون دقائق ما يجري بميدان التحرير في مصر.. وفي اللحظة التاريخية الشهيرة التي أعلن فيها نائب الرئيس عمر سليمان عن تنحي الرئيس حسني مبارك عن السلطة.. وفي ذات الساعة.. خرج الشباب اليمني في مدينة تعز إلى الساحة التي أُطلق عليها فيما بعد اسم (ساحة الحرية).. وشكّل الشباب مظاهرة كبيرة هتفت بإسقاط النظام اليمني.. وأعلنوا أنهم سيعتصمون في الساحة حتى سقوط النظام.

محافظة تعز تُعتبر ثاني أكبر محافظة يمنيّة.. وهي المركز الثقافي الأهم في البلاد.. وكثيرٌ من النخب الفكرية والثقافية اليمنية ينتمون إلى هذه المحافظة.. لذلك فإن غالب الذين خرجوا في مدينة تعز مساء يوم ١١ فبراير، كانوا شباباً مُستقلين لا ينتمون إلى أحزاب.. ومن كان منهم ينتمي إلى أحزاب خرج للتظاهر بدوافع ذاتية.

ومنذ اليوم الأول لبدء الثورة في اليمن كانت هتافات الشباب تدعو مباشرة إلى إسقاط النظام.. فيما كانت أحزاب اللقاء المشترك تدرس منذ أيام القيام بتصعيد سياسي ومظاهرات، لكنها كانت تهدف إلى سقف مطالب أقل مما طالب به الشباب، كمنع التوريث، وإنهاء حكم الرئيس بنهاية فترته الرئاسية في سبتمبر ٢٠١٣م، والقيام بعددٍ من الإصلاحات الدستورية.. ولكن خروج الشباب أربك حِسابات اللقاء المشترك.. وبعد أسبوع من بدء الثورة في تعز.. وتحديداً في يوم الجمعة ١٨ فبراير، انتقلت المُظاهرات والاعتصامات إلى العاصمة صنعاء.. وقد بدأها أيضاً الشباب بدوافع ذاتيّة.. ولأن السُلطة كانت تخشى من انتقال الثورة إلى العاصمة، قامت فور بدء الثورة في تعز ـ كما ذكرت سابقاً ـ بإرسال مجموعة من البلاطِجة لاحتلال أهم ميدان في صنعاء وهو (ميدان التحرير) الذي يقع في الوسط التجاري.. حيث نصب أنصار النظام خيامهم في كل أرجاء الميدان.. في محاولة لقطع الطريق على اعتصام الثوّار بذات المكان.. لذلك قرر الشباب أن يختاروا الشارع المُقابل لجامعة صنعاء (الشارع الدائري) كي يبدؤوا فيه الاعتصام.. خاصة أن كثيراً من الشباب الذين بدؤوا الثورة في العاصمة، كانوا من طلاب

هذه الجامعة.. وبعد ذلك أطلق الشباب اسم (ساحة التغيير) على موقع الاعتصام.

وبعد انتقال الثورة للعاصمة صنعاء بخمسة أيام.. وتحديداً في ٢٣ فبراير.. أعلن تكتل اللقاء المشترك رسمياً انضمامه للثورة.. ثم توالى انضمام العديد من القوى السياسيّة المُعارِضة وغير المُنضوية في اللقاء المشترك إلى ثورة الشباب اليمني.. وبدأت الثورة تنتشر في غالب المحافظات.. ولم يمضِ شهرٌ على بدأ الثورة، حتى انضمّت لها سبع عشرة مُحافظة يمنيّة.. وصار في كل مُحافظةٍ ساحةٌ خاصة للاعتصام.. إضافة إلى الخروج الجماهيري الكبير الذي يحصل بعد صلاة الجمعة في كل المُحافظات الثائرة.

السلطة اليمنيّة بدورها بدأت في مواجهة هذه المظاهرات والاعتصامات، سعياً لإنهاء هذه الثورة قبل استفحالها.. ولم تتوانَ عن استخدام السلاح في المواجهات.. وقتلت في الشهر الأول للثورة عدداً من الشباب.

والمتابع ليوميات الثورات العربية، ومسار تطورها.. يلمس بوضوح أن هناك دوماً مُنعطفات مهمة في مسيرة كل ثورة، تُكسبها مزيداً من الزخم والقوة.. ودوماً تتمثل هذه المُنعطفات في الأيام التي ترغب بها السلطة في تخويف الثائرين عبر مزيدٍ من القتل والقمع.. فينتج عن هذا القتل مزيد من الإصرار والاستبسال وانضمام فئات جديدة للثورة.. فالقمع العنيف الذي قامت به السلطات التونسية لمظاهرات مدينة القصرين في تونس ـ حيث قتلت أكثر من ثلاثين شخصاً ـ كانت واحدة من أهم مُنعطفات الثورة التونسية.. والعنف الذي مارسته السلطات المصرية على المتظاهرين يوم

الجمعة ٢٨ يناير ـ حيث قُتِل المئات ـ ويوم موقِعة الجمل في ٢ فبراير، كان هو الوقود الحقيقي لاستمرار الثورة.. والبطش الذي مارسه الأمن السوري تجاه أطفال درعا، هو الذي أشعل فتيل الثورة في سوريا.. وأنهار الدم التي أجرتها كتائب القذافي في ثالث أيام الثورة الليبية، حين قتلت أكثر من ثلاثمائة شخص في بنغازي، وأكثر من مائةٍ وخمسين شخصاً في البيضا، هو الذي أحرق عند الثوار الليبيين سُفن التراجع والعودة.

السُلطات اليمنية في تعاملها مع الثورة ارتكبت ذات الجريمة.. ففي جمعة الكرامة يوم ١٨ مارس.. وبعد صلاة الجمعة التي أقامها الثوار في ساحة التغيير ـ قبل أن تنتقل صلاة الجمعة إلى شارع الستين لاستيعابِ مزيدٍ من الحشود ـ قامت السلطة اليمنية بفتح النار على شباب ساحة التغيير في المنطقة الواقعة وسط تقاطع الشارع الدائري مع شارع العشرين.. حيث قتلت عبر القناصة، وخلال ساعات، أكثر من خمسين شخصاً.. وجرحت أكثر من مئتي شخص.

هذه المجزرة كانت منعطفاً كبيراً في مسيرة الثورة اليمنيّة.. فمستوى الغضب الشعبي، والاستياء الدولي، بلغ مداه.. ونتج عن هذه المجزرة أيضاً انضمام عددٍ من القيادات السياسيّة الموالية للنظام إلى الثورة.. ففي يوم ٢٠ مارس.. وبعد المشهد المهيب لتشييع جنازات شهداء جمعة الكرامة.. أعلن اللواء علي مُحسن الأحمر، أركان حرب الفرقة الأولى المدرعة في الجيش اليمني انضمامه للثورة.. والفرقة الأولى التي يقودها الأحمر تُعد أهم فرقة وأضخم فرقة في الجيش اليمني.. وهي المسؤولة عن حماية صنعاء وشمال اليمن..

وبانضمامه كسبت الثورة رصيداً ماديّاً ومعنويّاً كبيراً.. حيث باتت هذه الفرقة هي المسؤولة عن حِماية مُحيط ساحة التغيير، ومنع وصول أي فرق عسكرية موالية للنظام إلى الساحة.

وفي الأيام القليلة التي تلت مجزرة جمعة الكرامة، أعلن عددٌ من الوزراء، والسفراء، والمسؤولين، وشيوخ القبائل، وكِبار ضبّاط الجيش، انفصالهم عن السلطة وانضمامهم للثورة.. فمثلاً في الجيش اليمني خمس فرق عسكرية.. أعلنت أربعٌ فرق منها انضمامها للثورة.. ولم يبقَ تحت إمرة الرئيس سوى فرقة واحدة متواجدة في بعض محافظات الجنوب، ويقودها اللواء مهدي مقولة الذي ينتمي إلى نفس قرية الرئيس (واسم القرية «مقولة»، وتقع جنوب صنعاء).. ولكن بقي مع الرئيس أيضاً (الحرس الجمهوري)، وهو جهاز عسكري يبلغ تِعداد أفراده قُرابة الأحد عشر ألفاً، ويمتلك سِلاح طيران، وتجهيزات، وأسلحة متطوّرة لا يملكها الجيش، وتم تدريب عناصره بكفاءة عالية، ويقوده أحمد علي عبدالله صالح ـ ابن الرئيس ـ .. ومازال الحرس الجمهوري يدين بالولاء للنظام، وهو الذي يُسيطر على المناطق التي مازالت خاضعة للرئيس في صنعاء، كمواقع القصر الرئاسي، ومقر رئاسة الوزراء، وبعض الوزارات، والمطار، وعدد من المرافق المهمة.

ومع كل هذا التحوّل في موازين القوى الداخلية لصالح الثورة.. إلا أن النظام لم يتوقف عن أساليب القتل والترهيب.. ففي يوم ٢٧ إبريل.. انطلقت مسيرة شبابية حاشدة طافت عدداً من نواحي العاصمة.. وكانت المسيرة تهدف إلى الإعلان عن رفض الثوّار للمبادرة الخليجية التي كانت قد أُعلنت قبل

أيام.. وعندما صارت المسيرة بمحاذاة (ملعب الثورة) خرجت من داخل الملعب جموع من البلاطجة، يُساندهم رجال الأمن المركزي، وقاموا بإطلاق نارٍ كثيفٍ على المسيرة.. ونتج عن إطلاق الرصاص الحي، قتل ١٣ شخصاً وجرح أكثر من ٢٢٠ متظاهراً.

ووسط تباين في الرؤى بين بعض القيادات والشباب في ساحة التغيير حول تصعيد المواجهة، بهدف تعجيل الحسم الثورية.. خرجت مظاهرة كبيرة يوم ١١ مايو لبعض الثوّار، تقودها النائبة عن تجمّع الإصلاح توكل كرمان (وهي المعروفة بنزعتها التصعيديّة، وقد قادت المسيرة بقرارٍ شخصي دون موافقة تجمّع الإصلاح) وقررت التوجه إلى القصر الرئاسي ومقرّ رئاسة الوزراء.. وفي شارع الزراعة مُقابل مقرّ رئاسة الوزراء، فتح رجال الأمن المركزي والحرس الجمهوري النار على المسيرة، وقتلوا وجرحوا الكثيرين.. وفي ذات الوقت توجهت جموع من الأمن المركزي والحرس الثوري ومئات من البلاطجة إلى ساحة التغيير من جهة شارع العدل.. وحاولوا اقتحام الساحة، وقاموا بإطلاق النار الكثيف على المُعتصمين هناك.. فرد عليهم بإطلاق النار بعض عناصر الفرقة الأولى المدرعة التي يقودها اللواء علي محسن الأحمر والمُكلفون بحماية الساحة.. ونتج عن هذه المواجهات قتل ١٥ شخصاً، وجرح ٢٤٣ من شباب الثورة.

وبين هذه المجازر كان يجري دوماً إطلاق للرصاص من قِبل الأمن المركزي والحرس الجمهوري على المُتظاهرين، وقتل وإصابة بعضهم.. ولم تكن المواجهات المسلّحة للثوّار السلميين تجري في العاصمة صنعاء فقط.. بل جرت مواجهات

عديدة وسالت دماء القتلى والجرحى في غالب المُحافظات اليمنية.

أما في محافظة تعز ـ التي بدأت الثورة ـ فإن كميّة الاعتداءات المُسلّحة التي تعرّض لها المُعتصمون بساحة الحرية من قِبل القوات الموالية للرئيس ـ وبسبب عدم وجود قوات من الجيش موالية للثوّار تتكفل بحماية الساحة ـ كانت أكبر وأكثر شناعة.. في مقدمتها المحرقة البشعة التي حصلت بساحة الحرية في يومي ٢٩ و ٣٠ مايو.

وقد بدأت قصة المحرقة بقيام مديرية الأمن المركزي المُتاخمة لساحة الحرية بمدينة تعز باعتقال سبعة من شباب الثورة، وذلك في يوم السبت ٢٨ مايو.. وكانت تهدف من وراء هذا الاعتقال إلى استفزاز شباب الساحة كي يبدؤوا بالتظاهر والمواجهة.. ولكن شباب الثورة لم يستجيبوا للاستفزاز.. وفي يوم الأحد ٢٩ مايو قامت مديرية الأمن برفع صورة كبيرة للرئيس علي عبدالله صالح بمواجهة ساحة الحرية، في محاولة أخرى لاستفزاز المعتصمين.. عندها قام شباب الثورة بالتظاهر أمام مبنى المديرية مُطالبين بالإفراج عن رفاقهم السبعة.. فقام الأمن بفتح النار على المتظاهرين.. وقتل منهم خمسة أشخاص، وجرح ما يقرب من ٤٠٠ شخص.. واستمرت المواجهات بين قوات الأمن والشباب لساعات.. وهنا بدأت الأرتال العسكرية تُحاصر الساحة من الجهتين الشرقية والجنوبية.. وكان بعض شباب الثورة الغاضبين قد قاموا باحتجاز أحد الجنود وسط الساحة لمطالبة قوات الأمن بالإفراج عن معتقليهم السبعة.. عندها بادرت المديرية ـ وسط إطلاق الرصاص ـ بإرسال عسكريين اثنين إلى الساحة للمطالبة

بالإفراج عن الجندي.. وبالفعل وافق الشباب الذين احتجزوا الجندي على الإفراج عنه.. لكن وبعد ذلك بدقائق ـ وكان الوقت في الثانية بعد مُنتصف الليل ـ قامت القوات العسكرية التي تُحاصر المكان بالطلب من الثوّار مغادرة الساحة.. وبالطبع رفض الثوار مغادرة موقع اعتصامهم.. فبدأت القوات بإطلاق القذائف والرصاص الحي على الشباب.. ثم قام الجنود بإحراق بعض الخيام.. ووصلت بعض الجرّافات.. واشتعلت النيران في كل أرجاء الساحة.. وارتفع اللهب وسط صُراخ الجرحى والمصابين الذين تجاوزوا المئات.. ووسط حالة الهَلَع التي سادت المكان، نجح الشباب في إنقاذ بعض المُصابين.. فيما اشتعلت النيران بأجساد بعض الجرحى الذين لم يستطيعوا الهرب.. واستمرّت النيران تلتهم كل شيءٍ في ساحة الحرية حتى بدايات النهار.. ونتج عن هذه المحرقة المروّعة وفاة ٨٨ شخصاً، وإصابة أكثر من ١٧٠٠ جريح.. إضافة إلى وجود عددٍ من المفقودين.

وكان هذا الهولوكست الذي ارتكبته السُلطة بقرارٍ وتخطيطٍ مُسبق، أبشع ما عاشته الثورة اليمنية منذ بدايتها.. ولم يعُد شباب الثورة للاعتصام مُجدداً في ساحة الحرية سوى عقِب أسبوع من المحرقة، بعد أن تكفّلت مجموعات قبليّة مُسلحة وموالية للثورة بحماية الساحة من قوّات النِظام.

* * *

دعاءٌ يتردد في الطُرُقات ..
وروح البردّوني تطوف المكان



بعد فراغنا مساء يوم الخميس من لقاء د.عبدالملك المتوكل.. عُدت بصحبة شوقي قبيل أذان المغرب بدقائق إلى ساحة التغيير.. وكما في ميدان التحرير المصري، تجد في كل مداخل ساحة التغيير بصنعاء شباباً يتولون مسؤولية تفتيش أي أحدٍ يرغب بدخول الساحة، للتأكد من هويته، وعدم حمله لأي أسلحة نارية أو أسلحة بيضاء.

ما يُميّز صنعاء عن بقية العواصم العربية هو الطقس.. ففي أكثر شهور الصيف سخونة تتراوح درجات الحرارة وقت الظهيرة بين ٢٥ و ٢٧ درجة.. أما في الليل فتقل درجة الحرارة غالباً لما دون العشرين.. ويسود الجو شيءٌ من لسع البرد الخفيف واللذيذ.. وهو الأمر الذي يهوّن على المعتصمين البقاء لمدة أطول في الساحات.. بخلاف بعض العواصم العربية الثائرة ـ كالقاهرة ودمشق ـ التي تصل فيها درجات الحرارة صيفاً إلى الأربعين.

كانت طُرُقات ساحة التغيير مُمتلئة بالعابرين.. ومكبرات الصوت ترج المكان، وتصدح بتلاوة القرآن وبالأدعية والأهازيج المحلية.. وقد انشغل البعض بالوضوء استعداداً

للصلاة.. وبعد دقائق رُفِع أذان المغرب بصوتٍ جميلٍ عبر مكبّرات الصوت المُمتدة من موقع المنصة الرئيسيةً أمام مدخل جامعة صنعاء، وعلى طول الكيلومترات الأربع التي تُغطّيها خيام الاعتصام في الشارع الدائري.. وبدأ الناس يفرشون السجّاد بشكلٍ متتابع على طول الطريق.. وبعد قليل أُقيمت الصلاة.. فتراصّ الناس.. وكبّر الإمام.. وتلا بعد الفاتحة بصوتٍ رخيمٍ شجيّ آياتٍ من سورة النمل تحكي قصة ثبات الأنبياء والصالحين أمام جور أقوامهم، والتذكير بأن الله هو مصدر القوّة، والملجأ عند الخوف والرجاء ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.. وفي الركعة الثانية قرأ الإمام خواتيم سورة النمل ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُون * وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.. كان الوقار يلف المكان.. والخشوع يسود الصفوف التي تمتد حتى الأفق.. في منظرٍ مهيبٍ وسط دقائق امتزج فيها الليل بالنهار، والخوف بالرجاء، والضجر من طول البقاء بالأمل بأن نصر الله قريب.

وكان جمعٌ من علماء اليمن قد أفتوا شباب الثورة بجواز أن يقوموا بجمع صلاتي الظهر والعصر.. والمغرب والعشاء.. وذلك بسبب قلّة توفر دورات المياه والانقطاع الدائم للماء.. لذلك عقِب التسليم من صلاة المغرب، أُقيمت بعد لحظاتٍ

صلاة العشاء.. وبعد الرفع من الركوع الرابع، بدء الإمام بالقنوت.. وأخذ يُطيل تسبيح الله وتعظيمه.. ثم دعا بنبرة حزينة وكأنه يُغالب البكاء أن يكتب الله لهم النصر، وأن يحتسب قتلاهم في الشهداء، وأن يُرقِّق قلوب أفراد الحرس الجمهوري ـ وهي القوات التي تحمي الرئيس ـ على إخوانهم شباب الثورة.. وكان يُردد بتأثرٍ شديد: اللهم اهدهِم وأتِ بهم.. ودعا أن يجزي الله المُعتصمين على ثباتهم لنُصرة الحق وإقامة العدل، وأن يكتبهم من المُرابطين في سبيل الله.. وكانت الحشود خلف الإمام تضج بالتأمين، وأيديهم لا تفتأ تتعالى في السماء.

* * *

بعد الصلاة.. وعلى وقع ضوءٍ خافتٍ مازال يغالب الليل.. تجولت مع شوقي في بعض طُرُقات ساحة التغيير.. فذهبنا إلى المستشفى الميداني الذي أقيم في مسجد (الجامعة الجديدة).. وتحاورنا مع بعض المصابين.. ثم ذهبنا إلى خيمة مجاورة فيها جرحى المواجهات التي حصلت بمدينة تعز (وهي المدينة التي ينتمي لها شوقي).. وكان منظر الحروق والكسور لدى بعض الشباب مؤلماً جداً، ويشي بإصاباتٍ صعبةٍ تتطلب عناية طبية فائقة قد لا تتوفر في اليمن.

بعد ذلك توجهنا إلى قُرب المنصة الرئيسية.. حيث كانت الأناشيد تصدح بشكل متواصل.. وكل حينٍ يقوم بعض السياسيين بإلقاء خطابات حماسية.. وكانت هناك مسيرات ليليّة لمجموعات من الشباب تطوف الطُرُقات، وسط خيام الاعتصام، وتهتف:

يـا الـلـه يـا ذا الـمـنّ جـنـبـنـا كـل الـفِـتـن
يـا الـلـه يـا ذا الـمـنّ احـفـظ ثـوّار الـيـمـن
يـا الـلـه يـا رحـمـن انـصـرنـا عـلـى الـطـغـيـان
اعـتـصـام اعـتـصـام حـتـى يـسـقـط الـنِـظـام

ونحن نتجوّل في أرجاء ساحة التغيير، لاحظتُ أن هناك دعاءً يتردد عبر مكبرات الصوت في كثيرٍ من المواقع والخيام داخل الساحة.. كان صوتاً شجياً ومؤثراً.. ويدعو الله أن يُنزل عِقابه وعذابه على من ظلم اليمنيين وشرَّدهم وسفك دماءهم.. سألت أحد الأصدقاء: ما قصة هذا الدعاء الذي نكاد نسمعه في كل أرجاء ساحة التغيير؟

أجابني: بأن لهذا الدعاء قصة.. فبعد المحرقة الأليمة التي صنعتها السلطة في مدينة تعز ليل الأحد ونهار الاثنين (٢٩ و ٣٠ مايو).. قررت الثورة أن تُسمي الجمعة التي تليها يوم ٣ يونيو (جمعة الوفاء لتعز).. وكان مشهد المحرقة وعشرات القتلى ومئات المُصابين قد فجع كل اليمنيين.. وكان الثوّار يلهجون بالدعاء بأن ينتقم الله من الرئيس وأعوانه على ارتكابهم لهذه المحرقة البشعة.. وبعد خطبة الجمعة التي ألقاها الشيخ زيد الشامي.. صلى بالناس صلاة الجمعة شخص آخر هو الشيخ عبدالحميد الشرعبي.. وفي آخر الصلاة قَنَت الشيخ الشرعبي بالناس، ودعا بهذا الدعاء الذي تسمعه في الساحة.. كان دعاء الشيخ الشرعبي مؤثراً جداً.. وقد ألحَّ فيه على الله أن يُنزل عِقابه على من فجع اليمنيين وارتكب هذه المحرقة.. وكانت الحشود خلفه تبكي تأثراً بما حصل، وتسأل الله أن ينتقم لهم.. ثمَّ.. ما إن فرغت الصلاة.. وبعد دقائق

فقط.. حتى حصل التفجير في المسجد الذي كان يُصلي فيه الرئيس صالح داخل قصره بمنطقة النهدين.. وأُصيب الرئيس بذات الإصابات والحروق التي ارتكبها قبل أيام فقط ضد ثوار تعز.. ووصل الخبر إلى الناس مباشرة.. فضجَّ الجميع بالتكبير والتهليل والتسبيح.. وبكى كثيرون تأثراً بما حصل.. وآمن الجميع بأن الله استجاب دعاءهم، وانتقم لهم من قاتل الأبرياء.. ومنذ ذلك الحين، يتبارك الكثيرون بدعاء الشيخ الشرعبي.. لذلك تراه يتردد في كل أرجاء ساحة التغيير.

* * *

عقِب قضاء بعض الوقت أمام المنصّة الرئيسية بساحة التغيير.. ومتابعة بعض الخِطابات الحماسية وهتافات الشباب.. دعانا شوقي للعشاء في مطعمٍ قريب يقع في أحد شوارع الساحة.. وبعد دقائق من السير على الأقدام، دخلنا إلى مطعمٍ كبيرٍ يقع في الدور الثاني، ويُطل على خيام الاعتصام.. وهو مطعمٌ متخصص بالمأكولات اليمنيّة.. وفي قائمته كثيرٌ من المأكولات التي لم أسمع بها من قبل.. وعلى طاولة مُطلة على الشارع، جلستُ مع شوقي وهاني القحطاني وشابين آخرين، وانضم لنا بعد دقائق الدكتور وسيم القرشي (هو طبيبٌ في بداية الثلاثين من عمره، ومن قيادات الشباب في تعز.. ومن أوائل من خرجوا للتظاهر والاعتصام في الليلة الأولى بمدينة تعز يوم ١١ فبراير).

أثناء تناول وجبة العشاء، سألت شوقي وهاني ووسيم عن تقديراتهم لعدد المُعتصمين في ساحة التغيير.. فقالوا لي إنه ليست هناك إحصاءات دقيقة.. ولكن تقديراتهم تتحدث عن أنه

يتواجد في الساحة بشكل يومي من الفترة قُبيل الظهر وحتى آخر المساء ما يُقارب المائة ألف.. أما من ينامون في الساحة يومياً فعددهم يُقارب العشرين ألفاً.. وطبعاً في صلوات الجمعة التي تجري بشارع الستين، تتجاوز الأعداد في كثيرٍ من الأحيان المليون إنسان.

بعد خروجنا من المطعم، ذهبت برفقة د.وسيم القرشي إلى وسط الساحة.. وجلسنا هناك نشرب الشاي في قهوة شعبية.. وسمعتُ منه قصة ما حصل في الأيام الأولى للثورة بمدينة تعز.. وكيف بدأت بالاتساع.. ثم وصولها إلى صنعاء.. ومن ثم انضمام أحزاب اللقاء المشترك وعدد من القوى السياسية الأخرى.. وسألته عن تقديراته لأحجام ونِسب مشاركة القوى والمجموعات الحزبية والمستقلة في ساحات الاعتصام (هذا السؤال.. وسؤال أعداد المعتصمين في الساحات.. كنتُ أسألهما لكل الشخصيات التي التقي بها.. بهدف الوصول إلى أرقام تقريبية من مجموع ما سمعته من تقديرات).. أيضاً سألته عن بعض التمايز في المواقف والتصورات عند بعض القوى المشاركة في الثورة.. وما أسباب عدم الاتفاق؟!

ورغم اقتراب الساعة من الحادية عشرة ليلاً.. إلا أن الشباب في المساحة المُحيطة بالمنصّة الرئيسية لم يتوقفوا عن إطلاق الهتافات.. وإشعال الألعاب النارية.. وتشكيل مسيرات شبابية تحوي العشرات، تطوف شوارع الساحة، وتردد الأهازيج اليمنية بطريقة تُسمى (زامل).. وأمام المنصّة شكّل الشباب حلقة كبيرة.. وقام البعض بأداء رقصات شعبيّة على وقع ضرب الدفوف.. وكلما انتهت مجموعة من أداء رقصات محددة، تتعالى الهتافات المُطالبة بأداء رقصات أخرى

(الحيمية.. الحارثية.. الهمدانية.. الحاشدية.. البيضانية... الخ).. حيث تعود كل رقصة إلى قبيلة من قبائل اليمن.

* * *

بسبب انقطاع الكهرباء.. ما إن يحلّ الليل على صنعاء.. حتى تغرق المدينة في بحر من الهدوء.. وفي ساحة التغيير.. تبقى المساحة المقابِلة للمنصة الرئيسية صاخبة ونشطة حتى منتصف الليل.. وأضواؤها تشتعل بمولدات الكهرباء.. أما في بقية طرقات الساحة وشوارعها.. فبمجرد ما تتجاوز الساعة التاسعة مساءً.. حتى يجتاحها الظلام.. ويسودها السكون.. وتختفي المصابيح الكهربائية.. وتظهر القناديل.. والشموع.. وتخفت الأصوات.. ويلجأ الشباب إلى الخيام.

قبل حلول مُنتصف الليل.. ودَّعت د.وسيم القرشي.. وقررت أن أتجوّل وحيداً في طُرُقات الساحة وأزقتها قبل أن أعود إلى غرفتي.. كانت جرعات الهدوء الممزوجة بلسع البرد تمنح الروح كثيراً من التسامي والطمأنينة.. ومنظر العَتَمة المُمتدة وأضواء القناديل الخافتة والمنثورة في الطرقات، تجعل الأجواء أقرب لعذوبة الشِعر منها لخشونة الثورة.. عندها تذكرت صورة رأيتها معلقة على إحدى الخيام للشاعر اليمني الكبير عبدالله البردّوني.. وكم أبدع هذا الشاعر في التعبير عن وجدان الفقراء، ووجع المسحوقين.. شعَرتُ بأن روح البردّوني لا تفتأ تطوف في المكان.. وصوت قصيدته الخالدة يتردد بلهجته اليمنيّة الصميمة في كل أرجاء ساحة التغيير.. ليُخاطب المُستبدّين.. وسرّاق المال العام.. وأصحاب النفوذ، والجاه، والسلطة:

لماذا لي الجوع والقصفُ لك؟ يُناشدني الجوع أن أسألك
وأغرس حقلي فتجنيه أنتَ وتُسكِرُ من عَرَقي مِنجلك
لماذا وفي قبضتيك الكنوز تمدُّ إلى لقمتي أنمُلك
وتقتات جوعي وتُدعى النزيه وهل أصبح اللّصُّ يوما مَلَك؟
لماذا تسود على شِقوتي؟ أجب عن سؤالي وإن أخجلك
لماذا تدوس حشاي الجريح وفيه الحنانُ الذي دلّلك
ففي أضلعي، في دمي غضبةٌ إذا عَصَفت أطفأت مِشعلك
غداً سوف تلعنُك الذكريات ويلعنُ ماضيك مُستقبلك
ويرتدُّ آخرك المستكين بآثامه يزدري أوّلك
ويستفسر الإثم: أين الأثيم؟ وكيف انتهى؟ أيُّ دربٍ سلك؟
غداً لا تقل تُبتُ.. لا تعتذر تحسَّر وكفِّن هنا مأملك
غداً لن أصفّقْ لركب الظلام سأهتف: يا فجرُ ما أجملك!

* * *

حشود مليونية تُطالب
بـ (الدولة المدنيّة الديمقراطيّة)



بعد جولة صباحية في ساحة التغيير.. التقيتُ هاني القحطاني ونادر العريقي في حدود الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الجمعة.. واتجهنا سويّاً إلى شارع الستين، حيثُ تقام صلاة الجمعة.

منذ بدأت الثورة، كانت صلاة الجمعة تُقام في نفس مكان الاعتصام (ساحة التغيير).. ولكن بعد توالي الأيام.. وازدياد أعداد المنضمّين إلى الثورة.. ضاقت ساحة التغيير ـ المُمتلئة أصلاً بخيام الاعتصام ـ عن استيعاب كل هذه الأعداد.. فقرر قادة الثورة نقل صلاة الجمعة إلى شارع الستين القريب من منطقة الاعتصام.. لكونه شارعاً كبيراً.. وفي نفس الوقت فارغ من أي خيام قد تحد من استغلال المساحة لاستيعاب الأعداد المليونية التي صارت تخرج في كل جمعة.. وأول صلاة جمعة أقيمت في شارع الستين كانت بتاريخ ٢٤ إبريل.

خلال النصف ساعة التي يستغرقها الطريق سيراً على الأقدام من ساحة التغيير وحتى شارع الستين.. إضافة إلى بعض الوقت الذي قضيناه في مطعم شعبي على الطريق..

كنت أتحدث مع هاني القحطاني ـ الذي ينتمي إلى التيار السلفي ـ عن بعض تفاصيل المشهد السلفي اليمني.. وتنوعاته.. وموقفه من الثورة.

فالتيار السلفي في اليمن شهِد منذ عقدين تباينات واضحة وانقسامات.. رغم أن التيار نشأ موحداً على يد الشيخ مقبل الوادعي بعد عودته من السعودية عقِب حادثة اقتحام جهيمان للحرم المكي.. وعلى إثر وفاة الوادعي عام ٢٠٠١م اتسع الخلاف بين مجموعتين رئيسيتين من تلامذة الشيخ ـ إضافة إلى وجود مجموعات أخرى صغيرة ـ محسوبين على التيار السلفي التقليدي، على رأس الأولى الشيخ أبو الحسن المأربي (وهو مصري يقيم في اليمن منذ زمن، وقد أسس جمعية دار الحديث بمأرب)، أما الثانية فكانت مع الشيخ يحي الحاجوري الذي يقيم في منطقة دماج بمحافظة صعدة (وهي ذات المنطقة التي كان يقيم بها مقبل الوادعي)، وقد شابَ هذه الخلافات كثيراً من التوتر والحِدة.. أما التيار السلفي الحركي، فأبرز واجهاته هي (جمعيّة الحِكمة اليمانية)، التي انفصل مؤسسوها عن خط الشيخ مقبل الوادعي عام ١٩٩٠م، وأسسوا في نفس العام هذه الجمعيّة التي تُعتبر أقرب إلى خط الشيخ المصري المقيم في الكويت عبدالرحمن عبدالخالق.. وبعد عامين فقط من تأسيس جمعيّة الحكمة.. وبسبب اختلافِ عددٍ من مؤسسيها مع بعض أفكار عبدالرحمن عبدالخالق، انشقّت مجموعة منهم عام ١٩٩٢م وأسسوا جمعيّة أخرى أسموها (جمعيّة الإحسان) تُعتبر أقرب إلى الخط السلفي الحركي السعودي (الذي يُطلق عليه اسم السروريّة).. أما التيار السلفي الجهادي في اليمن فهو يحوي مجموعات عديدة

مُختلفة («جيش عدن / أبين الإسلامي»، «كتائب جند اليمن»، «أنصار الشريعة»، «الجهاد الإسلامي في اليمن» ...الخ) بعضها مُستقل عن تنظيم القاعدة، والبعض الآخر أعلن انضمامه لهذا التنظيم.

* * *

طوال سيرنا باتجاه شارع الستين، كنّا نرى أعداداً كبيرة من الناس تأتي من كل الطرقات والأزقة، وتتجه إلى نفس الشارع.. وفي قرابة الساعة الثانية عشرة وصلنا إلى شارع الستين الذي كان مكتظاً بالحشود بشكلٍ لا تكاد تُبصر آخرها.. وكما هي عادة أيام الجمعة في اليمن ـ وفي عدد من الدول العربية الثائرة ـ يُطلَق على هذا اليوم اسمٌ يُلائم الظرف الزمني الذي تعيشه الثورة.. وقد أطلق الثوّار على هذه الجمعة ـ التي أقيمت في ١٥ يوليو / ١٤ شعبان ـ اسم (جمعة من أجل دولةٍ مدنيّةٍ ديمقراطية).

وقصة هذا الاسم تعود إلى تصريح للشيخ عبدالمجيد الزنداني ـ وهو من القيادات التقليدية لتجمّع الإصلاح ـ قاله يوم الثلاثاء ٥ يوليو في مجلسٍ شرعي دوري، ذكر فيه أنه يرفض إقامة (دولة مدنيّة) لأنه مفهوم غربي يدعو إلى علمَنَة المجتمع المسلم، وإزاحة النموذج الإسلامي في السياسة والحكم.. وأن بدل ذلك يدعو إلى إقامة دولةٍ إسلاميةٍ تقوم على الشورى.

بعد هذا التصريح للزنداني ضج الوسط الثقافي والسياسي اليمني.. وبدأت الردود والنِقاشات تتوالى حول هذا المفهوم.. وكان من أبرز من ردّ على الشيخ الزنداني الدكتور عبدالملك

المتوكل (القيادي في اللقاء المشترك) الذي قارن كلام الزنداني بوثيقة الأزهر التي كانت قد صدرت قبل أيام، وتتبنّى بوضوح قيام دولة مدنيّة ديمقراطيّة.

لذلك قرر قادة الثورة تسمية هذه الجمعة بـ (جمعة الدولة المدنيّة الديمقراطية) من أجل حسم الجدل حول موقف الثورة اليمنية من مدنيّة الدولة.. وكان من أبرز المؤيدين لتسمية هذه الجمعة بهذا الاسم قياداتٌ في تجمّع الإصلاح الذي ينتمي إليه الزنداني.

منذ أن دخلنا شارع الستين ونحن نسمع الهتافات الثورية عبر مكبّرات الصوت الممتدة على طول الشارع، والحشود لا تكف عن الترديد.. حاولنا تجاوز الصفوف، والاقتراب بقدر الإمكان من موقع الخطيب، الذي يُلقي خطبته عادة من فوق سطح (شاحنة نقل) يتم إيقافها في بداية الشارع، وتوضع عليها مكبرات الصوت، وتكون أشبه بمنبرٍ للجمعة.. وطوال عبورنا للصفوف كنت أرى كثيراً من اللافتات، بعضها مُعلّق على الجدران المحيطة بالشارع، والبعض الآخر يحمله المُصلّون الذين يفترشون أرض الشارع.. وكانت جميعها تتحدث عن أن مطلب الثورة هو تأسيس دولة مدنيّة ديمقراطيّة، تتعامل مع الناس بالعدل ودون تمييز لفئة على فئة.. ورغم اعتدال درجات الحرارة.. إلا أن سطوع الشمس جعل كثيراً من المصلين يجلبون معهم مظلاّتٍ تقيهم أشعة الشمس.. وكان هناك كثيرٌ من الشباب المتطوعين يحملون على ظهورهم خزّانات ماء بارد، وفي أيديهم خراطيم تنشر الرذاذ المُنعش على وجوه المصلين، رغبة في تخفيف الحرارة عنهم.

بعد دقائق صعد الشيخ عبدالله صعتر ـ وهو من تجمّع

الإصلاح ـ لخطبة الجمعة.. وتحدث بكلامٍ تأصيلي رائع حول مفهوم الدولة المدنيّة، وانسجامها مع الشّريعة، وأنها أساسٌ للعدل والحقوق والشورى والمساواة بين الناس.. وتحدث أيضاً عن الثورة وأهدافها وصمودها.. وحيا الشباب المُعتصمين على صبرهم ورِباطهم.. وقال كلاماً جميلاً عن وحدة الشعوب العربية.. وأن اليمنيين والخليجيين شعبٌ واحد.. وأنه يجب ألا نغضب من الشعوب بسبب قراراتٍ يتخذها الحكّام دون إرادة الناس.. وقد ختم الشيخ خطبته بدعاءٍ طويلٍ ومؤثر، يثبِّت فيه الشباب، ويدعو الله أن يُعجل بساعة النصر، وأن يقي اليمنيين إراقة الدماء.

أعتقد أن من سمع شيئاً من خُطب الجمعة التي تُنقل أسبوعيّاً عبر القنوات من شارع الستين، لعددٍ من خطباء الثورة.. سيعرف تماماً ماذا يعني الحديث عن البلاغة اليمنيّة.

وما إن أتمّ الشيخ صلاة الجمعة.. ومن بعدها صلاة العصر ـ جمعاً ـ .. حتى أقبلت جنائز بعض الثوّار الذين قضوا في مواجهاتٍ مع الأمن.. فصلى عليهم الشيخ، وحشود الناس وراءه تدعو لهم بأن يتقبلهم الله في الشهداء، وأن يُلهِم ذويهم الصبر.. وحين فرغ الشيخ من صلاة الجنازة.. اعتلى المنبر أحد قيادات الثورة.. وبدأ بما يُمكن اعتباره تقليداً ثورياً بعد كل صلاة جمعة.. حيث بدأ يهتف في الحشود.. ومئات الآلاف يهتفون خلفه بصوتٍ واحدٍ مجلجل.. وبعد قليلٍ طلب منهم أن يرفعوا أصبع السبّابة عالياً في السماء.. ففعلت الحشود ذلك بتناغمٍ وانسجامٍ كبيرين.. ثم بدأت هتافات الرجاء والتضرّع إلى الله أن يكتبَ لهم النصر والتمكين.. وأن يُعجِّل ساعة الحسم.. وبعد لحظاتٍ طلب خطيب المنصة من

الحشود أن يفردوا أكفّهم ويرفعوها إلى السماء.. وهنا فعلت الحشود ذلك، وأخذت تُردد هتافات العهد والميثاق بأن يُكملوا الثورة مهما كانت التضحيات.. ثم طلب الخطيب منهم أن يقوموا بتشبيك اليدين ورفعهما عالياً.. وهنا بدأت هتافات الثبات والصمود والتحدي لفلول النظام وأركانه.. كلُ ذلك كان يتم خلال دقائق بقدرٍ عالٍ من الانضباط.. وكأنك أمام فرقة عسكرية خَضَعت لتدريبات دقيقة وصارمة.

كانت الهتافات التي لم تتوقف في شارع الستين منذ وقت الضُحى، وحتى بعد الصلاة بساعة، تهتم بالاسم المُعلن لكل جمعة.. فمع ترديد عددٍ من الشعارات الثورية المعتادة.. كان الهتاف لـ (الدولة المدنية) حاضراً طوال اليوم:

ثورتنا عزّة وحُرية .. ودولتنا دولة مدنيّة

الشعب .. يُريد .. دولة مدنية

الشعب .. يُريد .. الجيش يحمي الثورة

اعتصام اعتصام .. كي يُحاكم النظام

وبعد جولة من الهتافات.. اعتلى المنبر مرّة أخرى خطيب الجمعة الشيخ عبدالله صعتر.. وحكا للناس بعضاً من مُعاناة إخوانهم النازحين في مُحافظة أبين.. وطلب منهم التبرّع لهم بالمظلات التي أحضروها معهم.. وحثّهم الشيخ على البذل.. ثم قال: أنا أول المتبرعين.. فمن أراد أن يتبرّع بمظلته فليرفعها.. وهنا رُفِعت بلحظةٍ عشرات الآلاف من المظلّات.. ثم بدأ كل شخصٍ يُعطي مظلّته لمن يقف أمامه.. فصرنا نرى زحف جيشٍ من المظلّات إلى المنصّة الأمامية.

وبخصوص ما حصل في محافظة أبين.. فكنتُ قد ذكرتُ أن في الجيش اليمني خمس فِرق عسكرية.. أربعاً منها موالية للثورة.. وفرقة واحدة مازالت موالية للرئيس.. هذه الفرقة الأخيرة هي التي تُسيطر على محافظة أبين الواقعة بقرب عدن في اليمن الجنوبي، وعاصمتها زنجبار.

قامت هذه الفرقة الموالية للرئيس ـ بحسب ما ذكره بعض المحللين ـ بتسهيل سيطرة مُسلحين ينتمون لتنظيم جهادي مُقرّب من القاعدة اسمه (أنصار الشريعة) على بعض مُدن وقرى مُحافظة أبين.. وكان هذا الفعل من ضِمن الإستراتيجية التي اتبعها الرئيس علي عبدالله صالح منذ بدأت الثورة.. وذلك عبر تخويف الغرب من انتشار تنظيم القاعدة.. من أجل توصيل رسالةٍ مفادها: أنه هو الضمانة الوحيدة لضرب التيارات الجهادية في اليمن.

وبعد سيطرة أنصار الشريعة على أجزاءٍ من مُحافظة أبين، نشبت عدة مواجهات عسكرية بين هذا التنظيم وكتائب من الجيش رفضت تسهيل مهمة المسلحين، وقررت مواجهتهم.. ونتج عن هذه المواجهات نزوح أكثر من خمسين ألف أسرة (قرابة المئتي ألف) إلى مُخيمات في العراء تفتقر إلى أبسط الاحتياجات الإنسانية.

بعد دقائق من اكتمال تجميع المظلّات.. بدأت الحشود تتحرّك كأمواجٍ بشرية ضخمة باتجاه ساحة التغيير.. فيما اتجهتُ مع هانيٍ ونادر إلى منزل الصديق شوقي القاضي الذي كان قد دعانا لتناول طعام الغداء.

وفي الطريق أخبرني هاني عن أن الحشود الضخمة التي

رأيتها في شارع الستين تُعتبر الآن نِصف ما كان يأتي سابقاً في بدايات الثورة.. والسبب في ذلك ليس قلة الحماس بالطبع.. بل بسبب انقطاع البنزين.. حيث بات لا يستطيع القدوم للصلاة في شارع الستين سوى من يسكنُ في مكانٍ يستطيع معه أن يأتي سيراً على الأقدام.. أما من يُقيمون في مناطق بعيدة.. فقد تعذّر على كثيرٍ منهم المُشاركة مع حشود الثورة في صلاة الجمعة، بسبب توقف غالب وسائل المواصلات.

* * *

هل ما يجري في اليمن ثورة سِلميّة؟

بالطبع هي ثورة سلميّة.. بل هي من أكثر الثورات العربيّة سلميّةً وإبهاراً من ناحية كثافة توفر السلاح عند الناس (أكثر من ستين مليون قطعة سلاح في اليمن).. وشدة بطش السُلطة وقتلها للمتظاهرين.. ومع ذلك حافظت الحشود الثورية على أقصى درجات ضبط النفس، وعدم الانجرار لرفع السلاح.

لماذا إذن هذا السؤال؟.. كان القصد من هذا السؤال هو إبراز أن الوضع في اليمن له وضعية خاصة لم تتكرر في الثورات العربية.. فرغم سلميّة الثورة منذ بداياتها.. إلا أن هناك قطاعاتٍ عسكريةً وقبليّةً مُسلّحةً باتت مواليةً للثورة.. وتقوم بدور الحِماية لبعض ساحات الاعتصام.

فمثلاً في صنعاء.. تبدو العاصمة مُنقسمة إلى شطرين.. أحدهما تُسيطر عليه القوات الموالية للرئيس (وفيه يقع القصر الرئاسي، ومقر رئاسة الوزراء، وعددٌ من الوزارات والمرافق الحكومية، والمطار، وسوى ذلك).. والشطر الآخر تُسيطر عليه

قوات الفرقة الأولى المدرّعة الموالية للثورة (وهي فرقة الجيش المُكلفة أساساً بحماية صنعاء) التي يقودها اللواء عليّ محسن الأحمر.. وتقوم هذه الفرقة بالسيطرة على أجزاء واسعة من العاصمة، من ضمنها مركز الاعتصام والثورة (ساحة التغيير).. لذلك، ومنذ أن انحازت الفرقة الأولى للثورة بعد مجزرة جمعة الكرامة في ١٨ مارس.. لم تعد قوات الحرس الجمهوري الموالية للرئيس تستطيع الوصول إلى ساحة التغيير، لأنها لو حاولت الوصول، فستواجه أولاً قوات الفرقة الأولى المدرعة.

وطبعاً هذا لا ينفي حصول بعض المواجهات والقتل في ساحة التغيير، عن طريق بلاطِجة وقنّاصة موالين للنظام، يستطيعون الوصول إلى الساحة باعتبارهم مدنيين.. ولكن لا تستطيع قوات عسكرية موالية للرئيس أن تصل إلى حدود الساحة.

أما المجازر التي حصلت بعد ذلك في صنعاء.. ففي غالبها تتم ضدّ مسيرات احتجاجية تنطلق من ساحة التغيير، وتسير باتجاه القصر الرئاسي أو مقر رئاسة الوزراء.. أي أنها تصل إلى المناطق التي تُسيطر عليها القوات الموالية للرئيس.

وبالطبع ليست كل ساحات الاعتصام في محافظات اليمن محميّة بقوات عسكرية موالية للثورة.. بل بعض الساحات مازالت مكشوفةً ومُعرّضة لقمع قوات عسكرية موالية للنظام.. ففي تعز مثلاً، ورغم وجود قوات من أبناء القبائل تقوم بحِماية ساحة الحرية ـ أتت بعد محرقة تعز الشهيرة .. إلا أن منطقة الساحة مازالت عُرضة لتدخلات دائمة ومواجهات ترتكبها قوات النظام.

أيضاً من يتابع أخبار الثورة في اليمن، يسمع باستمرار عن المواجهات الدائمة في منطقة (أرحب).. وهي منطقة جبليّة يسكنها أبناء القبائل، وتقع شمال العاصمة صنعاء.. وفي أرحب يوجد أكبر معسكر لقوات الحرس الجمهوري، يُسمى معسكر (الصمع).. وقبل بضعة أشهر (تحديداً في منتصف شهر مايو) حاولت قوات الحرس الجمهوري المُتمركزة في معسكر الصمع أن تزحف باتجاه ساحة التغيير بوسط صنعاء لقمع المُعتصمين.. عندها تدخلت قبائل أرحب (وغالبها من فروع قبيلة بكيل)، وقامت بعمل درع بشري أمام مدخل معسكر الصمع.. وقالوا للحرس الجمهوري إن الشباب المعتصمين في ساحة التغيير هم أبناؤنا.. وأننا لن ندعكم تخرجون لقمعهم سوى بعد أن تعبروا على جُثثنا.. هنا تراجعت قوات الحرس الجمهوري عن الخروج من المُعسكر لبضعة أيام.. وبقي الدرع البشري السلمي معتصماً أمام مدخل معسكر الصمع.. ولكن بعد مرور أكثر من أسبوع، قررت قوات الحرس الجمهوري أن تفضّ هذا الدرع البشري، وأن تخرج من المعسكر.. فبدأت بمواجهة أبناء القبائل المُعتصمين أمام مدخل المعسكر.. وقتلت وجرحت منهم الكثير.. عندها قررت قبائل أرحب أن ترفع السلاح وتواجه قوات الحرس الجمهوري.. ومنذ ذلك الوقت، والمواجهات المُسلحة في منطقة أرحب لا تكاد تتوقف بين أبناء القبائل، وقوات الحرس الجمهوري التي لم تستطع حتى الآن مُغادرة المنطقة.

* * *

في منزل الأستاذ شوقي القاضي، جلسنا على مائدة العامرة، بصحبة هاني القحطاني، ونادر العريقي، وفؤاد

الحِميري، وعدد آخر من الشباب اليمني.. دارت أحاديث عديدة حول ما يجري في اليمن، وسألتُ الشباب عن عددٍ من تفاصيل يوميات الثورة في ساحة التغيير.. وبعد جولة من الحديث والحوار.. قلتُ لهم ضاحكاً: دعوني أسألكم عن قصة القات في اليمن.. فمن كان بمثل حالتي، يزور اليمن لأول مرة، يلحظ أن منظر تخزين الناس للقات لافت جداً ومُفاجئ.. خاصة في فترات الظهيرة بعد تناول وجبة الغداء، حيثُ لا تكاد ترى في كل مكانٍ ـ وحتى وسط ساحة التغيير ـ سوى الأفواه المتورّمة في أحد جانبيها بفعل تخزين القات.

وهنا بدأت التعليقات الطريفة من الشباب.. فأحدهم قال لي إن مُشكلتكم أنكم حكمتم على القات دون أن تجربوه.. ثم أضاف بِمكر: ما رأيك أن تجرّب أولاً ثم تحكم عليه بنفسك.. خاصة أنك تعرف أن الحُكم على الشيء فرعٌ عن تصوره.. أجبته ضاحكاً: (لا يا رجل.. مش ناقصين مشاكل الله يرضى عليك).. ثم قلتُ له: إنني أحكم على القات دون أن أجربه بمثل ما تحكم أنت على الحشيش والهروين ـ مثلاً ـ دون أن تُجرِّبه.. وهنا رويتُ لهم قصة كتبها مرة د.حمد الماجد في جريدة الشرق الأوسط ـ بعد التأكيد مراراً على أنها قصّة مع الفارق :) ـ .. حيث حكا أنه رأى مرة على إحدى المنصّات في حديقة الهايدبارك اللندنية الشهيرة رجلاً يتكلم عن الشذوذ الجنسي، ويدعو له.. يقول د.حمد فبدأتُ بمحاورته، وقمتُ أطرح عليه بعض الحجج العقلية، ولماذا حرّمته جميع الأديان، وأستعرض له الأمراض التي قد تُصيب الشاذين جنسيّاً، وسوى ذلك.. يقول: وكان الرجل يستمع إليّ وهو في غاية الإنصات.. وعندما فرغت من كلامي.. التفت

إليّ وقال: سأسألك سؤالاً واحداً.. قلت له: بالطبع، تفضل.. فقال لي: هل جربت؟.. يقول د.حمد: هنا فوجئتُ بالسؤال.. وقلت له: لا طبعاً.. فرد عليّ: وكيف تحكم على أمرٍ لم تُجربه؟!

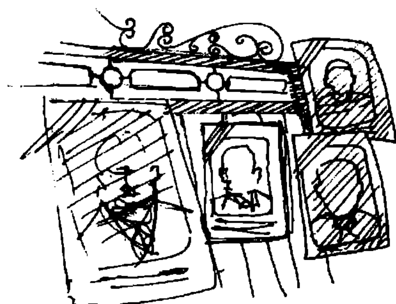
حينئذٍ قلتُ لصاحبي ساخراً: إنني أخشى أن منطِقك في لزوم أن تجرّب بنفسك كل شيء قبل أن تحكم عليه، سيوقعك يوماً في ورطة.

بعدها استمرت التعليقات الطريفة.. فأحدهم صار يقول: (إنما القاعِدةُ عِندنا أن القات لما خُزِّن له).. أما الآخر فقال: (القات عندنا تجري عليه الأحكام الخمسة.. فهو مُحرمٌ وقت العمل في الصباح.. ومكروهٌ أول الظهر.. ومُستحبٌ بعد الغداء.. ومُباح فيما وراء ذلك).. وأضاف ثالث: (قال بعضُ الشباب لطبيبٍ مشهور: يا دكتور حدثنا عن مضار القات.. فأجابهم: هذه قصة طويلة، تحتاج إلى جلسة وحزمة قات).. وفي آخر الجلسة، وقبل أن نعود مُجدداً إلى ساحة التغيير، قال لي أحدهم بمكر: (صدقني يا نواف.. لن تكتشف الثورة الحقيقية سوى بعد جلسة تخزين).. عندها قلتُ لهم مازحاً: بصراحة أنا لا أرى حلاً للقات في اليمن سوى أن يأتي لكم حاكمٌ ويصنع مع مخزّني القات كما صَنَع ماو تسي تونغ مع مُتعاطي الأفيون في الصين.. ثم أضفت: ولن أقول لكم ماذا فعل ماو.. ولكنني أطلبُ منكم ألا تبحثوا عمّا فعله مع متعاطي الأفيون سوى بعد مُغادرتي لليمن.

* * *

بعد منتصف الليل ..

على الرصيف تحت ضوء الشموع



في حدود الساعة الرابعة والنصف من عصرِ يوم الجمعة، توجهتُ برفقة فؤاد الحميري للقاء الأستاذ محمد قحطان ـ وهو الناطق الرسمي باسم اللقاء المشترك ـ وسط خيمته في ساحة التغيير.

حين التقيتُ بفؤاد الحِميري في منزل الصديق شوقي القاضي، لم أكن قد سمعتُ به من قبل.. وقد بدا شاباً نحيل الجسم، في حدود الثلاثين من عمره.. ولكن بعد ذهابي معه إلى ساحة التغيير، ومرورنا على عددٍ من نقاط التفتيش عند مداخل الساحة، لاحظتُ أمراً لافتاً.. حيثُ لا أكاد أمرُّ مع فؤاد على جمعٍ من الشباب المسؤولين عن إدارة بعض مرافق الساحة، إلا ويقومون بالسلام عليه باحتفاء.. وفي نقاط التفتيش، كانوا بمُجرد ما يرونه، يدعوننا للدخول دون تفتيش.. عندها قلت له باندهاش: ياعم فؤاد ما قصة كل هذه العلاقات وهذا الاحتفاء؟!

بعد ذلك عرفت أن فؤاد الحميري هو أحد ألمع شباب ساحة التغيير وأكثرهم شُهرة.. وهو بمعزل عن كونه شاعراً بليغاً ومعروفاً (يُسمى شاعر الثورة)، وناشطاً سياسيّاً بارزاً.. كان فؤاد هو الخطيب في أشهر جمعةٍ مرّت في تاريخ الثورة اليمنيّة (جمعة الكرامة ١٨

مارس)، والتي شهدت أول وأكبر مجزرةٍ تعرضت لها الثورة في العاصمة صنعاء.. وعلى إثرها انضمّت قطاعات كبيرة من النِظام والجيش إلى صف الثورة (وفي مقدمتهم الفرقة الأولى التي يقودها اللواء علي محسن الأحمر).. لذلك يُعدّ هذا الشاب النحيل (فؤاد الحميري) من أشهر خُطباء الثورة، إن لم يكن أشهرهم.. ومن يستمع إلى خطبته في جمعة الكرامة (موجودة كاملة على موقع اليوتيوب) سيعرف تماماً أيُ بلاغةٍ وفصاحة يملكها هذا الشاب.. وقد خطب فؤاد الحِميري في حشود الثورة مرة أخرى يوم ٩ سبتمبر في جمعة (نصرٌ من الله وفتحٌ قريب)، وهي موجودة أيضاً في النت.

وبسبب النشاط السياسي وحضوره اللافت منذ بداية الثورة اليمنية.. صار فؤاد الحميري من أهم المطلوبين أمنيّاً للنظام.. لذلك ـ ومنذ جمعة الكرامة ـ هو لا يُغادر ساحة التغيير والمناطق الخاضعة لسيطرة القوات الموالية للثورة.. حتى لا تتعرض له قوات النظام بالقتل أو الاعتقال.

في حدود الساعة الخامسة وبضع دقائق، وفي خيمةٍ متواضعةٍ وسط ساحة التغيير، التقيت الأستاذ محمد قحطان، الناطق الرسمي باسم اللقاء المشترك، والمُنتمي لتجمّع الإصلاح.. وبالطبع شاركنا اللقاء فؤاد الحميري، إضافة للحقوقي خالد الآنسي.. ودار حوارٌ حول عددٍ من القضايا، من أهمها: تقييمه للموقفين السعودي والأمريكي من الثورة.. خاصة أن الشارع الثوري في اليمن لا يكف الحديث عن السعودية تحديداً باعتبارها الطرف الذي يستطيع حسم الموقف مع الرئيس اليمني وإجباره على التنحي.. بل اتضح لي أن كثيراً من اليمنيين يشعرون بأن اليمن أشبه بمُستعمرة سعودية.. وأن القرار الأخير فيما يخص

نظام الرئيس صالح يُتخذ في الرياض.. وهو ما أدّى إلى ظهور موجة غضب من الموقف السعودي تجاه الثورة.

وقد بدا لي بوضوح تباين الموقف تجاه السعودية تحديداً بين فصائل الثورة.. ففيما تُبدي كثيرٌ من فصائل الثورة والمجموعات الشبابية امتعاضها الشديد من الموقف السعودي.. يقوم اللقاء المشترك ـ وتجمع الإصلاح بشكل خاص ـ بالتعامل الدبلوماسي الودود، الذي يحمل رغبة بعدم توتير العلاقة مع الجار السعودي.

أيضاً سألتُ محمد قحطان عن شيءٍ من الخلافات التي بدت واضحة في ساحة التغيير بين قوى الشباب من جهة، وأحزاب اللقاء المشترك من جهة أخرى، وذلك حول عددٍ من الملفات، في مقدمتها موضوع الرغبة في التصعيد الثوري الميداني تجاه النظام.. وهو الأمر الذي لا تُحبّذه أحزاب اللقاء المشترك، لمعرفتها بحجم الدماء التي ستنزف في هذا التصعيد.. لذا هي تميل إلى إيجاد حلٍ سياسي.

وفي حدود الساعة السادسة من مساء الجمعة شكرتُ الأستاذ محمد قحطان على لُطفه.. ومضيتُ بصحبة فؤاد الحميري للتجول في ساحة التغيير.

* * *

من ضمن الأسئلة التي كنتُ أسألها لغالبِ من ألتقيهم.. عن التوزيع المذهبي في اليمن.. من ناحية التواجد في المحافظات من جهة.. وعن النِسب العددية من ناحية أخرى.. وتحديداً عن نِسبة المُنتمين للمذهبين الزيدي والشافعي.. خاصةً أن اليمن كانت خاضعةً لأكثر من ألف عام لحُكم أئمةٍ من المذهب الزيدي.. وكان ذلك يُوحي للكثيرين بأن غَالبية أهَل اليمن مُنتمون إلى هذا المذهب.

ولكن ما فاجأني، واتفق عليه كل من سألتهم - من أبناء المذهبين - أن نسبة المُنتمين إلى المذهب الزيدي في الجمهورية اليمنيّة بشقيها الشمالي والجنوبي لا يقل عن ٢٠٪، ولا يزيد على ٣٠٪ .. ويتواجدون في المُحافظات الشمالية من اليمن الشمالي.. أما غالب المُحافظات الجنوبية لليمن الشمالي، وكامل سكان اليمن الجنوبي، فهم شافعية المذهب.. علماً أن اليمن يحظى بميزة تتمثل بأن الحضور المذهبي في الصراع الديني والسياسي محدود جداً، ولا يترتب على هذا الاختلاف المذهبي أي تمايز اجتماعي أو ثقافي أو سياسي.. حتى إن بعضاً من أهمّ عُلماء المذهب الزيدي - كالشوكاني والصنعاني - نجد أن لكُتبهم واختياراتهم حضورٌ كبير عند العلماء وطلبة العلم في الوسط السني.

* * *

قرر فؤاد الحميري أن يأخذني في جولة على كل شوارع وأزقة ساحة التغيير، من أقصاها إلى أقصاها.. مررنا خلالها على كثيرٍ من المواقع التي شهِدت مواجهاتٍ في بدايات الثورة، ومجازر، وأبنية كان يتمركز فيها قناصةٌ موالون للنظام.. وفي هذه الجولة - التي تخللتها صلاتي المغرب والعِشاء جمعاً - حرصتُ على أن أسأل فؤاد عن كل ما يخص تشكيلات الشباب في الساحة، وتباين أفكارهم، وطبيعة مواقفهم من الأحزاب.. وكنّا كل حينٍ نمرُّ على خيمةٍ تعود إلى مجموعةٍ شبابيةٍ مُشاركةٍ في الثورة (من مثل: التحالف المدني للثورة الشبابية.. اتحاد شباب الثورة.. ائتلاف ثورة التغيير السلمي.. شباب التنمية والتجديد ...الخ)، ويقوم فؤاد بالحديث عن هذه المجموعة وطبيعة تكوينها، وربما قابلنا على مدخل الخيمة بعض أفرادها.. أيضاً

مررنا على مقرّ (المُنسقية العليا للثورة اليمنية) التي تُمثل أكبر تكتل للمجموعات الشبابية الناشطة في الساحة.. وفؤاد الحِميري هو الناطق الرسمي باسم هذه المنسقيّة.

من يتجوّل في مسارب ساحة التغيير، ويقترب من الأحاديث التي تدور في شوارعها الخلفيّة.. يلمس بوضوح أن هناك شيئاً من التوتر يشوب العلاقة بين إطارين مُهمين مُشاركين في الثورة، هما (المجموعات الشبابيّة المُستقلّة) و(أحزاب اللقاء المشترك).. حيث يرغب الشباب بمزيدٍ من التصعيد الثوري لحسم المعركة، ولو تخلل ذلك ارتفاعٌ في أعداد الضحايا.. فيما يُفضّل اللقاء المشترك أن يتمّ الحسم عبر حلٍ سياسي بدل سفك الكثير من الدماء.. من جانبهم يرى الشبابُ أن أحزاب اللقاء المشترك لا ترغب في التغيير الجذري للنظام.. لأن بعض قادتها كانوا جزءاً من هذه السُلطة في السابق.. لذا هم يرغبون فقط في تنحي الرئيس، ومن ثمّ القيام بترتيبات المرحلة الانتقالية بعد تولي نائب الرئيس ـ مؤقتاً ـ لمهام الرئاسة.. فيما تُريد المجموعات الشبابية المُستقلّة إسقاطاً كاملاً لكل أركان النظام.

أيضاً يشعر الشباب بأن أحزب اللقاء المشترك ـ الذي يمثل أفرادها قرابة الـ ٦٠٪ من المشاركين في الساحة ـ هم من يُديرون ساحات الاعتصام، وهم أصحاب القرار في المنصة الرئيسية الموجودة بساحة التغيير.. لذلك قررت بعض المجموعات الشبابية المُستقلة أن تقوم بوضع منصّة أخرى تكون خاصة بهم.. ولكن إدارة الساحة ـ المكوّنة من مُمثلين لغالب التشكيلات ـ رفضت ذلك.. حتى لا يكون هذا الفِعل مدخلاً لتفرّق صوت المُعارضة.. خاصة أن ذلك قد يفتح الباب كي يُطالب كل فصيلٍ بأن تكون له منصّة خاصة.

وفي تلك الليلة ـ ليلة السبت ـ رأيتُ مسيرةً لشبابٍ من المجموعات المُستقلة.. تدور في أرجاء ساحة التغيير.. وتُردد هتافاً يحمل تلميحاً لأحزاب اللقاء المُشترك:

ثورتنا ثورة شباب   لا حزبية ولا أحزاب

وبعد قليلٍ بدأت مسيرة أخرى لمجموعاتٍ من الشباب المُنتمين لأحزاب اللقاء المشترك ـ وتجمّع الإصلاح بشكل خاص ـ تطوف هي أيضاً ساحة التغيير، وتهتف:

ثورتنا ثورة شباب   تدعمنا فيها الأحزاب

ثم هتف الشباب المُنتمون لأحزاب اللقاء المشترك بما يوصل رسالة إلى الشباب المستقلّين بوجوب الصبر، وخطر الانجرار إلى تقسيم الساحة حزبيّاً ومناطقيّاً وقبليّاً:

يا شباب الصبر والله معاكم   لا لشق الصف والعنصرية
وساحة التغيير بتحقق هدفها   للعقول الفاهمة والذكية

ومن تابع خطابات الرئيس علي عبدالله صالح، سيجد بوضوح كيف كان يهدف إلى التودد ومخاطبة (شباب الثورة) كما لو كان قريباً منهم.. وفي نفس الوقت التحذير من أحزاب اللقاء المشترك التي وصفها بأنها خطفت ثورة الشباب. . وذلك في مُحاولةٍ لشق صف الثورة، وضرب أسفين بين الأحزاب والمجموعات الشبابية المُستقلة.. ولكن بالطبع كان كلا الطرفين (الشباب والأحزاب) واعياً لمقاصد السُلطة.

في قرابة الساعة الثامنة والنصف حضرنا شطراً من الندوة السياسية التي تُعقد كل ثلاثاء وجمعة على المنصّة الرئيسية في الساحة.. وتشهد عادة حضوراً كبيراً.. وكان الحديث يدور بين

سياسيين ينتمون إلى أحزاب مُختلفة عن مُستقبل اليمن بعد الثورة، وإشكالات التنمية المُعاقة في المُحافظات.

بعد قليلٍ ودعني الصديق فؤاد الحميري الذي كان مرتبطاً بحضور اجتماعٍ لقوى الشباب يُعقد في التاسعة مساءً.. وبقيتُ وسط الساحة بانتظار صديق آخر سيأتي قرابة الساعة التاسعة والنصف.. وخلال فترة الانتظار.. ذهبتُ إلى كشكٍ وسط الساحة يبيع صحفاً ومجلات.. واشتريتُ منه نسخةً من كل الصحف المحسوبة على المعارضة.. وهي تزيد على عشرة صحف.. غالبها ينتمي لاتجاهاتٍ فكريةٍ وحزبيةٍ معروفة، وبعضها مُستقل.. أخذتُ هذه الصحف.. وطلبتُ كوب شايٍ من طاولة صغيرة تقع بقرب كشك الصحف، وقد كتب صاحبها عليها (شاي الأحرار.. ذوق وكيف للثوار).. وجلستُ على رصيفٍ قريبٍ من وسط الساحة.. وأخذتُ أتصفّح وأقرأ فيما كان معي من صُحُف.

وبعد أزيد من نصف ساعةٍ جاءني الصديق عبدالعزيز السقّاف.. وهو شابٌ في منتصف الثلاثين.. ينتسب لأسرة من الأشراف تنتمي إلى اليمن الجنوبي.. وقد نشأ عبدالعزيز قريباً من الأوساط السلفيّة.. ودرس وعمل في العراق والسعودية لبضع سنواتٍ قبل أن يعود إلى اليمن..

وهو من تواصل معي قبل قرابة العامين ـ عبر الإيميل ـ يطلب الإذن بطباعة كتاب أشواق الحرية في اليمن.. وبعد ذلك جرت بيننا بعض المراسلات.. والآن ألتقيه لأول مرة.

تجولت برفقة عبدالعزيز مرة أخرى في شوارع ساحة التغيير.. ثم حضرنا ندوة كانت قائمة في خيمة «المنتدى السياسي» بعنوان: (قناة الجزيرة ومدى تأثيرها في الثورات

العربية بين الشعوب والأنظمة)، وكانت تشهد نقاشاً حاداً بين الضيوف والحضور عن دور قناة الجزيرة في الثورات، ولماذا هي تُقلل من حجم تغطيتها لثوراتٍ، فيما تتابع كل دقائق ثوراتٍ أخرى.. وعن سياسة قطر ودوافعها من دعم الثورات.. وسوى ذلك من موضوعاتٍ تكاد تتكرر في كل مرة يدور فيها الحديث عن قناة الجزيرة.

وبعد نصفِ ساعةٍ من أجواء السجال الصاخبة عن دور قناة الجزيرة.. دعاني الصديق عبدالعزيز لمطعمٍ يقدِّم وجباتٍ يمنية تقليدية.. وفي طاولة قصيّة جلسنا.. وتناولنا عدة أطباقٍ محليةٍ، على ضوء الشموع وقناديل الغاز.

وقريباً من منتصف الليل.. بعد أن خَلَد الجميع للنوم.. وساد السكون في طُرُقات الساحة وأزقّتها.. ودّعتُ عبدالعزيز السقاف.. وقررتُ أن أتجول وحيداً وسط العتمة التي غلّفت كل أرجاء ساحة التغيير.. سوى من بضع قناديل مُضاءة ومنثورة هنا وهناك.. ووسط لسع البرد.. جلستُ على رصيفٍ وسط ساحة الاعتصام.. وفتحتُ جهاز الآيفون.. وبدأت أكتب:

* * *

هذه ليست ساحة اعتصام.. هذه ساحةٌ للشِعر، والخيال، ومُطاردة الحُلُم.

وهذا ليس ميدان ثورة.. بل هي أرضٌ تصنعُ من النِضال، والدم، لحناً عذباً مليئاً بالشجن.

هذه ساحة التغيير.. قلب صنعاء الذي لا يكفُّ عن الخَفَقان.. ونبضها المُشبع بكثيرٍ من الطموح والإصرار.

هنا الوطن الذي قرر فيه الشباب أن يصنعوا ثورة.. وأن يقتلعوا بأيديهم غابات الشوك التي زرعها الأوغاد منذ عقود.. وأن يقطعوا شرايين الجسد.. كي يسقوا بدمائهم جذور الأمل، وأشجار البنفسج واللوز، وجذوع السنديان.

هنا اليمن الذي أشقاه الفقر والظُلم.. فقرر فيه الشباب أن يعود سعيداً.

* * *

كان موعد رحلتي التي ستُقلع من صنعاء إلى القاهرة في الساعة الواحدة من ظهر يوم السبت ١٦ يوليو.. قال لي الصديق شوقي القاضي إنه سيمرُّ عليَّ قرابة الساعة الثامنة صباحاً، كي نذهب في جولة بالسيارة على بعضٍ أرجاء صنعاء التي لم أرها.

وفي الساعة الثامنة.. ركبتُ مع شوقي.. واتجهنا إلى بعضٍ من نواحي العاصمة.. رأيتُ عدداً من خطوط التماس، والمَفَارِز العسكريّة الفاصلة بين مناطق الطرفين.. ثم دخلنا إلى المناطق التي تسيطر عليها القوات الموالية للرئيس.. وذهبنا إلى (ميدان التحرير) الواقع وسط المنطقة التجارية، الذي ملأته السلطة قبل بداية الثورة بخيام بلاطجةٍ موالين لها.. ثم مررنا على شارع السبعين وميدان السبعين الذي يحشد فيه الرئيس أنصاره في كل جمعة (فيما كانت المُعارضة تقيمُ البارحة جُمعة «الدولة المدنيّة الديمقراطية».. كان الموالون للرئيس يُقيمون جُمعة «العِرفان والامتنان لخادم الحرمين الشريفين»، في محاولةٍ دائمةٍ من الرئيس صالح لزج السعودية كطرف في الصراع).. ورأيتُ مواقع القصر الرئاسي، ورئاسة

الوزراء، وبعضاً من مرافق الدولة.. ومررنا أيضاً على مسجدٍ ضخم جدّاً بناه الرئيس قبل أعوامٍ، وأسماه باسمه (مسجد الصالح).. ويُشكل هذا المسجدُ جزءاً من حالة الترميز والنرجسيّة المُتضخمة التي أصابت الرئيس في العقد الأخير، وجعلته يبني أفخم المباني والمواقع ويُسمّيها باسمه.

أيضاً مررنا على حيّ الحَصَبَة، الذي يحوي قصر صادق الأحمر وبعض إخوته.. وهو موقعٌ مليءٌ بالتحصينات ومقاتلي القبائلِ.. حيث تشهدُ هذه المنطقة دوماً معارك عنيفة، وقصفاً متبادلاً، بين مواقع الأحمر، ومعسكرات الحرس الجمهوري الواقعة في جبلي نقم والنهدين.

تبدو صنعاء ـ كما ذكرت ـ وكأنها بيروت وسط الحرب الأهلية.. مُمتلِئة بالحواجز، وخطوط التماس، والمناطق الفاصلة، والكانتونات المُغلقة، والمُربعات الأمنيّة.. ولكنها كانت موعودةً بفجرٍ جديد.. فجر الدولة المدنيّة الديمقراطية.. التي تعلو فيها قيم العدل.. وتتساوى فيها الحقوق.. وترجع فيها الإرادة للأمة.

في ساحات التغيير، سفك اليمنيّون دماءهم وأرواحهم من أجل قيام (الدولة العادلة).. ورابط الشباب شهوراً في مواقع الاعتصام سعياً وراء الحُلُم بمستقبلٍ حُرٍ يصنعونه بأيديهم.. وقابل الأحرار القذائف والرصاص بصدورٍ عارية ملؤها الإيمان، والعزيمة.. فصنعوا ثورةً سلميّةً أبهرت العالم.

في الحادية عشرة صباحاً.. وبقُرب بوابة المطار.. ودّعتُ صديقي العزيز شوقي القاضي.. وشكرته كثيراً على لطفه وكَرَمه.. وتوجهت إلى صالة المُغادرين.. عائداً إلى القاهرة.

دراســـة

الإسلاميون وربيع الثورات
المُمارسة المُنتجة للأفكار

مدخل ،، تأمُّلات في الحالة الثوريّة

يبدو أن الإرباك الفكري الذي أحدثته الثورات العربية لا يقل عن الإرباك السياسي.. فمئات الأطروحات الفكريّة والفلسفيّة والسياسيّة التي تحدثت على امتدادِ عقودٍ عن التغيير، وأسباب التقدم، ومعيقات النهضة، ومأزق التحول الديمقراطي، وإشكالية البُنى الاجتماعية القابلة للاستبداد، أخفقت في التنبؤ بحدوث مثل هذا السيناريو.. وإذا كانت مفردة (ثورة) لا تنطبق إلا على الثورات التي يكون هدفها (الحُريّة) كما قرر الفيلسوف الفرنسي كوندورسيه.. فإن فكرة الثورة من أجل الحُريّة والديمقراطية (أي ليست ثورات خُبز، أو ثوراتٍ طبقيّة بالمعنى الماركسي) ظلّت دوماً خارج الفضاء التداولي للأطروحات التي درست الواقع العربي واستشرفت مستقبله.. ولم يتوقعها حتى أكثر المُفكرين راديكاليّة.

وإذا كانت بعض الدراسات الحديثة والمقالات التي علّقت على الثورات العربية قد تبنّت نظريّة لينين بأنه لا يُمكن أن تنشأ ثورة في بلدٍ لم يكن يعيش (حالة ثوريّة).. فهذا يُعيدنا إلى التساؤل عن السبب الذي لم نجد فيه أحداً من الباحثين تحدث واكتشف ـ قبل اشتعال الثورات ـ وجود مثل هذه الحالة في العالم العربي.

أما حديث بعض الناشطين السياسيين عن قرب حدوث ثورات ـ كما تفعل قناة الجزيرة بالتقاط كلماتٍ قالها أشخاص في برامج فضائية قبل الربيع العربي وتتحدث عن ثورات قادمة ـ فلا يمكن اعتبار هذا الحديث (تنبؤاً ناتجاً عن

تحليل).. لأن كثيراً من هؤلاء يتحدثون منذ ثلاثين عاماً عن قرب حدوث ثورات!.. وهم حين يرددون ذلك لا يتكئون على تنظير فكري بقدر ما يُمارسون تعبئة سياسيّة.. وهؤلاء الأشخاص غالباً يدخلون تحت تصنيف الناشط لا المُنظِّر.. ومن ناحية الخِطاب، هم أقرب إلى الشعبويّة السياسية منهم إلى الفضاء التحليلي.

وربما كان الإرباك الفكري الذي أحدثته الثورات العربية ـ رغم مرور عام ـ سبباً في تأخر صدور أطروحات رصينة تناقش أسباب هذا التغيير الجذري، والكيفيّة التي نشأت خلالها لحظة الانفجار، ومسارات التحول في الدول الثورية، والمُستقبل السياسي لهذه الثورات.. وقد ساهم التدفق الكثيف للمعلومات والأخبار، بتقليص مساحة التفكير والتأمل في هذه التحولات.. لكن مستقبل الإنتاج البحثي يشي بأن الاهتمام سيتزايد بهذا الحدث على مستوى التحليل والرصد والتفكيك والاستيعاب، باعتباره منعطفاً تاريخياً غير مسبوق في العالم العربي.. وأظن أن الدَور المُبكِّر الذي تقوم به بعض المؤسسات البحثيّة ـ كالمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ومركز دراسات الوحدة العربية ـ يستحق الاهتمام والإشادة.

وقبل أن أتحدث ببعض التفصيل عن شيءٍ من حال الإسلاميين في الربيع العربي، وبعض التحولات التي بدأت في الداخل الإسلامي.. أود أن أشير باقتضابٍ إلى مجموعة من الأفكار والتأملات عن الحالة الثوريّة العربيّة.. وسأحاول تكثيفها على شكل كبسولات موجزة، وقابلة للتناول مستقبلاً بشكلٍ أوسع من ناحية التحليل والاستشراف.

١ ـ أعتقد أن الثورات العربيّة ستُحدث تحولاً كبيراً في المفاهيم والأفكار في الفضاء العربي، ابتداءً من لغة رجل الشارع البسيط، وحتى أكثر مناطق البحث العلمي عُمقاً.. فمفردات من مثل (ثورة) و(نضال)، وجُملة أن (الشعب يُريد) كان يتم التعامل معها لعقودٍ باعتبارها جزءاً من الخطاب الغوغائي التعبوي، الذي يتنافى مع المنطق البحثي والتحليل العِلمي اللذين يعتمدان على بناء تراكم معرفي هادئ، يُسهِم في صُنع تغيير مُتدرِّج، ويسعى للدفع بمسار التحولات الفكرية والذهنيّة عند الإنسان العربي بالتوازي مع مسار التحولات السياسية (التطوّر الهادئ والمتوازي)، ويعتمد على بناء الإنسان الديمقراطي قبل تكوين الدولة الديمقراطية، ويُعوّل كثيراً على التعليم، والتنمية، وتفكيك مناطق التأزم في فكر الجماعات الإسلامية، والدفع باتجاه العلمانية.

لكن الربيع العربي طرح مُجدداً على الطاولة البحثية إمكانية حدوث تحولات جذرية (ثورات) ينتج عنها تحول ديمقراطي في المجتمع العربي بوضعه الراهن، دون العبور على هذه المُقدِّمات الطويلة من التأهيل.. وأن البُنى التقليدية التي يتعامل معها الوسط البحثي باعتبارها كُتلاً ممانِعة لتقدم المجتمع (القبيلة، والتنوّع الطائفي والإثني، والإسلام السياسي ..الخ) لم تكن في حقيقتها مُعيقة لهذا التحوّل.. وأن بناء المجتمع المدني والدولة الديمقراطية أمر مُمكن في ظل وجود هذا التنوع.. وأن التجربة الأوروبية في التحول الديمقراطي عبر تجاوز البُنى التقليدية وتحييد الدين ليست هي الطريق الوحيد والحصري لبناء المجتمع الديمقراطي.

وإذا كانت الفيلسوفة الأمريكيّة حنّة أرِندت قد قررت عام

١٩٦٠م في كتابها الشهير (في الثورة) أنه لا يُمكن تصوّر الثورات خارج (ميدان العُنف)، فإن الثورات العربية نقضت هذه القاعدة حين قامت بثورات سلميّة استطاعت أن تُسقِط أنظمة دون أن تتلطّخ أيدي الثوّار بالدماء.. وهو ما سيُسهم في إعادة التفكير مُجدداً في مفهوم الثورة.

٢ ـ يبدو أن الثورات العربية قللت من قيمة (المدخل الفكري والفلسفي) في التغيير.. وأعْلَت من شأن (المدخل الحقوقي والسياسي).. ورغم أنهما لا يتناقضان.. إلا أن الفعل الثوري على الأرض، وقدرته على اختزال مراحل طويلة من التدرج الإصلاحي البطيء.. ضخ في الوعي المجتمعي أن الفضاء الفكري والفلسفي يسعى دوماً إلى تعقيد البسيط، وتنظيم ظواهر الفوضى، والإغراق في توهُّم العوائق، ومحاولة إيجاد منطِق لمشاهد عبثيّة يمكن تجاوزها دون الحاجة إلى كل هذا التحليل والتفكيك.

أيضاً ساهم الزخم الثوري في التقليل من نرجسية المثقف المُتعالي على العمل السياسي.. وأعاد الاعتبار إلى المثقف العضوي (بالمعنى الغرامشي) الذي لم يمنعه الإنتاج الفكري والفلسفي من الانخراط في الفضاء السياسي، سعياً لدفع عجلة التغيير، والانحياز لخيارات الأمة، وتحمُّل تبِعات المواجهة الميدانيّة للاستبداد.

٣ ـ أن نشوء (الحالة الثورية) في المجتمعات لا يرتبط بمُجرّد تعاظم وجود النقص (الفقر، البطالة، تزايد الفساد، تفشي الظلم والاستبداد).. بل لا بد من وجود ما أطلق عليه هيغل (الوعي بالنقص).. وهي حالة من الإدراك الواعي بالحقوق المسلوبة، والإيمان بقِيم المواطنة، والنضال

السلمي.. وينتج عن هذا الوعي السعي لتحقيق هذه القيم، ومواجهة استبداد السُلطة.

وهذا ما يفسّر أن النضال الحقوقي، والحركات الاحتجاجيّة، ومن ثمّ الثورات، قادتها ابتداءً مجموعات ينتمي غالبها - من حيث مستوى الدخل والتعليم - إلى الطبقة الوسطى.. حيث لم تكن دوافعهم الاحتجاجية مرتبطة بشكلٍ رئيس بالضغوط المعيشيّة.. بل كان لتردي الوضع الحقوقي وتقلّص مساحة الحُريّات حضوراً أكبر في دوافع هذا الحراك.

٤ - أن (الفعل الثوري) يأتي نتيجة طبيعيّة لانسداد شرايين الإصلاح السياسي.. ولكن الثورة - كتغيير جذري - لا تكفي لبناء دولة ديمقراطية دون وجود الحد الأدنى من الفكر المدني في المجتمع.. وبشكل أخصّ.. دون تمدّن الشريحة الكبرى في الحالة الإسلامية.. ففي حال كانت الشريحة الأوسع في الوسط الإسلامي تتبنى أفكاراً تتضاد مع الفكر المدني (كرفض القبول بالديمقراطية، والمجتمع المدني، والتعددية الإثنية والدينيّة والأيديولوجية) سواء كان ذلك لأسباب اجتماعية أو شرعيّة.. فإن مشروع التحول الديمقراطي في (مجتمع ما بعد الثورة) سيُعاني غالباً من صعوبات كبيرة.. وهو ما يجعل من الجهود الفكريّة التي تسعى إلى تمدين الحالة الإسلامية بمثابة طليعة مُهمة لتسهيل الطريق نحو التحوّل الديمقراطي.

٥ - برأيي أن الحَرَاك السلمي والثورات في العالم العربي رفعت من قيمة لوبيات الضغط والمجموعات التياريّة غير المؤدلجة، على حِساب التشكيلات السياسية التقليدية كالجماعات والأحزاب (كما للدور الريادي للمجموعات

الشبابية في مصر، وتونس، واليمن، والمغرب، والكويت، والأردن)، وأعطت قيمة سياسية رفيعة لمواقع التواصل الاجتماعي (فيس بوك، وتويتر).. إلا أن هذه المجموعات التيّارية تبقى قادرة على التهييج، وعلى القيام بفعل احتجاجي / ثوري.. ولكنها غير قادرة على إدارة مسار ثورة.. فضلاً عن قدرتها على إدارة (مجتمع ما بعد الثورة).. وذلك بسبب افتقادها لعاملين مُهمين، هما: الناظم الأيديولوجي، والكُتلة التنظيميّة.

٦ ـ أن الثورات أنهت ـ في الدول التي قامت بها ـ مرحلة الاستبداد المُباشر للسلطة.. وهي المرحلة التي كانت مشجباً تُعلّق عليه أسباب تراجع معدلات التنمية، وارتفاع مؤشرات الفساد، وضمور المجتمع المدني ..الخ.. وأدخلتنا في (مجتمع ما بعد الثورة) الذي يستدعي تكثيف الجهد لاكتشاف المُعيقات البنيويّة (الفكرية والاجتماعيّة) للتقدم، التي تحدّ من تكوين مُجتمع الرفاه، وتأسيس دولة العدالة والحقوق.. لأن المجتمع بعد الانتهاء من الحشد الجبهوي لإتمام الثورة، مع ما يستدعيه ذلك من خفوتٍ واعٍ للخِلافات والتباينات سعياً للعمل باتجاه الهدف المشترك.. ستطفو على سطحه كل الخِلافات الإيديولوجيّة والإثنيّة والطائفيّة.. خاصة أن الفكرة الديمقراطية هي بطبيعتها محفِّزة لإبراز التمايز والخلاف بين تكوينات المجتمع وتياراته، وجعلها ـ غالباً ـ مَوَاطِن للتنافس الانتخابي.

٧ ـ في الدول الساكنة والمُستقرّة، حتى تلك التي ترزح تحت حكم أنظمة سُلطوية، يمكن الحديث عن وجود (مسار) ناظم لحركة المجتمع.. ويواجه هذا المسار عادة حالة من

التدافع بين السُلطة من جهة، وقوى المجتمع (الأحزاب، الجمعيات، القوى التياريّة) من جهة أخرى، سعياً لدفع عجلة المجتمع باتجاه الإصلاح.. وغالباً تكون استجابة السُلطة لهذا الضغط المجتمعي إما بطيئة أو مُنعدمة.. ومع ذلك، فمجرد وجود مسار واضح ومُستقر، هو أمرٌ يتيح للراصد والمُحلل أن يرسم مساحات التغيير المُمكن في المجتمع، واتجاه هذا التغيير، وطبيعة الخَيَارات المُتاحة.

لكن في (مجتمع ما بعد الثورة) قد يدخل المجتمع في حالة (ضياع للمسار).. بحيث يصعب على الراصدين فهم تعقيدات الحالة الراهنة، فضلاً عن القدرة على بناء تصورات للمستقبل.. لأن المساحة مازالت مفتوحة على كل الاحتمالات.. والمجتمع قابل للدخول في مسارات شديدة التباين تمتد من إمكانيّة التطور السريع والمؤسسي، وحتى الحرب الأهليّة.

وإذا كان الفِعل الإصلاحي يُمثل سعياً للتطور الهادئ في النظام السياسي.. فإن الثورات كما في كلاسيكيات الفلسفة الألمانية (هي قاطرة التاريخ)، وذلك باعتبارها تحوّلاً كبيراً وجذرياً في الحالة السياسيّة، واندفاعاً سريعاً في التاريخ.. ولكن هذا لا ينفي أن قاطرة التاريخ هذه مازالت تملك إمكانيّة السير باتجاهين.. فيمكن أن تصعد بالمجتمع درجاتٍ نحو التقدم، أو تهوي به دركاتٍ نحو التراجع.

٨ ـ أن الفِعل الثوري يصعب أن يتم في مجتمعٍ يعيشُ في داخله انقساماً حاداً على أساسٍ طائفي أو عِرقي أو جِهوي.. والحديث عن الانقسام لا يعني مجرّد وجود أقليات دينيّة أو عِرقيّة.. بل يعني وجود ما يُشبه الانقسام المتكافئ ـ في القوة أو العدد ـ بين طرفين أو أكثر (مثلاً كما في الحالة

العراقيّة، واللبنانيّة، والبحرينيّة).. لأنه في هكذا مُجتمعات يطغى عادةً القلق من المكوّن الآخر على القلق من استبداد السُلطة.. بل قد تكون السُلطويّة السياسية بمثابة وسيلة يحتمي بها طرف ضد آخر.

ولا يعني هذا أن مجرّد وجود تنوّع متكافئ في الأعراق أو الطوائف وسط أي مجتمع يُمثِّل (انقساماً) بالضرورة.. فالانقسام يعني وجود حالة صراع سياسي ونفسي بين المكوّنات.. وإلا فثمّة مجتمعات تتضمّن تنوعات متكافئة (كما في تقارب أعداد العرب والأمازيغ بالمغرب) ولكن هذا المُجتمع لا يشهد انقساماً.

٩ ـ أن الثورة باعتبارها فِعلاً مُغامراً وجريئاً لا يُقدم عليها سوى طليعة محدودة وشُجاعة من المجتمع.. وتتميّز هذه الطليعة بكونها لا تعرف كثيراً في الحِسابات والتقديرات.. بل تُقدم باندفاع نحو مغامرة الثورة دون دراسة وافية للاحتمالات.. لذلك فالحراك الثوري عبر التاريخ لا تُشارك به سوى نِسب محدودة في المجتمع (تقديرات تُشير إلى أنه شارك في الثورة الفرنسيّة ٢٪ من السكان .. وفي الثورة البلشفيّة ٥٪ .. وفي الثورة الإيرانية ٧٪ .. وفي الثورة المصريّة ١٠٪ .. وفي الثورة التونسية أقل من ذلك).. لكن المُدهش والمُبهر في الحراك الثوري، أن المجموعات التي تبدأ غالباً بإشعال فتيل ثورةٍ تنشُد الحُريّة وتواجه الاستبداد، لا يكون أفرادها ممن تعرّضوا سابقاً لانتهاكات أمنيّة حادة (اعتقالات وتعذيب).. بل غالبهم ممن ليس لهم سوابق اضطهاد، وغير مُحمّلين بذاكرة عُنف سياسي.. وإنما كانت دوافعهم حقوقيّة وسياسيّة بامتياز.

ورغم ضآلة نِسب المشاركين الفعليين في الثورات.. إلا أن من المُهم ألا تكون بقيّة فئات المجتمع ـ غير المشاركة في الثورة ـ ضد مبدأ إسقاط النظام، حتى لو كانت قلِقة من فكرة الثورة.. وفي تجربة ثورتي تونس ومصر، أعتقد أنه لو قام أحدٌ بإجراء استفتاء، وسأل جميع أفراد الشعب قبل بدء الثورة سؤالاً مُباشراً ـ وبعيداً عن عين النظام ـ مفاده: هل تُريد زوال حكم الرئيس زين العابدين بن علي أو حسني مبارك.. فربما سنجد ـ والأمر تقدير شخصي بالطبع ـ أن أكثر من ٩٠٪ من الشعب يُريد إنهاء حكم الرئيس.. فالرئيس لا يحتمي بكتلة طائفيّة أو عِرقيّة تشعر أن بقاءها مُرتبط بوجوده في رأس السُلطة.. لذا فليس مع بقائه سوى دوائر الاستنفاع من حُكمه.. ولكن لو تمّ في ذات الاستفتاء طرح سؤالٍ آخر على الناس، مفاده: هل تريد القيام بثورة ضد النظام؟.. فأكاد أجزم أن الغالبية الساحقة من الناس ستكون ضد فكرة الثورة.. لأن صورة الثورة ترتبط دوماً في المخيال الشعبي بوجود العُنف والفوضى.. لذلك يكفي لنجاح أي ثورة أن تكون الغالبية الساحقة من الشعب مع فكرة إسقاط النظام.. حتى لو لم تكن مع فكرة الثورة.

١٠ ـ أيُ تحليلٍ لانفجار الحدث الثوري في العالم العربي يتجاهل تأثير (ثورة تونس) هو برأيي تحليلٌ ناقص.. حيثُ أقدم بعض الباحثين على تفسير الحدث الثوري باعتباره نتيجةً طبيعيّة لتراكم الوعي المدني وتطوّر النشاط السياسي المُعارض في بعض المُجتمعات العربيّة.. لكن حقيقة هذا التراكم أنه كان ينمو بشكلٍ بطيءٍ.. وأحياناً يمرُّ بكثيرٍ من المُراوحة.. وكان فاقداً للقدرة على الحشد الجماهيري.. حتى

غدا أشبه بنشاطٍ خاص بنُخبة سياسيّة فاعلة لم تُصَب بفيروس الإحباط الذي اجتاح المشهد السياسي العربي.

لكنَّ ثورة تونس استطاعت أن تُجري عمليّة جِراحيّة عميقة في وجدان الشعوب العربيّة.. واختزلت عقوداً من التهيئة النفسية والتحفيز المعنوي.. ونقلت فكرة التغيير الجذري من أثير الحُلُم إلى حيّز المُمكن.

في ثنايا ثورة مصر.. قمتُ بتوجيه سؤالٍ إلى عددٍ من الرموز الفكريّة والسياسيّة الذين كنتُ ألتقيهم في ميدان التحرير، مفاده: ما الذي حرّك الناس؟.. منذ عدة أعوام والحركات السياسيّة بمِصر تحاول حشد الجماهير في المظاهرات: ضد التوريث، والتمديد، والفساد، وتغوّل الأجهزة الأمنيّة.. ولم يكن يخرج في هذه المظاهرات سوى المِئات وأحياناً العشرات.. فما الذي تغيّر الآن وجعل الملايين يقتحمون الميادين ويهتفون بإسقاط النِظام!؟.. وكانت الإجابة التي اتفق عليها الجميع: تونس.

وكما كانت الثورة التونسيّة مُلهِمة للثورة المصريّة.. حَقَنت الثورة المصريّة ذات الإلهام في شرايين الشعوب العربيّة.. فأقدم بعضها على استلهام التجربة الثوريّة.. فيما قامت شعوبٌ أخرى بحركات احتجاجيّة ومظاهرات تُطالب بالإصلاح، وحظيت بِزَخمٍ غير مسبوق في تاريخها الحديث.

١١ ـ بدا واضحاً ومن خلال تجارب كثيرة أن المُمارسة العمليّة غالباً ما تسبق التنظير عند المجموعات السياسيّة، وفي الحالة الإسلامية بشكلٍ أخصّ.. ففي الداخل الإسلامي مثلاً تنخرط الجماعات والأفراد في مُمارساتٍ هي غير مشروعة

نظرياً.. وبعد المُمارسة يأتي التشريع والتنظير لتبرير هذا الأفعال.. وفي الفكر السياسي الإسلامي منذ تاريخه الأول، ثمّة كثير من المُمارسات الواقعية سبقت عملياً مسألة البرهنة والتشريع، وبعد التطبيق تأتي عملية الإنتاج النظري لتشريع هذا الفعل، بمثل ما حصل في فِعل الاستفراد بالسُلطة والحكم الجبري، الذي نتج بعده كثيرٌ من التنظير الشرعي والسياسي الذي يؤكد مشروعيّة التغلُّب، كما في كتب الأحكام السلطانية.

وفي التاريخ الحديث نجد عشرات التجارب.. الجماعة الإسلامية في مصر تبدأ بالعنف عملياً، ثم تشرّع لموقفها.. وبعد عقدٍ من المواجهات تُعلن إيقاف العنف، ثم بعد سنين من الإيقاف تُصدر مراجعاتها التي تؤكد سلامة موقفها العملي.. وجماعة الإخوان تنخرط في تحالفات حزبية وانتخابية منذ الثمانينيّات قبل أن تحسم موقفها الرافض سابقاً لوجود أحزاب.. ثم بعد عشرة أعوام (في ١٩٩٤م) تُصدر وثيقة (الإخوان المسلمون والتعددية السياسيّة) تؤكد قبولها بالعمل الحزبي.. وهي إذ تؤكد دوماً التزامها بالمرجعيّة الإسلامية.. إلا أنها تُقدِم دوماً على مُمارسات سياسية متقدمة، دون أن تُبرهن شرعياً على جوازها (مثل شرعية التحالف مع أحزاب علمانية، وشرعية القبول بنتائج الانتخابات في حال أنتجت فوز أحزاب عَلمانيّة).

في السعودية ثمّة تجارب كثيرة في هذا الصدد.. فتجد مجموعاتٍ كان منظِّروها يؤكدون دوماً أن الانتخابات ليست طريقة شرعيّة في الاختيار.. ثم حين تم إقرار عمل انتخابات بلدية.. كانت هذه المجموعات من أوائل من قدّم لوائح لمرشحين.. ومن ناحية أخرى نجد تنظيراً واسعاً يتكئ على

تراث شرعي طويل للمدرسة النجدية يؤكد عدم مشروعية الانضمام للمنظمات الدوليّة (الكفريّة).. ثم حين تُقدِم الدولة على هذا الفعل، نجد أن كثيراً من الشرعيين يقبلون بذلك دون إنتاج نظري يُوضح مُبرراتهم في تجويز هذا الفعل، فضلاً عن نقاش الاعتراضات السابقة التي أنتجتها مدرستهم الشرعيّة.. وتجد أيضاً بعض الشيوخ الذين أكدوا عدم مشروعيّة دخول القوات الأجنبيّة للجزيرة العربية إبّان الغزو العراقي للكويت (وكانوا بذلك مُنسجمين مع تراث أئمة الدعوة النجدية)، باتوا يقبلون بدخول القوات الأجنبية إلى ليبيا وسوريا لإنقاذ الثورات الشعبيّة.. دون شرحٍ وتبرير نظري لسبب هذا التباين الحاد في الموقفين.

وأنا هنا لا أهدِف بالطبع للقيام برصدٍ لهذه الممارسات.. بل للإشارة فقط إلى أن هذا الفعل بدا واضحاً أيضاً في (مُجتمع ما بعد الثورة).. فثمّة تيارات وجماعات وشخصيات من صميم الحالة الإسلامية، أقدمت على مُمارسات عمليّة لا تتوافق مع الإنتاج النظري السابق لها.. وهي بهذا الفِعل وكأنما تُخبرنا بقُربِ تحوّلٍ وشيك في التنظير لهذه الموضوعات كي تتوافق مع المُمارسة العمليّة على الأرض.

وحين أتحدث عن كون الممارسات تسبق التنظير، لا أقصد بالطبع التفسير الجدلي الماركسي للتاريخ (البنية التحتيّة تصنع البنية الفوقيّة) الذي يُشير إلى مستوىً آخر ـ أكثر عمقاً ـ من التأثير وصنع الأفكار.. وإنما عن حجم تأثير التفاعل السياسي الميداني في تطبيق الأحكام وفهم مقاصد التشريع.

وفي حديثي التالي عن موقف الإسلاميين من الثورات سأحاول أن أشرح هذه الفكرة بشكلٍ أكثر وضوحاً.

الإسلاميون والنِظام الديمقراطي..

تبدو بدهيّة بحثيّة أنه لا يُمكن الحديث عن كتلة واحدة اسمها (إسلاميون) كي نقيس بعدها طبيعة موقفها من الثورات العربيّة.. فثمة مساحة واسعة من التباينات الفكرية والسياسية في الداخل الإسلامي.. وهناك تيارات وجماعات وأحزاب تقع على (مسطرة المحافظة) في موقع الوسط واليسار (الإخوان وما بعد الإخوان).. ولهم موقف يتمايز عن موقف الإسلاميين المحافظين (التيارات السلفيّة بأطيافها).. فموقف جماعات الإخوان، والحركات الإسلامية التي تجاوزت الأطر التقليديّة للإخوان (كالعدالة والتنمية التركي والمغربي، والنهضة التونسي، والوسط المصري، إضافة لأعداد من النخب الثقافيّة والمجموعات الصغيرة) كان دوماً أكثر وضوحاً في قبولها بالديمقراطية والمجتمع المدني، وأكثر تقدماً في موقفها من الثورة.

وتبدو علاقة الفكر الإسلامي ـ بفضائه الشرعي والسياسي ـ بالنظام الديمقراطي لا تختلف كثيراً عن علاقته بكثيرٍ من التصورات والتنظيمات والأفكار المُنتجة خارج البيئة الإسلامية، منذ تلاقي الحضارة الإسلامية بالحضارات الأخرى على امتداد أكثر من ألف ومائتي عام.. فالعلاقة تخضع دوماً لمساحة من النقاش والتنظير ينتج عنه القبول أو الرفض.

وكانت أول مرحلة تماسّ بين النظام الديمقراطي والفكر الإسلامي في القرن التاسع عشر.. فمن ناحية اتجهت أولى البعثات الطلابية للدراسة في الغرب، ونتج عن ذلك اقتراب

المُبتعثين (الذين صاروا فيما بعد نُخباً فكرية وسياسية) من النظام السياسي الديمقراطي في أوروبا وكان ما يزال في مرحلة التشكّل.. ومن ناحية أخرى أتت حِقبة الاستعمار التي دُشِّنت فيها أولى البرلمانات في الدول العربيّة المُستعمَرة، كما في مصر، والمغرب، والجزائر، وسوريا، والعراق، وسواها.. وتشكلت أولى الأحزاب في المجتمع السياسي العربي.. ومن جانبها قامت الدولة العثمانية في نفس المرحلة الزمنيّة بتأسيس برلمان مُنتخب (مجلس المبعوثان).. وطوال هذه المرحلة ـ منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى بدايات القرن العشرين ـ لم يلقَ النظام الديمقراطي (أو المشروطيّة كما كان يُطلق عليه) مُقاومة تُذكر من قِبل عُلماء الشريعة ورموز الفكر الإسلامي.. بل إن بعض الشخصيات المحورية في الفكر الإسلامي كحسن البنّا، الذي رغم موقفه السلبي من الأحزاب، إلا أنه اعتبر النظام النيابي هو أقرب النُظم السياسيّة للإسلام.. وثمة شخصيات فكرية عديدة تلقت النظام النيابي الديمقراطي بالقبول باعتباره آليات للاختيار والتعبير عن إرادة الأمة.

لكن هذا القبول الضمني بالنظام النيابي الديمقراطي في تلك المرحلة المبكّرة لم ينتج عنه تنظير فقهي وفكري لطبيعة علاقة النظام الديمقراطي بالشريعة.. فلم تصدر دراسات أو كتب تتحدث عن علاقة الديمقراطية بالشريعة، ومساحات التلاقي والتعارض إن وجدت.. (هنا أيضاً قبول عملي يسبق التنظير).

وفي منتصف القرن العشرين وما بعده في عقود السبعينيّات والثمانينيّات، بدأت تُطرح مجموعة من

الاعتراضات والأسئلةٍ حول مدى توافق الديمقراطية مع الإسلام.. وكان حزب التحرير من أوائل من طرح جملة من الاعتراضات.. لكن أكثر الاعتراضات شيوعاً نتجت بعد ذلك من تيارٍ بدأ ينمو بوضوح في العالم العربي خلال هذه المرحلة، هو (التيار السلفي).. وتنطلق اعتراضات التيار السلفي من بعض النصوص الشرعيّة التي يرى أنها تتعارض مع فكرة النظام الديمقراطي، إضافة إلى استحضار واضح للتجربة السياسية في التاريخ الإسلامي.

وتتمثل أبرز هذه الاعتراضات بالتالي:

١ ـ أن الديمقراطية منتج غربي لا علاقة له بتراثنا السياسي الإسلامي.

٢ ـ أنه يقوم أساساً على مبدأ حكم الشعب.. وفي الإسلام الحكم للشريعة لا للشعب.

٣ ـ أن الديمقراطية تجعل القرار واختيار الحاكم مرهون بكل الناس (العالم والجاهل وأهل الصلاح وأهل الأهواء والمُبتدعة على السواء)، وفي النظام الإسلامي يجب أن يكون القرار مرتهناً بأهل الحل والعقد.

٤ ـ أن قرار الشعب في الديمقراطية مُلزِم للسلطة التنفيذية.. وقرار الشورى في الإسلام مُعلِم ولا يلزم الحاكم.

٥ ـ أن الديمقراطية تنطوي على تشريع المعارضة لولاة الأمر حتى في (المعروف)، فيما الإسلام يأمرنا بالسمع والطاعة في المعروف.

إضافة لاعتراضات أخرى عديدة.. وقد صدرت عشرات

الكتب والدراسات التي تضمّنت رفضاً للنظام الديمقراطي باعتباره مناقضاً لأصول الشريعة.

وبسبب هذه الاعتراضات التي احتوت على استشهادات عديدة من النصوص الشرعيّة.. بدأت مساحة النقاش حول (مشروعيّة النظام الديمقراطي) تأخذ منحىً أكثر تنظيراً.. ففي مقابل هذا الرفض، أصدر بعض الشرعيين والمفكرين الإسلاميين كتباً ودراساتٍ تسعى لتفكيك مَوَاطن الاعتراض، ونقاش النصوص الشرعيّة، بهدف التأكيد على شرعيّة الديمقراطية.. وقد ساعد هذا السِجال في تحريرٍ أكثر دقة لمسألة علاقة النظام الديمقراطي بالشريعة.. إضافة إلى أن طبيعة الجدل حول مسألة كبيرة تتعلق بشكل السلطة في الإسلام، جعل كِلا الطرفين يطور مفهومه واعتراضاته.

الموقف من الثورات العربيَّة..

يمكن تقسيم الحديث عن موقف الإسلاميين من الربيع العربي وما أفرزه في الداخل الإسلامي إلى مستويين.. الأول: فيما يخص جماعات الإخوان وحركات ما بعد الإخوان.. والثاني: المجموعات السلفيّة.

ففي المستوى الأول.. بدا واضحاً أن الطبيعة التكوينية للجماعات الإسلامية التي تتكئ على التربية الهادئة، والإصلاح المتدرّج، وتعزيز الصمود في مواجهة استبداد السُلطة عبر ضخ قيم الابتلاء، والصبر على الطغيان (وهو الأمر الذي عزز في أوساطها الرفض الصارم لفكرة اللجوء إلى العنف مهما اشتد الاضطهاد)، جعل دوائر القرار والعقل الجمعي في هذه الجماعات قادراً على امتصاص تبعات القمع السياسي، ولكنه غير قادر على الانطلاق والمبادرة في لحظة التغيير الجذرية.. وهو الأمر الذي جعل غالب الجماعات والأحزاب الإسلامية تُصاب بحالة تردد وارتباك في تعاطيها مع لحظات اشتعال الحدث الثوري.

ففي مصر.. ورغم أن جماعة الإخوان المسلمين بقياداتها وشبابها هم أكثر ضحايا قمع النظام.. إلا أن موقف الجماعة من إعلان يوم ٢٥ يناير ـ كلحظة بدء التغيير ـ شابهُ كثيرٌ من التردد والاضطراب.. فخرجت تصريحات شفهيّة تتحفظ على المشاركة، وأخرى تُعلن أن الجماعة لم تتلقَّ دعوة للمشاركة وأنها مازالت تدرس الوضع، وثالثة تُعلن أن المشاركة ستكون عبر بعض القيادات، وأنها لن تمنع شباب الجماعة من النزول للتظاهر (أي أنها أيضاً لن تطلب منهم المشاركة).

أما فيما يخص البيانات المكتوبة.. فقد توافق موقف جماعة الإخوان مع بعض أحزاب المُعارضة التي كانت تُتهم بالتنسيق مع النظام (الوفد، والتجمّع، والناصري) في عدم التوقيع على بيان القوى السياسية الصادر في يوم ٢٣ يناير، والذي يدعو ويؤكد أهمية المشاركة بمظاهرات يوم الغضب في ٢٥ يناير، وقد وقّع على هذا البيان غالب الفعاليات السياسيّة، والأحزاب، والحركات الشبابيّة، وبعض الرموز السياسية مثل د.محمد البرادعي.

من جانب آخر، أصدرت جماعة الإخوان عدداً من البيانات السياسية قبل يوم ٢٥ يناير وبعده (جميعها محفوظ في كتاب «وثائق ثورة ٢٥ يناير» الصادر عن مركز الأهرام للدراسات السياسيّة).. ففي يوم ١٩ يناير أصدرت الجماعة بياناً تحدثت فيه عما جرى في تونس، ودعت فيه النظام المصري إلى إجراء إصلاحات تتمثل في (إلغاء قانون الطوارئ، وحلّ مجلس الشعب، وإجراء تعديلات دستوريّة).. وفي يوم ٢٣ يناير ـ أي قبل يومين فقط من مظاهرات يوم الغضب ـ أصدرت الجماعة بياناً آخر تحدثت فيه عن التعامل الأمني مع كوادر الجماعة بعد بيان ١٩ يناير، وأكدت فيه على المطالب الإصلاحية المذكورة سابقاً، ولكن البيان لم يتضمّن أي إشارة إلى مظاهرات يوم الغضب.

وإذا كان بالإمكان تفهّم موقف الجماعة المُتردد قبل بدء مظاهرات يوم الغضب.. إلا أن بيانات الجماعة التي صدرت بعد بدء ثورة ٢٥ يناير كانت تفتقر إلى القدرة على تقييم طبيعة المشهد الثوري الذي بدأ يشتعل في مصر.. فقد أصدرت الجماعة بياناً في يوم ٢٦ يناير، أكدت فيه مشروعية

مظاهرات يوم الغضب، وأن الجماعة جزء من الشعب وتشارك في هذه المظاهرات، لكنها اكتفت بتكرار دعوتها إلى تنفيذ الإصلاحات المذكورة سابقاً.. وإذا كان البعض يرى أن ملامح المشهد الثوري بمصر لم تتضح في يوم ٢٦ يناير.. إلا أنه بعد جمعة الغضب في ٢٨ يناير كان المشهد حاسماً، فقد بات واضحاً أن المجتمع المصري يعيش حراكاً ثورياً ـ لا مُجرد احتجاجات تدعو إلى إصلاحات ـ وأن سقف المطالب المرفوعة في الميادين الثوريّة لن يقل عن (إسقاط النظام والرئيس)، إلا أن سقف المطالب عند جماعة الإخوان في البيان الذي أصدروه يوم السبت ٢٩ يناير ظل يدور في إطار الإصلاحات السابقة، مع إضافة ضرورة تشكيل حكومة انتقالية من غير الحزب الوطني، دون أي ذكر لإسقاط النظام والرئيس.. ولم تُعلن الجماعة في بياناتها الرسميّة الدعوة إلى إسقاط النظام (دون استخدام مفردة «إسقاط» رغم أنها المفردة الرئيسية المرفوعة في ساحات الثورة، بل استخدمت مفردة «ترك») سوى في بيانها الصادر يوم الاثنين ٣١ يناير الذي دعت فيه إلى استمرار الاحتجاجات الشعبيّة حتى (يترك هذا النظام كلّه السُلطة برئيسه وحزبه ووزرائه وبرلمانه).. كما أن بيانات الجماعة ظلّت تستخدم مفردة (انتفاضة) في إشارتها إلى الحالة الثورية.. ولم تستخدم مفردة (ثورة) سوى في بيانها الصادر في ٢ فبراير.. كما اتضح مُجدداً هذا التردد والارتباك في تقييم حجم التحوّل السياسي الذي تعيشه مصر، وطبيعة المشهد الثوري في الميادين، في قبول الجماعة لدعوة نائب الرئيس عمر سليمان للحوار في يوم ٤ فبراير.

طبعاً هذا الرصد لمواقف الجماعة وبياناتها في بداية

الثورة، لا يتنافى مع حقيقة أن كوادر الإخوان شاركوا بعد ذلك بأعداد كبيرة، وأن الجماعة كان لها دور تاريخي في حماية الثورة يوم موقعة الجمل (الأربعاء ٢ فبراير).. وإنما كانت الإشارة إلى قدرة العقل المفكِّر داخل الجماعة على التعاطي مع (حدث ثوري) هي أكثر الأطراف السياسية احتياجاً إليه، لأنها الأشد تعرضاً للقمع.. وأكثر الأطراف استفادة منه ومن التحوّل الديمقراطي، لكونها أضخم تشكيل سياسي في مصر.

وبعد إسقاط النظام، وتنحي الرئيس، دخلت جماعة الإخوان في مساحة واسعة من الجدل حول أدائها السياسي وأولويات المرحلة، وحول تعاطيها مع شباب الثورة، والمجلس العسكري، والمُفاضلة بين المصالح الوطنيّة والمكاسب الحزبيّة، ورفضها للمشاركة في عددٍ من الدعوات لمظاهرات مليونية تهدف إلى الضغط على المجلس العسكري لتحقيق مطالب الثورة.. وبالطبع لم يخلُ هذا المشهد من التجنّي والتشويه الذي مارسه خصومٌ سياسيون، ووسائل إعلام تحمل مواقف سلبيّة مُسبقة، في ظِل ضعف المَكَنة الإعلاميّة للجماعة، سواءٌ على مستوى الوسائل، أو على مستوى الخطاب الإعلامي، واختيار القيادات التي تتحدث باسم الجماعة.

لكن هذا الجدل، والتباين في تقدير الأولويات، فتح الباب أيضاً على عددٍ من حالات الانشقاق والانفصال عن الجماعة.. بعضها من قياديين في الصف الأول، وأعضاء تاريخيين في مكتب الإرشاد، من أمثال د.عبدالمنعم أبو الفتوح (المرشح لرئاسة الجمهوريّة) وقبله نائب المرشد د.محمد حبيب.. والبعض الآخر من قيادات معروفة، من أمثال ابراهيم الزعفراني (الذي أسس حزب النهضة)، وخالد

داود ومحمد هيكل وعبدالمجيد الديب (الذين أسسوا حزب الريادة).. إضافة إلى عددٍ من القيادات الشابة في الجماعة من أمثال إسلام لطفي ومحمد القصاص اللذين كانا ـ بمبادرة فرديّة ـ من الطليعة المنظمة لثورة ٢٥ يناير وعضوين في مجلس ائتلاف شباب الثورة، ومحمد عباس وعلي المشد وأحمد عبدالجواد وسواهم من المدوّنين والقيادات الطلابيّة في الجامعات، الذين شاركوا في تأسيس (حزب التيار المصري) وتم فصلهم من الجماعة.

ورغم أن هذا التوالي في الانفصال خلال مدة زمنيّة وجيزة لم يؤثر على تماسكها ورصيدها الانتخابي الحالي، إلا أنه يُشير إلى أن الجماعة تملك القدرة على التماسك في لحظات الابتلاء والمِحن، أكثر مما تستطيعه في لحظات الانفتاح والحُريّة.. وأن ذلك سيجعلها على محك حقيقي في المُستقبل لإثبات قدرتها على الإصلاح الفكري والهيكلي داخل الجماعة، والمحافظة على الكوادر والقيادات المُميزة داخل صفوفها.

أما في اليمن.. فالحركة الإسلامية المتمثّلة في (التجمّع اليمني للإصلاح) تحظى نسبياً بمساحة أكبر للعمل والانتشار إذا ما قورنت بالمساحة المُتاحة للحركات الإسلامية في الدول الأخرى.. فبعض رموز تجمّع الإصلاح هم أطراف في السلطة لسنين عديدة.. وفي الوقت نفسه فإن تجمّع الإصلاح هو الكتلة السياسيّة الأكبر في تجمّع أحزاب (اللقاء المشترك) المُعارض.

لذلك عندما اشتعلت الثورات العربية في تونس ثم مصر، بدأ الوسط السياسي المُعارض في اليمن يطرح سؤال (التغيير الجذري) للسلطة.. بدا واضحاً أن تجمّع الإصلاح لم يكن متحمساً لفكرة الثورة.. وكان يُفضِّل أن تتفق أحزاب

المعارضة في (اللقاء المشترك) على صياغة مطالب سياسيّة للسُلطة تتضمّن بعض الضمانات، إضافة إلى القيام بإصلاحات كبيرة (كمنع التوريث، وإنهاء حكم الرئيس بنهاية فترته الرئاسية في سبتمبر ٢٠١٣م، والقيام بعددٍ من الإصلاحات الدستورية).. ومن أجل الضغط على السُلطة لتحقيق هذه المطالب، كانت ستدعو إلى قيام مسيرات شعبيّة ومظاهراتٍ في عددٍ من المُدن اليمنيّة.

لكن ـ وكما في كل الدول العربية التي شهدت ثورات أو حركات احتجاجيّة ـ بدأت المجموعات الشبابيّة المُستقلّة في اليمن عملها الثوري يوم الجمعة ١١ فبراير (في نفس المساء الذي أُعلن فيه تنحي الرئيس المصري) وذلك بمدينة تعز.. حيث بدأت احتجاجات في ذلك اليوم بطريقة فيها كثيرٌ من العفوية.. وقرر الشباب يومها بدء اعتصام مفتوح.. وأكدوا منذ اللحظة الأولى أن مطالبهم تتلخص في مطلبٍ واحدٍ هو (إسقاط النظام).. وقد نتج عن هذا الاعتصام مواجهات عنيفة مع السُلطة.. وأدى ذلك لانتقال المظاهرات والاعتصام إلى العاصمة صنعاء في الجمعة ١٨ فبراير، أي بعد أسبوع من بدئها في مدينة تعز.. وأمام هذا المشهد الثوري المُشتعلً في اليمن، قررت الأحزاب المنضوية تحت لافتة (اللقاء المشترك) في يوم ٢٣ فبراير إعلان مشاركتهم في هذا الحراك الثوري.. وبعد ذلك شكّلت هذه الأحزاب (وتجمّع الإصلاح تحديداً) دعامة قوية للثورة، بسبب امتدادها الجماهيري، وقدرتها على الحشد.. ولكن ظلّ تجمّع الإصلاح ـ وبقيّة أحزاب اللقاء المشترك ـ يقبل بسقفٍ مُختلف عن سقف مطالب شباب الثورة.. ففي حين يكتفي تجمّع الإصلاح بطلب تنحي الرئيس، وتولي نائب الرئيس مقاليد

السُلطة المؤقتة إلى حين إجراء انتخابات، كما في المبادرة الخليجيّة.. يُطالب شباب الثورة بإسقاط كل شخصيات النظام السابق ـ لا الرئيس فقط ـ ومحاكمتها.

وفي المغرب.. شهد حزب العدالة والتنمية الإسلامي أوسع انقسامٍ في قراره السياسي جرّاء الموقف من دعوة مجموعات شبابيّة مُستقلّة إلى تنظيم مظاهرات واسعة في كل المدن المغربيّة يوم ٢٠ فبراير، تهدف إلى المُطالبة بإجراء إصلاحات جذرية في الدستور، وتأسيس ملكيّة برلمانيّة.

فمن جِهة أعلن الأمين العام عبدالإله بن كيران أن الحزب لن يُشارك في هذه المظاهرات.. وهو الأمر الذي رفضه عددٌ من قيادات الحزب الذين أكدوا أن بن كيران أعلن عدم المُشاركة دون الرجوع لمؤسسات الحزب (مجلس الأمانة العامة).. وكان مجلس الأمانة بدوره مُنقسماً تجاه المشاركة في هذه التظاهرات.. ففيما كان بعض أعضاء المجلس يتفقون مع موقف بن كيران.. كان آخرون يُفضِّلون أن يتمثّل موقف الحزب بـ (الصمت) دون إعلان المُشاركة من عدمها، وعلى رأس هؤلاء الأمين العام السابق، ورئيس المجلس الوطني في الحزب د.سعدالدين العثماني.. فيما كان فريقٌ ثالث من أعضاء مجلس الأمانة يرون ضرورة المشاركة في هذه التظاهرات، وفي مقدمتهم أحد أبرز صقور العدالة والتنمية، ورئيس الكتلة البرلمانية للحزب، المُحامي مصطفى الرميد.. ولأن الأمين العام عبدالإله بن كيران أعلن عدم مشاركة الحزب دون الرجوع إلى مجلس الأمانة العامة.. أعلن المحامي مصطفى الرميد ود.عبدالعلي حميدالدين والحبيب الشوباني وآخرون من قيادات الحزب قرارهم بالمشاركة في هذه التظاهرات لأسبابٍ عديدةٍ

ذكروها في بيان خاص.. ثم أعلن هؤلاء الثلاثة (الرميد، وحميدالدين، والشوباني) استقالتهم من عضوية مجلس الأمانة العامة (ثم عدلوا عن استقالتهم بعد عدة أسابيع على إثر تسوية).. ولكون عبدالإله بن كيران هو الأمين العام للحزب، قام بالضغط على قطاع شبيبة العدالة والتنمية (ويضم الآلاف) الذي كان قد أعلن نيته المشاركة في مظاهرات ٢٠ فبراير.. فأعلنت الشبيبة مُجدداً انسحابها من المُشاركة.

إذا كانت الثورات العربيّة قامت بمسح طاولة الإرث الاستبدادي في الأوطان التي جرت بها.. وأدخلتها في فضاء سياسي حرّ ومفتوح.. فقد كان هناك ما يُشبه الإجماع أن الحركات الإسلاميّة هي الرابح الأكبر من التحوّل الديمقراطي في العالم العربي.. وقد صدق هذا التحليل في كل الدول التي قامت بها عمليات انتخابية نزيهة (كما في تونس، ومصر، والمغرب).. وهو أمر سينقل الحركات الإسلامية إلى فضاء جديد لم تعتد عليه (فضاء السُلطة)، وسيطرح أمامها أسئلة وتحدياتٍ جديدة لم تخضها من قبل.. سأحاول في السطور التالية ذكر بعض الإشارات في هذا الصدد:

١ ـ يجب أن تُثبت الحركات الإسلامية قدرتها على استيعاب هذه المرحلة الصفرية في الحياة السياسية، والتخلص من ضغط الإرث السياسي السابق.. والانتقال من (فقه الضرورة) وخطاب الابتلاء والصبر، إلى مرحلة الخطاب السياسي المرِن والحُر.. وعدم السعي وراء مكاسب اللحظة عبر محاولات الحصول على أكبر نصيب من كعكة السُلطة في هذه المرحلة السياسيّة الحساسة التي لم تتجاوز فيها المجتمعات بعد مساحة التحولات القلقة إلى

حيّز الاستقرار، حيث مازالت القوى التقليدية (الجيش، القوى الرأسمالية، النخبة العلمانية) تُمسك بكثيرٍ من مفاصل الدولة الأمنية والاقتصادية والسياسية.. لذا يجب أن ترتكز أولوية الحركة الإسلامية على بناء دولة قانون ومؤسسات مدنيّة صلبة وراسخة، تكون ضمانة لاستمرار الفضاء السياسي الحر في المُستقبل.

٢ ـ على الحركة الإسلامية أن تطوّر فضاءها الفكري والهيكلي الداخلي.. فمن ناحية يجب ترسيخ الممارسة الديمقراطية في مؤسسات الحركة عبر القيام بانتخابات مفتوحة وشفافة، وتجاوز الأساليب القديمة التي كانت تعتمد أحياناً ـ في اختيار المسؤولين ـ على التزكيات والتوافقات بين مجموعة محدودة من القيادات النافذة، حتى إن جرت هناك انتخابات شكليّة.

وإذا كانت بعض الحركات الإسلامية في المغرب العربي (في تونس والمغرب) قد تطورت أدواتها المفهوميّة وأنضجت تصوراتها حول عددٍ من المسائل المرتبطة بالفكر السياسي، كالتي تدور حول طبيعة علاقة الدين بالدولة، والعلاقة بالقوى العلمانيّة، والدوائر الغربية، وقضايا الهويّة، والمواطنة، والحُريّات، والفضاء العام والخاص، وسوى ذلك.. فإن بعض الحركات الإسلاميّة في المشرق العربي مازالت لم تحسم كثيراً من هذه المسائل، ومازالت تعيش في داخلها جدلاً واسعاً بين المُحافظين والإصلاحيين.

٣ ـ أهميّة الفصل بين المسارين الدعوي والسياسي.. ففي حين حسم حزب النهضة التونسي خياره بأنه (حزب سياسي)،

استطاعت الحركة الإسلامية في المغرب إنتاج نموذج ناجح في الفصل الكامل بين الحركة الدعوية والحزب السياسي.. لكن بقيت بعض الحركات الإسلامية في المشرق العربي تمارس هذا التداخل بوضوح.. فتلجأ غالباً إلى تشكيل حزب يكون بمثابة ذراع سياسي للحركة، ويخضع دوماً لقرارات قيادة الجماعة، وهو أمرٌ يوسّع من هامش التداخل بين الفضاء السياسي الذي يعتمد على التكتيك، والتحالفات، والحسابات الواقعيّة، والفضاء الدعوي الذي يعتمد على التربية، والتعليم، والدعوة، والعمل الإغاثي.. وهذا التداخل سيُسهم دون شك في تسييس العمل الدعوي، وتسييس الفتاوى ومنابر الجمعة، وعدم فك الارتباط بين (الشيخ / الداعية) و(رجل السياسة).. وهو ما سيجعل كثيراً من مناطق التنافس السياسي تتجاوز مساحة (المشروعات والبرامج) وتدخل في حيّز الصراع الديني الذي يستلهم مُفردات الانحراف، والفسق، والبدعة، والعداء للدين.

٤ ـ أن الحركات الإسلامية كانت دوماً تعيش في فضاء المُعارضة.. وهو فضاء لا يجعلها في موقع الاختبار، ولا يضعها في محك التجربة العمليّة لإدارة المجتمع.. بل يُبقيها دوماً في حيّز المثاليّة المُتحررة من المسؤولية، وعلى مقاعد التقييم والتشريح والنقد لإخفاقات السُلطة.

وإذا كانت المُعارضة دوماً (مثالية).. فإن السلطة تُمارس بطبيعتها أعلى درجات (الواقعيّة).. وهي تخضع دوماً لضغوطات والتزامات الواقع بمستوياته السياسيّة والاقتصاديّة والأمنيّة.. فهي المسؤولة عن توفير الأمن،

وحل الأزمات السياسيّة، وتنمية الاقتصاد، وتنشيط الاستثمار، وتوفير الوظائف، وتقليص نِسب البطالة، والحد من التضخّم، وتحسين التعليم، والصحة، ومد الخدمات للقرى والأرياف، وحل مشاكل المناطق العشوائية، وما إلى ذلك من ملفّاتٍ ضاغطة على أي سُلطة سياسية.. لذلك فإن نجاح الإسلاميين في الانتخابات يضعهم أمام الخطوة الأولى في مشروع الامتحان الكبير لإثبات قدرتهم على النجاح في إدارة الدولة والمجتمع.

٥ ـ أعتقد أن الحركات الإسلامية (جماعات الإخوان وحركات ما بعد الإخوان) ستكون في المدى المنظور، وفي الدول العربيّة التي شهدت ثورات، هي الكتلة الكبرى الضامنة لمدنيّة الدولة وديمقراطيتها في ظل فضاء هوياتي مُنسجم مع المرجعيّة الإسلاميّة.. وذلك لكونها أولاً هي الكتلة السياسية الأوسع من حيث العدد.. وثانياً لوجود طرفين سياسيين.. تيارات مُحافظة من جهة ـ سواءٌ كانت تقليدية أم سلفيّة أم صوفيّة ـ مازالت تتحفظ على كثيرٍ من قواعد مدنيّة الدولة، ومشدودة إلى تطبيقات سياسية مرتبطة بالتراث.. ومن جهة أخرى تيارات علمانية (ليبرالية أو يساريّة) عند بعضها موقف حاد من تديّن المجتمع، ومن الهوية الإسلامية للدولة.. وهذا ما سيجعل من الحركة الإسلامية هي ضمانة التوازن في المجتمع، وهي التي تتحمّل مسؤوليّة ضبط إيقاع المواءمة بين الهوية والحداثة.

السلفيون.. والربيع العربي

يبدو أن أكثر التيارات الفكرية والسياسية إصابة بالصدمة، وتعرّضاً للتأثر ـ فكرياً وسياسياً ـ مما جرى في الثورات العربيّة هو التيار السلفيّ.. حيث استطاعت الثورات في لحظة تاريخيّة خاطفة أن تنقله إلى فضاء سياسي وفكري مُختلف لم يعتد عليه، وكان يتعامل معه بقدرٍ من القطيعة والتعالي، ويتعاطى مع كثيرٍ من المسائل السياسية من بوابة (الفتوى).

والتيار السلفي بطبيعته يتكون من مجموعات وشيوخ لديهم قدر من التباينات في بعض المواقف الفكرية والسياسية.. ولكنهم يتفقون في مساحة واسعة من المُشترك الفكري التأسيسي.. وهذه المساحة لها معالم واضحة ومُحددة من ناحية المُصطلحات والأدوات، وغالبها مُرتبط بشكل عضوي بالتراث السياسي في التاريخ الإسلامي المحفوظ في كتب السياسة الشرعيّة والأحكام السُلطانيّة.

ربما كان أبرز ما قامت به الثورات العربيّة على المستوى الفكري أنها (أنهت عقد ابن لادن.. ودشّنت عقد البوعزيزي).. فالعالم العربي انشغل في العقد الأخير ـ ومنذ ما قبل تفجيرات ١١ سبتمبر ـ بفكرة التغيير العُنفي للسلطة السياسية.. وهي الفكرة التي تبنّاها تنظيم القاعدة وتيارات السلفيّة الجهادية، تحت عنوان (الخُروج المُسلّح) اتكاءً على تأصيل شرعي طويل في كتب الفقه والسياسة الشرعية.. وحين انطلقت الثورات العربيّة السلميّة التي بدأت باحتجاج محمد البوعزيزي في سيدي بوزيد (الذي قرر أن يموت دون أن يعتدي على

أحد).. يكاد يكون العالم العربي قد تجاوز فكرة (التغيير العُنفي) بانتقاله إلى فكرة التغيير عبر الاحتجاج السلمي.

في عقد ابن لادن (التغيير العنفي).. كان الفكر السلفي يُجيد التعامل مع هذه المرحلة.. فهي تدور داخل فضائه التداولي.. وعنده إرث فقهي وسياسي طويل في التعامل مع هكذا حالات.. لذلك انقسم التيار السلفي من مسألة التغيير العنفي الذي شهده العالم العربي إلى:

١ ـ مجموعات ارتضت هذا السلوك.. وقدّمت له تأصيلاً ينسجم مع أرضيّتها الشرعيّة.

٢ ـ ومجموعات كان موقفها يتراوح بين القبول ببعض هذا السلوك والتحفّظ على بعضه.. كالقبول باستخدام العنف ضد الأمريكيين أو الغربيين سواء في دولهم فقط، أو قبول استهدافهم أيضاً في الدول المسلمة.. وفي الوقت نفسه رفض استخدام العنف ضد المسلمين فقط، أو رفض استخدامه في الدول المسلمة سواء كان ضد المسلمين أو غيرهم.

٣ ـ ومجموعات كانت ترفض استخدام العنف تماماً ضد الغربيين أو المسلمين وفي الدول الغربية والإسلامية على حد سواء.. ولهم في ذلك اعتبارات شرعية تفصيلية تتكئ على مسائل من مثل (احترام العهود والمواثيق) و(المصلحة الشرعية) و(وعدم الجهاد سوى خلف إمام شرعي) وسوى ذلك.. إلا أنهم لا يرفضون مبدأ (الخروج المُسلّح) كأصل شرعي.. ولكنهم يختلفون في طبيعة شروطه واعتباراته وتحقق المصلحة فيه.

لكن مع بدء مرحلة البوعزيزي (الثورات السلميّة).. وقعت هذه المرحلة عند الفكر السلفي في منطقة (فراغٍ تنظيري).. لكون التغيير السلمي ليس له تجارب تاريخيّة في تراثنا السياسي، ومن ثمّ لم يحظ باعتناء نظري في الفقه والسياسة الشرعيّة.

فالتيارات السلفيّة من أقصى (تيارات الولاء للسُلطة) وحتى (جماعات السلفيّة الجهاديّة) مرتبطة بشكل وثيق بالتراث السياسي الإسلامي بكل حمولاته ومفاهيمه من مثل: (ولي الأمر / الطاعة / الفتنة / الخروج / الشورى / البيعة ...الخ) فهي تملك نظاماً مفاهيميّاً واحداً، وقد تختلف في التقدير والأولويات والجزئيات، ولكنها تتفق في الإطار العام.. لذلك فخبرتها وإرثها النظري يُسعفها في التعامل مع القضايا التي تدور في مساحة هذه المفاهيم.. ولكنه لا يُسعفها في التعامل مع المنظومة السياسيّة الحديثة والمُركّبة بأدواتها وأفكارها.. فهي لم تنتقل بعدُ للتعاطي النظري مع فكرة (دولة المؤسسات الدستورية وفصل السُلطات).. ومازال غالب الفكر السياسي السلفي يدور في إطار (دولة مركزية بسيطة التكوين يُديرها فرد).. ونظامه المفاهيمي في السياسة مازال يدور في فضاء:

١ ـ أن على رأس السلطة هناك (وليّ أمر) تجب طاعته والصبر عليه.

٢ ـ مفهوم (الخروج على الحُكّام) على خلاف بينهم، هل يتم ذلك فقط بارتكاب الحاكم للكفر البواح.. أم يجوز الخروج عليهم بظهور الظُلم والفِسق.. لكن القضية الأهم أن (الخروج) له معنىً مُحدد وواضح في الفقه والتجربة

التاريخية، يتمثل في (الخروج المُسلّح).. وهي طريقة للتغيير العُنفي.

٣ ـ النصيحة للحاكم.. على خِلاف.. هل تكون فقط في السرّ.. أم يُمكن أن تكون في العَلَن أيضاً.. وهي بمثابة الدعوة للإصلاح.

٤ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. سواء تجاه المُجتمع، أو تجاه السُلطة السياسية.. وهي أيضاً دعوة للإصلاح.

٥ ـ البيعة.. وهي التزام أبدي بالطاعة للحاكم.

٦ ـ الفتنة.. وهي مفهوم فضفاض وغير مُنضبِط.. لكنه عمليّاً ينطوي على حمولة سياسيّة تتمحور حول فكرة: تقديم الأمن والاستقرار على الحُرية والعدالة.

كل المفاهيم السابقة هي مألوفة ولها إرث في الفكر السلفي.. وهذا بالطبع لا يعني أن موقف التيارات السلفية منها مُتشابه.. بل ثمّة اختلافات في الشروط والضوابط وتقديرات المصلحة وسواها.. ولكنها مفاهيم مستقرة في الفكر السياسي السلفي.. والمهم هنا ليس نقاش هذه المفاهيم.. بل الإشارة إلى أننا لا نجد موقعاً لـ (التغيير السِلمي للسُلطة) في هذا الفكر.

لذلك.. فمع بدء الثورات السلميّة في تونس ثم مصر، أصيب الفكر السلفي بارتباك واضح.. فهو يعرف (الخروج المُسلح) متى ما وجد كفراً بواحاً، أو الخروج على أئمة الجور.. ويعرف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وعنده

نصوص وتجارب عديدة تُحذِّر من (الفتنة).. لذلك وقعت (الثورات العربيّة السلميّة) عنده في منطِقة فراغ فقهي وسياسي.

هذا الفراغ هو المدخل الرئيس للارتباك الذي حصل في موقف الشيوخ والتيارات السلفيّة من الثورات السلميّة.. فانقسم التيار السلفي بشيوخه وجماعاته إلى:

١ ـ مجموعات رافضة للثورات السلميّة لأنها من (الفتنة) التي ورد ذكرها في كثير من تجارب التاريخ القديم والمُعاصر.. وهي لا ترى كفر الحاكم.. بل ترى أنها مُلتزمة له ببيعة شرعيّة.. أو أنه إمام مُتغلّب لا يجوز الخروج عليه.

٢ ـ مجموعات ترى أن الحاكم في هذه البلدان (كافر).. لذا هي لا تُمانع من الخروج عليه بالسلاح متى ما امتلكت القدرة عليه.

٣ ـ مجموعات توقفت في مسألة تأييد هذه الثورات.. وذلك لعدم وضوحها، ولكونها (نازلة) في فكرهم السياسي.

٤ ـ مجموعات كانت مُرتبكة في تحديد الموقف تجاه هذه الثورات السلميّة.. ولكنها قامت بتأييدها بشكل متأخر.. وذلك ـ غالباً ـ لدوافع حركية وسياسية لا لوضوح في الموقف الشرعي منها.

٥ ـ مجموعات قامت بتأييد الثورات السلميّة بشكل مُبكِّر.. لكنها لم تُحدد مبرراتٍ لهذا التأييد ينسجم مع إرثها النظري.. أو أنها ألحقت الثورات السلميّة بفكرة (الخروج على الحُكام)، رغم أن الخروج في الفقه مرتبط بالعنف والسلاح.

ويبدو الارتباك أكثر لكون هذه الثورات قامت تحت لافتة المُطالبة بـ (الحُريّة والديمقراطيّة).. في الوقت الذي تطرح فيه أدبيات التيار السلفيّ مواقف حاسمة في عدم شرعيّة النظام الديمقراطي.

ماذا أحدثت الثورات في السلفيَّة الجهاديَّة؟

إذا كان موقف التيارات السلفيّة متبايناً حول فكرة استخدام العنف في التغيير (دون نفي أصل جواز الخروج المُسلح بشروطه).. فإن التيار السلفيّ الجهادي الذي يُمثل تنظيم القاعدة أبرز تجلياته كان حاسِماً في ازدراء وتبخيس فكرة التغيير السلمي، وحازِماً في أن التغيير السياسي الجذري لا يكون سوى عبر الجهاد بالسِلاح.. وقد أنتج الفكر الجهادي عشرات الكتب والكرّاسات والمقالات والمقاطع المرئيّة التي تؤكد على شرعيّة ـ بل ووجوب ـ التغيير بالسلاح ومواجهة الحُكّام الظَلَمة أو الكفّار (يتفاوتون في إطلاق التكفير).. إلا أن الزخم التغييري والوجداني الذي أحدثته الثورات السلميّة في العالم العربي، ضرب الفكر الجهادي في فكرته المركزيّة، وأصابته بحالة فقدان للتوازن.. فأصدر أبرز قادته خطابات تحمل لغة جديدة وغير مسبوقة، تُرحب وتُشيد بالتغيير السلمي الذي يشهده العالم العربي.. وهو السلوك الذي أطلق عليه د.محمد أبورمان وصف (التكيُّف الأيديولوجي).

فزعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن رحب في رسالة سجلها قبل أسبوعٍ من مقتله ـ في ٢ مايو الماضي ـ بما أسماه (رياح التغييرٍ)، ودعا الشباب إلى الانخراط في هذه التحركات الجديدة، مؤكداً أن الهدف النهائي هو (التحرر من العبوديّة لأهواء الحُكّام والقوانين الوضعيّة والهيمنة الغربيّة).

وفي محاولة لإيجاد مساحة للتناغم بين العنف القاعدي وسلميّة الثورات العربيّة اعتبر أيمن الظواهري في رسائله التي أسماها (رسائل الأمل والبِشر لأهلنا في مصر) أن ما حصل من ثورات سلميّة وتحول ديمقراطي في مصر هو أمرٌ مُكمِّل للحرب التي تخوضها القاعدة في العراق وأفغانستان ضد الغرب والأنظمة المُتحالفة معه.. ورَفَض القيام بأي أعمال عنف أو تفجير في مصر، ولا استهداف المسيحيين الذين أسماهم (الشركاء في الوطن).

ومن جانبه رحب أبو يحيى الليبي ـ وهو المنظِّر الشرعي للقاعدة ـ في مقال له بعنوان (ثورات الشعوب بين التأثر والتأثير) بهذه الثورات السلميّة، واعتبرها فرصة سانحة يجب استثمارها.. لكنه في نفس الوقت حاول كبح جِماح الإعجاب بهذا النمط من التغيير الذي اعتبره (مُبهِراً)، عبر التحذير من الاندفاع وراء (صيحات التغيير) من غير تثبّت واستبصار.

أما أنور العولقي الذي يُعد من أبرز منظري القاعدة ـ قُتل في اليمن بغارة أمريكية في ٣٠ سبتمبر الماضي ـ فقد أكد في مقال له باللغة الإنجليزية بعنوان (تسونامي التغيير) نُشر في مجلة (الإلهام) أن ما جرى من ثوراتٍ في العالم العربي هي خطوة في الاتجاه الصحيح، حتى لو أفرزت الانتخابات فوز البرادعي أو عمرو موسى، لأن ما حصل سيمنح المجاهدين فرصة للتنفس مرة أخرى بعد ثلاثة عقود من الاختناق.

أما الشيخ الجهادي المعروف أبو محمد المقدسي، فقد أكد في سياق حديثه عن الثورة في سوريا ضرورة دعم هذه الهَبَّة الشعبيّة والانخراط في صفوف المتظاهرين.. بل اعتبر المقدسي أن المُشاركة في هذه المظاهرات السلميّة هو أمر

(متعيّن على كل قادر من المسلمين) ولو أدت المواجهات مع الأمن إلى (سقوط بعض القتلى).

هذا التحوّل النوعي في الخطاب الجهادي نتج عنه أيضاً قيام التيار السلفي الجهادي والمُتعاطفين معه بمجموعة من المظاهرات الاحتجاجيّة السلميّة في كلٍ من الأردن والمغرب للمطالبة بالإفراج عن المُعتقلين الجهاديين.. (يمكن مراجعة مزيد من التفاصيل في دراسة للدكتور محمد أبورمّان بعنوان: السلفيون الجهاديون في الأردن، ومقاربة الثورات الديمقراطية العربيّة).

إذا كانت أكثر الأيديولوجيات السلفيّة صلابة (الفكر الجهادي) شهِد هذا القدر من التغيير في الخِطاب.. فهو مؤشر إلى أننا قد نشهد فضاءً أوسع من التغيير سيطال بقية أطياف التيار السلفي في تعاطيهم مع الفكر السياسي.

ورغم قِصر المدة الزمنيّة التي تقل عن عامٍ واحد، ولأن تطوّر الأفكار بحاجة دوماً إلى حيّز زمني أوسع يُتيح لها مساحة هادئة لتبلور الرؤى والمواقف الجديدة.. إلا أنني سأحاول في السطور التالية رصد بعض التحولات الجزئية في الخِطاب السلفي بين ما كان عليه قبل الثورات العربيّة وبعدها.. ولأن محاولة رصد كل ما جرى عند التيارات السلفية في العالم العربي أمرٌ بحاجة إلى تتبع قد يطول.. سأتحدث فقط عن تجربتين.. الأولى تعرّض فيها التيار السلفي لتأثيرات هذا التحوّل الثوري عن بُعد، وهي السعودية.. والثانية عاش فيها التيار السلفي بشكلٍ مُباشر وسط مجتمعٍ شهِد تحولاً ثورياً، وهي مصر.

الخطاب السلفي في السعوديّة..

رغم وجود تيارات إسلامية في السعودية ـ كالإخوان المسلمين والإصلاحيين ـ تجاوزت الأدبيّات السياسيّة للفكر السلفي.. إلا أن موقف الخطاب السلفي السعودي من الاحتجاج السلمي والديمقراطية ظلَّ متماسكاً لعقودٍ طويلة.. فرغم التباينات الموجودة في هذا التيار، واختلاف موقفه من السُلطة السياسية من أقصى الولاء المُطلق وحتى التيار الجهادي التكفيري، إلا أن الموقف الرافض للنظام الديمقراطي بهياكله وأدواته بقي مُتقارباً.. وكانت أدبيّات التيار تطرح ذات الاعتراضات.. فهي ترى ـ كما فصلت فيه سابقاً ـ أن الديمقراطية منتج غربي لا علاقة له بتراثنا السياسي الإسلامي، ويقوم أساساً على مبدأ حكم الشعب فيما الحكم عند المسلمين للشريعة، وأن كل الناس تُشارك فيها باتخاذ القرار (العالم والجاهل وأهل الصَلاح والمُبتدعة) وليس فقط أهل الحل والعقد، وأن التصويت في الديمقراطية مُلزم، فيما الشورى مُعلمة وليست مُلزمة.. وسوى ذلك من اعتراضات.

وفي السعوديّة هناك العديد من الفتاوى والمقالات والكُتب التي تصبُّ في هذا الاتجاه.. فثمّة فتاوى لجملة من العلماء، وخطابات لبعض الدعاة، ومقالات لعددٍ من المثقفين المنتمين للتيار السلفي كلها تكرر ذات النقد الموجه للنظام الديمقراطي، وكانت بعض الكتب من مثل (الإسلاميون وسراب الديمقراطية) للدكتور عبدالله الدلال، و(حقيقة الديمقراطية) للأستاذ محمد شاكر الشريف، و(نقض الجذور الفكرية للديمقراطية الغربية) للدكتور محمد أحمد مفتي،

وسواهم، تُمثل الموقف التأسيسي من الديمقراطية عند التيار السلفي.. وكان الموقف الحاد من النظام الديمقراطي يتردد دوماً على لسان عددٍ من أبرز شيوخ السلفيّة الحركية.. فمثلاً وصف الشيخ سفر الحوالي الديمقراطية بأنها (كُفر)، وقال: (فالتحكيم الديمقراطي هو اتباعٌ لأهواء الذين لا يعلمون، أما نحن فإنما أمرنا (وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ) [المائدة: ٤٩] فديننا والحمد لله هو تحكيم كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما هذه الديمقراطية فهي كفر وشرك كما بيّنا).. ومن جانبه وصف الشيخ ناصر العمر الديمقراطية بأنها (تمرُّدٌ على حُكم الله الذي لا حُكم مقبولٌ عنده سبحانه إلا حُكمه).. لذلك لا تكاد تجد أحداً محسوباً على الفكر السلفي في السعوديّة ويقول بشرعيّة النظام الديمقراطي.. حتى إن أحد الباحثين قام بجمع تسع مواد مطولة (دراسات وكتب) لرموز فكرية وشرعيّة سلفيّة، ووضعها في ملفٍ واحدٍ أطلق عليه اسماً يُعبِّر عن صرامة الموقف الرافض للديمقراطية، وهو (تحطيم الصنم الديمقراطي).

أما الموقف من فكرة الانتخابات ـ وهي من المبادئ الأوليّة للديمقراطية ـ فيبدو الموقف التأسيسي السلفي رافضاً لها.. ففي حين أصدر بعض العلماء مواقف واضحة في تحريم فكرة الانتخابات (من أمثال الشيخين عبدالرحمن البراك وصالح الفوزان)، كانت الكتابات الأخرى لا تصل إلى مستوى (التحريم).. ولكنها كانت تؤكد على أمرين اثنين:

الأول: أن الانتخابات التي تكون لعموم الناس (العالم والجاهل، والسني والمُبتدع، والصالح والمُنحرف) ليست الوسيلة الشرعية في اختيار المسؤولين، لكن دون أن توصف

بالتحريم.. الثاني: أنه تجوز المشاركة في الانتخابات تقديراً للمصلحة المترتبة على ذلك، كي لا يُترك المجال لهيمنة الخصوم السياسيين، أكانوا إسلاميين أم علمانيين.

ووفق هذا التقسيم.. نجد عشرات الكتب والمقالات والفتاوى التي تحمل ذات المعنى.. فمن الناحية التأسيسية فإن الانتخابات ليست الوسيلة الشرعية للاختيار في النظام الإسلامي.. لذلك لا تكاد تجد أي دراسات أو بحوث في الوسط السلفي السعودي تصل إلى نتيجة مفادها: مشروعية الانتخابات.. وحين قدّم الباحث فهد العجلان رسالته للماجستير حول (الانتخابات وأحكامها في الفقه الإسلامي) قام بعمل رصدٍ للموفق الشرعي من الانتخابات.. ومن خلال هذا الرصد تبين أنه ـ في الوسط السعودي ـ في الوقت الذي يُصرِّح قلّة من العلماء (كالبرّاك والفوزان) بحُرمة فكرة الانتخابات، فإن غالبية الحالة الشرعية في السعودية التزمت الصمت تجاهها من ناحية (التحريم والتجويز)، بحيث لم تصدر أي فتوى أو دراسات تُقدّم تشريعاً تأسيسياً (أي ليس تحت لافتة جواز المُشاركة لاعتبارات المصلحة) لعمليّة الانتخابات.. وإذا كان بالإمكان الاستنتاج أن هذا الصمت يعني تجويزاً من حيث الأصل (الأصل في الأشياء الإباحة)، إلا أن هذا الصمت عن إطلاق حكمٍ شرعي (حلال أو حرام) كان يُصاحب عادة بموقف نقدي دائم لفكرة الانتخابات باعتبارها نتاجاً للنظرية الديمقراطية، وأنها ليست الطريقة الشرعيّة للاختيار في نظام الحكم الإسلامي.

بل إن الباحث فهد العجلان، الذي أصدر دراسته مؤخراً (عام ٢٠٠٩م) ـ وتُعتبر الأكثر انفتاحاً في الوسط السلفي ـ وأكد

فيها مشروعية فكرة الانتخابات، ربط كثيراً من تطبيقات هذه الفكرة بوجود المصلحة (وهي قضيّة تقديريّة، فقد يرى الحاكم مثلاً أن لا مصلحة بها).. فهو يرى أنه يمكن للحاكم أو الجهة المسؤولة أن تمنع (أهل البِدع والأهواء، والفاسق، والجاهل، والمرأة) من المشاركة في الانتخابات ـ كناخبين فضلاً عن مرشحين ـ إذا كان في ذلك مصلحة، أو ترجّح أن في مُشاركتهم مُخالفة شرعيّة.. وبالطبع لعدم وجود معايير مُتفق عليها لمن يوصفون بهذه الأوصاف، فستكون هذه الصلاحية الممنوحة للسُلطة أكبر مدخلٍ لفرز المجتمع على أساس فكري وسياسي، وتغييب شرائح واسعة ـ وربما الأغلبيّة ـ من المُشاركة في القرار.. بل إن الباحث وصل لنتيجة مفادها: أنه في حال جرت انتخابات برلمانية، فإنه يجوز للحاكم ـ وفق شروط حددها ـ أن يُلغي نتيجة الانتخابات، ويختار أشخاصاً آخرين يراهم أكثر كفاءة في تولي هذه المواقع!

وإذا أردت الاستشهاد بنموذجٍ يُبيّن طبيعة الموقف السلفي الناقد لفكرة الانتخابات، باعتبارها تقوم على مبدأ المساواة بين العالم والجاهل ...إلخ.. فسأذكر نموذجين اثنين لشخصيتين لهما حضور واسع في الوسط السلفي الحركي في السعوديّة، وقد أصدرا موقفيهما حديثاً في حدود السنتين الأخيرتين قبل اشتعال الثورات العربيّة.. ففي كتابه (حقيقة الليبرالية) الصادر عام ٢٠٠٩م.. أخذ د.عبدالرحيم صمايل السلمي ـ أستاذ العقيدة في جامعة أم القرى ومدير مركز تأصيل للدراسات ـ موقفاً صارماً في رفض النظام الديمقراطي بما يحتويه من انتخابات، وبرلمان، وأحزاب سياسية.. وكان مما قاله عن الانتخابات تحديداً: (تظهر أزمة الديمقراطية في

الانتخابات من ناحية أن الناخبين ليسوا على مستوى واحد في المعرفة والبصيرة، فالمساواة بين صوت العالم والجاهل، والحكيم والسفيه، مساواة في غير محلها، ولهذا فإن الناخبين عُرضة للتضليل، وأساليب الغش والخِداع والرشوة التي تلجأ لها الأحزاب لشراء أصوات الناخبين.. وهذا ما يقضي على الميزات الفرديّة، والمواهب والقدرات.. والتسوية بين الأفراد في الانتخابات مُنافية للفطرة والعقل الذي يُميّز بين العالم وغير العالم، والمتخصص وغير المتخصص).

أما د.بندر الشويقي ـ المُحاضر في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود ـ ففي مقالٍ له بعنوان (لا.. لأوثان البشر، ولا..لأوثان أفكارهم) كتبه بتاريخ ٦ / ١٢ / ٢٠٠٨م، رداً على د.محمد الأحمري ـ الذي يرى بشرعيّة النظام الديمقراطي ـ قال فيه مُستشهداً بعلي شريعتي: (قديماً كان د.علي شريعتي يكتب منتقداً عيوبَ النظام الديمقراطي، ويصفه بأنه «نظامٌ هزيلٌ وخطير». وكان يقول: إن «من السَّطحية بمكانٍ أن نفترض أن السوادَ العام من الجماهيرِ الذي يُشكل أكثريةَ الأصواتِ، ينتخبون مرشحيهم على أساس دراسةٍ دقيقة لشخصية المرشَّحين».. كان علي شريعتي يقول هذا الكلام في وقتٍ لم تكثرْ فيه الكتابات الفاحصة للفكرة الديمقراطية بالصورة الموجودة اليومَ. فكانَ نقده المبكر دليل نظرةٍ ثاقبةٍ، وعقلٍ راجحٍ، استطاعَ به أن يميز بين المَظهر والمَخبر. فموقف الناخب الأمريكي لا تحدِّده معرفته ودرايته بكفاءة المرشَّح الذي سوف يعطيه صوته، لأنه ـ باختصارٍ ـ لا يعرف شيئاً عن هذا المرشَّح إلا من خلال حديثه عن نفسه في خطبه الانتخابية، أو من خلال برامج إعلامية وإعلانات مدفوعة الثمن تشبه الإعلانات

التجارية، تحاول استمالة الأصوات إلى أحد الطرفين. فمن المجازفة القول بأن السبعين مليوناً الذين انتخبوا «أوباما» فعلوا ذلك عن درايةٍ بكفاءته السياسية).

وكما ورد في هذين الموقفين.. فإننا لا نكاد نجد كتاباً أو مقالاً يتحدث عن النظام الديمقراطي لكاتبٍ محسوبٍ على التيار السلفي، إلا وتجده أورد نفس هذا الاعتراض.. وإذا كان هذا الموقف من فكرة الانتخابات (وهي من أبسط مبادئ الديمقراطية وأقلها رفضاً عند التيار السلفي) فإن طبيعة الاعتراضات التي ترد على بقية مكونات النظام الديمقراطي (كفصل السُلطات، والتعددية الحزبيّة، وتداول السُلطة، واحترام إرادة الناخبين أياً كانت النتيجة، وسوى ذلك) تكون عادة أكثر جذريّة ورفضاً.

لذلك يبدو مفهوماً ما تتضمّنه فتاوى شخصيات رمزيّة كبيرة في الوسط السلفي مثل الشيخ عبدالرحمن البراك من موقف رافض لفكرة الانتخابات.. فقد ورد في إحدى فتاواه الحديثة الصادرة حديثاً في ٩ / ١٠ / ٢٠١١م ما يلي:

(أما اختيار الإمام فهو من شأن أهل الحل والعقد وأهل الشوكة لا عامة الناس، كما هو المتبع في نظام الانتخاب، وهو نظامٌ فاسدٌ لم يُبنَ عند الذين أخذوا به من المسلمين في هذا العصر على نظرٍ شرعي ولا عقلي، وهو دخيلٌ عليهم من أعداء الإسلام، بسبب احتلالهم أرضهم، والإعجاب بطرائقهم.. فاعتماد نظام الانتخاب لاختيار المرشّح للرئاسة أو عضوية مجلس من المجالس القيادية حرامٌ.. للأمور الآتية:

١ ـ اشتماله على التشبه بالكفار، ولهذا فهم يرضونه منا، ويدعوننا إليه، ويفرحون بموافقتنا لهم فيه.

٢ ـ ارتكاز نظام الانتخاب على الدعاية وشراء الأصوات والدعاوى الكاذبة.

٣ ـ أن المعوَّل في هذه الانتخابات على كثرة الأصوات من مختلف طبقات الشعب وفئاته، مما يتضمن التسوية في هذا بين علمائهم وجهالهم، ورجالهم ونسائهم، وعقلائهم وسفهائهم، وصلحائهم وفساقهم، مما هو مخالف للعقل والشرع.

٤ ـ وبعد هذا كله قد لا يكون فرز الأصوات نزيهاً، بل يكون للرشاوى والوعود في هذا أثر كبير.

هذا ومن أسوأ ما دخل على المسلمين من طرائق الكافرين ما دخل عليهم في شأن المرأة، وكان هذا موضع اهتمام الأمم والهيئات الكافرة، لما يعلمونه من عِظم تأثير ذلك في تغريب مجتمع المسلمين، وتغييره بسلب خصائِصه، كما عُلِمت هذه الحقيقة من واقع البلاد التي وقعت تحت وطأة الاستعمار «الاحتلال النصراني».. والله أعلم).

وفي ذات اليوم الذي هرب فيه الرئيس زين العابدين بن علي (١٤ يناير)، وجّه الشيخ عبدالرحمن البرّاك خطاباً إلى أهل تونس، يدعوهم فيه إلى تحكيم شرع الله، وحماية الممتلكات العامة، وكان مما قال: (هذا وإنكم في الأيام القادمة ستُبتلون بالانتخابات).

وبالطبع ليس جميع التيار السلفي يقول ـ كما الشيخ البرّاك ـ بحُرمة الانتخابات.. إلا أن غالبيته الساحقة تتفق مع البرّاك في نقد لفكرة الانتخابات، ورفض اعتبارها وسيلة لاختيار المسؤولين في نِظام الحكم الإسلامي.

يمكن الجزم أن الثورات العربيّة حفرت عميقاً في وجدان الشعوب العربيّة.. وامتد هذا التأثير إلى حيّز بناء الأفكار والتصوّرات.. والفكر السلفي في السعوديّة شهِد من جانبه على وقع هذه الثورات تطوراً ملحوظاً في تعاطيه مع عدة ملفات سياسية وفكريّة.. وخصوصاً في قضايا الحُريات، والديمقراطية، ووسائل الاحتجاج السلمي، وتزايد الاهتمام بالإصلاح السياسي.

ففي الوقت الذي أبدى فيه غالبية شيوخ السلفيّة التقليديّة تحفظهم على ما يجري من ثورات سلميّة في العالم العربي - ربما لاقتراب كثيرٍ منهم من السُلطة -.. رحب كثيرٌ من الشيوخ والدُعاة المحسوبين على السلفيّة الحركيّة بالثورات العربيّة.. ورغم أن هذه الثورات رفعت شعار الحُريّة والديمقراطيّة، إلا أنها لقيت من هؤلاء الشيوخ تأييداً ومساندة، حيث اعتبروها ثوراتٍ على الظُلم، وطريقاً لتحرر الشعوب من الاستبداد، وسبيلاً لاقترابها من تطبيق الشريعة.. خاصة أن كثيراً منهم يرى أن الأنظمة التي ثارت عليها الشعوب هي أنظمةٌ كافرة.. ومن ثمّ يجوز الخروج عليها.

وكان من ملامح هذا التطوّر في الوسط السلفي السعودي، اتساع مساحة الاهتمام بالإصلاح السياسي، وتبني قضيّة المُعتقلين دون محاكمات.. ومن جهة أخرى تطوّر الموقف من النظام الديمقراطي بآلياته وأدواته.. فشاركت بعض الرموز السلفيّة - كالشيخ يوسف الأحمد وكثيرين سواه - في التوقيع على ما يُمكن اعتباره أهم وثيقة سياسية صدرت مؤخراً، وأكثرها شعبيّة وانتشاراً (وثيقة دولة الحقوق

والمؤسسات)، التي تبنّت بوضوح مَطَالب مُتقدمة في النظام الديمقراطي، كتأسيس برلمان مُنتخب يحق له تشريع القوانين، ومُحاسبة المسؤولين وعلى رأسهم رئيس الوزراء الذي يجب أن يحظى بثقة البرلمان قبل تعيينه.. وإطلاق حريّة التعبير وإبداء الرأي في المجتمع.. وفسح المجال لتأسيس مؤسسات المجتمع المدني كالجمعيات والنقابات.. وسوى ذلك من مطالب.. وتلا هذه الوثيقة صدور بيانٍ آخر وقع عليه مجموعة من رموز التيار السلفي، وتضمّن تأييداً لمَطَالب وثيقة دولة الحقوق والمؤسسات.

أيضاً شهد الوسط السلفي السعودي مواقف مُتقدمة من بعض أبرز الشيوخ في قبول النظام الديمقراطي.. ففيما كان الموقف السابق للشيخ سفر الحوالي بأن الديمقراطية (كفرٌ وشِرك).. أبدى الحوالي لغة مُختلفة ومتطورة تجاه الديمقراطية تحمل كثيراً من الإشادة، وذلك في خِطابه الذي ألقاه بالنيابة عنه النائب السلفي الكويتي وليد الطبطبائي في مؤتمر (ولدنا أحراراً) الذي عُقِد بتونس في ١٥ ديسمبر ٢٠١١م.. حيث قال الحوالي في سياق تشخيصه للواقع العربي قبل الثورات: (بينما معظم شعوب العالم تحوّلت إلى الحُريّة والديمقراطيّة (...) وحدها الدول العربيّة باتت بعيدة عن رياح الديمقراطيّة والحُريّة، وتحوّلت الجمهوريات إلى بلدان وراثيّة ترِث البِلاد والعِباد).. ودعا الحوالي بقيّة الدول العربيّة التي لم يزرها الربيع العربي إلى: (أن تأخذ العِبرة مما جرى، وأن تتصالح مع شعوبها، وأن تقوم بإصلاحات شاملة، وأن تفتح المجال لقيام أحزاب سياسيّة ونقابات مهنيّة، وأن تُقيم انتخابات حُرّة ونزيهة).

ورغم كثرة الحوارات التي تمّت في الوسط الشرعي السعودي حول الديمقراطية أثناء تداعيات الربيع العربي.. إلا أن المُتابع لها لا يكاد يجدُ أحداً (باستثناء بعض كبار السن من الشيوخ التقليديين) مازال يتحدث بذات الموقف النقدي من فكرة الانتخابات، وتداول السُلطة، والعمل الحزبي، وفصل السُلطات.. حيث تمّ ضِمنياً القبول بهذه المسائل.. وانتقل الحوار والسجال إلى منطقة متقدمة في تكوين النظام الديمقراطي، يمكن اعتبارها أقرب للخلاف النظري الذي لا يترتب عليه شيء على أرض الواقع.. وهي القضيّة التي تتمحور حول سُلطة الشعب واحترام قرار الأمة فيما لو اختارت تنحية الشريعة.

بل إن قضية مثّلت في دولة تتقدم على السعودية بعقودٍ في انفتاحها الاجتماعي والسياسي - وهي الكويت - منطقة صراعٍ شرسٍ امتد لسنين بين تياراتها الفكرية والسياسيّة.. وأعنيّ قضية مشاركة المرأة في البرلمان.. مرّت في الوسط السعودي بهدوءٍ غير مُتوقّع.. وتم إقرار دخول المرأة لمجلس الشورى والمجالس البلديّة دون أي جدلٍ أو صراع يستحق، مُقارنة بحجم القرار.

ورغم هذا التطور الملحوظ في قبول غالب آليات النظام الديمقراطي، إلا أن التأزم من مُصطلح الديمقراطية مازال حاضراً عند بعض المجموعات السلفيّة، خصوصاً تلك التي تخوض دوماً معارك سجاليّة مع المُخالفين.. فتجدهم يقبلون بالانتخابات، وبفصل السُلطات، وبتداول السُلطة، وبقيام أحزاب سياسيّة، بل وبمشاركة المرأة في الانتخابات، ومع ذلك مازالوا يقولون: نحن ضد الديمقراطيّة!

ويمكن الإشارة إلى نموذج واحد لهذا التأزم من مصطلح الديمقراطيّة، وذلك في البحث الذي أعده الباحث ابراهيم السكران بعنوان (مفاتيح السياسة الشرعيّة) ونشره بتاريخ ٢٨ / ١١ / ٢٠١١م.. وقد أجاد الباحث في توصيف طبيعة الضغط الذي يشعر به هو وبقيّة المُنتمين للفكر السلفي من السؤال الذي يوجه لهم دائماً: إذا كنتم ترفضون الديمقراطيّة، فما بديلكم؟.. حيث قال السكران في مُقدمة بحثه: (والحقيقة أنني هممت بالكتابة حول هذه الإشكالية ـ يقصد سيادة الأمة ـ وتاريخها وعلاقتها بقواعد السياسة الشرعية، إلا أنني حين بدأت بالكتابة فعلاً، بدأ يقاطعني السؤال المتكرر الذي صِرت أسمعه من عددٍ من القراء الكرام، وهو قولهم: «إذا كنتم تنتقدون الديمقراطية وسيادة الشعب والحريات الليبرالية فما هو البديل السياسي الذي سيقدمه الإسلاميون إذاً؟ ما الذي تريدون بالضبط؟».. صِرت أتعرّض لِلَكَمات هذا السؤال في كل مرةٍ أستعرض فيها الموقف الشرعي النقدي تجاه المفاهيم السياسية الغربية.. وكنت سابقاً أجيب القارئ الكريم بكل اختصار: أننا نطمح إلى «السياسة الشرعية».. فيعاودني السؤال مرة أخرى: «وماذا تقصدون بالسياسة الشرعية؟».. وهكذا صِرتُ مُحاصراً بهذا السؤال في كل مرةٍ أحاول فيها المشاركة بنقد المفاهيم السياسية الغربية.. ولذلك تفاجأت بنفسي هاهنا مضطراً لتقديم تلخيصٍ مكثف لمفهوم «السياسة الشرعية» الذي يتطلع إليه الإسلاميون، على شكل مفاتيح.. وبعدما أنتهي من عرض هذه المَعَالِم العامّة، والتخلص ـ ولو نسبياً ـ من ضغط سؤال: «وما هي السياسة الشرعية التي تطالبون بها؟».. سأعود ـ بإذن الله ـ بعد عدة أيام وسأطرح ورقة أخرى نتناقش فيها سوياً حول مفهوم «سيادة الشعب»).

بعد هذا التشخيص لطبيعة الضغط الذي يتعرّض له الوسط السلفيّ عبر مُطالبتهم الدائمة بتقديم بديل سياسي إذا كانوا يرفضون الديمقراطيّة.. قرر الباحث ابراهيم السكران أن يقدِّم النظريّة السياسيّة للحكم في الإسلام، والتي أسماها «السياسة الشرعيّة» (وهو مصطلحٌ فقهيٌ عام يُطلقُه الفقهاء على كل ما يخص تدبير شؤون الحكم وإدارة المجتمع، سواء ورد به نصٌ أم لم يرِد).. ولكن القارئ لهذه الدراسة الطويلة ـ أكثر من ستين صفحة ـ يُفاجأ بأن الباحث بذل جهداً كبيراً في التقاط عشرات النصوص والشواهد والنقولات، وذلك بهدف التدليل على عدة مسائل.. أهمّها:

١ ـ شرعيّة أن تكون الانتخابات ـ أو الشورى ـ لجميع الناس لا لفئة خاصة.. وأن البرلمان المُنتخب هو الذي يُمثل «أهل الحلّ والعقد».

٢ ـ شرعيّة أن تُتخذ القرارات بتصويت الأغلبيّة.. وشرعيّة أن يكون قرار الأغلبيّة في البرلمان مُلزِماً للحاكم وليس مُعلِماً فقط.

٣ ـ شرعيّة مُشاركة المرأة في الانتخابات.

٤ ـ شرعيّة مبدأ «تداول السُلطة»، بحيث لا يبقى الحاكم في السُلطة مدى الحياة، بل لمُدّة مُحددة.

٥ ـ شرعيّة مبدأ «فصل السُلطات».

لذلك أظن أن الباحث لو تخلّص من حساسية المُصطلح.. وقام بتسميّة بحثه (شرعيّة آليات النظام الديمقراطي) لكان أكثر دقةً وانضباطاً.

أحسب أنه يُمكن الحديث اليوم عن أن غالب الرموز المؤثرة في التيار السلفي السعودي (ومن السلفيّة الحركيّة تحديداً) تجاوزت عملياً مسألة الحديث عن شرعيّة الانتخابات، والعمل الحزبي، وتداول السُلطة، وفصل السُلطات.. وهو تطور ملحوظ وإيجابي ويستحق الإشادة.. وأن المساحة التي مازالت تُمثِل عندهم منطقة استشكال وخِلاف هي تلك التي تتعلّق بسقف الصلاحيات الممنوحة للبرلمان، وفيما إن كانت ثوابت الشريعة تُمثِّل مواد فوق دستوريّة (غير خاضعة للتصويت) أم ستبقى ضِمن مواد الدستور.

الخطاب السلفي في مصر..

لكون التيار السلفي بطبيعته متنوّعاً ولا يُمكن اختزاله تحت إطار حركي واحد ـ كما الإخوان ـ فإن البحث عن موقف التيار السلفي المصري تجاه أي قضية يتطلب ابتداءً معرفة تشكيلات هذا التيار، ورموزه، والحيثيّة الشعبيّة لكل طرف.

قبل الثورة.. كان المشهد السلفي ينقسم إلى إطارين: جمعيات أو جماعات، ورموز شرعيّة مُستقلّة.. في القسم الأول يجد الراصد لطبيعة الحضور الجماهيري في الوسط السلفي المصري أن مجموعة (الدعوة السلفيّة بالإسكندرية) التي تشكلت في سبعينيّات القرن العشرين، يمكن أن تكون الإطار الأكثر شعبيّة في الوسط السلفي، ولها حضور واسع في كل المحافظات المصريّة.. تليها جمعيّة (أنصار السنة المحمديّة) التي تشكلت في عشرينيات القرن العشرين.. و(الجماعة الإسلامية) التي تشكّلت أيضاً في سبعينيّات القرن العشرين.

أما على مستوى الشخصيات الدعوية التي تحظى بحضور جماهيري في الوسط السلفي، فهناك العديد من العلماء والدعاة ذائعي الصيت، بعضهم ينتمي لإحدى التشكيلات الدعوية السابقة، والبعض الآخر مُستقل.. من أمثال أبو إسحاق الحويني، ومحمد حسين يعقوب، وياسر برهامي، ومحمد إسماعيل المقدَّم، ومحمد حسّان، ومحمد عبدالمقصود، ومصطفى العدوي.. وسواهم.

بعد الثورة.. انقسم المشهد السلفي المصري في الموقف من تشكيل أحزاب سياسيّة.. ففيما بقيت جمعيات وشخصيات سلفيّة على الموقف الرافض للعمل الحزبي (كجمعيّة أنصار السنة المحمديّة).. قررت جمعيات وشخصيات سلفيّة أخرى تشكيل أحزاب سياسية.. وكان كلُ حزبٍ منها يُمثل امتداداً لاتجاه أو مجموعة سلفيّة سابقة.. فحزب النور ـ وهو الأوسع انتشاراً ـ يُمثل واجهة سياسيّة للدعوة السلفيّة بالإسكندرية.. وحزب الأصالة، يُمثل شخصيات دعوية في القاهرة هي أقرب للسلفيّة الحركيّة.. وحزب البناء والتنمية، يمثل الجماعة الإسلامية.

الانتخابات البرلمانية بدورها استطاعت أن تُعطي مؤشراً لطبيعة الأوزان الجماهيرية لكل واحدٍ من هذه الأحزاب.. فإذا كان التيار السلفي بمجموعه قد حصل في الانتخابات النيابيّة الأخيرة على ما يزيد عن ١٢٠ مقعداً.. فإن ٩٠٪ من هذه المقاعد كانت من نصيب حزب النور.. والبقيّة موزعة بين حزب الأصالة وحزب البناء والتنمية.

وبعد هذا العرض الموجز لتنوّع المشهد السلفي في مصر.. وارتباطاً بالاستعراض السابق لطبيعة تعاطي الفكر السلفي مع فكرة الاحتجاج السلمي.. يأتي السؤال عن المواقف التي اتخذتها هذه التشكيلات السلفيّة من ثورة ٢٥ يناير؟

١ ـ (الدعوة السلفيّة بالإسكندرية) التي هي بتكوينها أقرب للسلفيّة الألبانيّة منها للسلفية السعوديّة التقليديّة أو الحركيّة.. كان لها موقف واضح وحازم في رفض المشاركة بمظاهرات ٢٥ يناير.. وقد تكرر هذا الرفض عدة مرات..

سواء عبر البيانات الرسميّة، أو على لسان أبرز شخصيات هذه الدعوة.

أول موقف علني تضمّن رفضاً للمشاركة في مظاهرات ٢٥ يناير جاء على لسان المتحدث الرسمي باسم (الدعوة السلفيّة بالإسكندرية) الشيخ عبدالمنعم الشحّات.. الذي قدَّم في محاضرة له بتاريخ ١٦ يناير نقداً قاسياً للمجموعات الشبابيّة التي دعت إلى هذه الاحتجاجات.. حيث قال: (هناك شباب أهوج يحركه الإنترنت يُريدون أن يشعلوا البلد بضغطة زر ضمن مؤامرات كبيرة جداً) ..ثم تحدث عن أن هناك من يُشعل الحرائق عمداً في بلاد المسلمين، وأن هناك من يريد أن يُخرج الشباب المُسلم والشباب السلفي خاصة من اهتماماته إلى الاهتمامات التي يسهل تحريكها.. ثم أضاف: (ونحن نؤكد، لا نقول لن نبذل دماءنا، بل ولا دقيقة من حياتنا ـ أي في هذه المظاهرات ـ ونرفض أن نكون وقوداً لغيرنا).

وفي يوم ٢١ يناير صرّح الشيخ د.ياسر برهامي ـ الذي يُعد الشخصيّة الأبرز في الدعوة السلفيّة بالإسكندرية ـ في إجابة له عن سؤالٍ حول حكم المشاركة في مظاهرات ٢٥ يناير.. قائلاً: (فرغم تعرض الدعوة لحملات الطعن والاتهامات الكاذبة، إلا إننا انطلاقًا مِن تمسكنا بديننا وشعورنا بالمسئولية تجاه بلادنا، وحرصاً على مصلحتها، وتقديماً وتغليباً لأمن العباد والبلاد في هذه الفترة العصيبة، وتفويتاً لمقاصد الأعداء التي تهدف إلى نشر الفتن، نرى عدم المشاركة في تظاهرات الخامس والعشرين من يناير، وكلام المشايخ واضح جداً في ذلك، والأوضاع مختلفة بين مصر

وتونس).. وأضاف برهامي: (وأقول للإخوة الأحباب الذين يدعون الشباب للمشاركة، خاصة الذين لا يعيشون بيننا، لو كنتم بمصر لكان عليكم ألا تتخذوا موقفاً انفرادياً دون الرجوع لمشايخ الدعوة، فكيف وأنتم غائبون؟) ..ثم أكد الشيخ ياسر برهامي أن هذا الموقف يُمثّل جميع شيوخ الدعوة السلفيّة بالإسكندريّة، وربما خارجها: (والمشايخ في الإسكندرية جميعهم ـ بعد تشاورهم ـ متفقون على ما ذكرته في إجابتي، وما أظن غيرهم خارجها يخالفهم).

ثم في يوم جمعة الغضب (٢٨ يناير)، ومن على مِنبر الجمعة، حذّر الشيخ عبدالمنعم الشحات ـ المتحدث الرسمي باسم الدعوة ـ مرة أخرى من الهَرَج والمَرَج والفوضى، وحذّر من دُعاة الحُريّة الذين يريدون حُريّة الكفر، وقال إن على المسلم أن يرضى بظُلم نفسه الذي وقع عليه، ويرفع يديه إلى السماء ليسأل الله عزوجل أن يُفرّج عنه هذا الظلم، وأن يُبدله بصبره خيراً في الآخرة.

وفي يوم ٣٠ يناير صدر أول بيان رسمي باسم الدعوة السلفيّة بالإسكندرية، وتحدث البيان عن عمليات النهب والتخريب التي حصلت بعد جمعة الغضب ٢٨ يناير، وطالب الأهالي بحماية المُمتلكات.. وفي يوم ٢ فبراير نُشر البيان الثاني باسم الدعوة السلفيّة، وتحدث عن وجوب المُحافظة على الدماء والأعراض، والتصدي للعِصابات الإجرامية، ودعا إلى التوبة الجماعيّة والاعتصام بذكر الله.

وفي يوم ٢ فبراير نُشر بيانٌ آخر باسم الدعوة السلفيّة، تضمّن تأكيداً على هوية مصر الإسلاميّة.. وأكد على ضرورة إنهاء الفوضى، وحذّر من أن غياب الشرطة أدى إلى مفاسد

كبيرة، وأن استمرار الفوضى ربما يؤدي إلى غياب مرافق أخرى في الدولة، كالتجارة الداخليّة، والتموين، والتجارة الخارجيّة، واحتياطيات البلاد من الغذاء والدواء ...الخ.. وأيضاً ستؤدي إلى: (التقاتل، وسفك الدماء، وانتهاك المُحرّمات، سوف تكون هي النتيجة للتغيير الذي يعقبه فراغ، خاصة مع غياب قيادة للمظاهرات، وعدم توحد الأحزاب السياسيّة، فمن يدفع البلاد لمزيدٍ من الفوضى بحجة التغيير مع كل ما ذُكر، سيتحمّل نتائج ذلك كله أمام الله عز وجل) ..ثم طالب البيان بالقبول بإجراء إصلاحات عاجلة لإنقاذ الموقف، على أن تكون فترة انتقالية تمهيداً لانتخابات حرة.. وتتمثل الإصلاحات العاجلة في: (١ ـ إلغاء قانون الطوارئ.. ٢ ـ السعي إلى تعيين الأكفاء الذين يتقون الله في جميع الوزارات والمصالح.. ٣ ـ محاربة الفساد المالي والقانوني.. ٤ ـ إصلاح التعليم وتسليمه إلى أيدٍ أمينة.. ٥ ـ إصلاح جذري للإعلام.. ٦ ـ رفع الاضطهاد الأمني الذي يتعرّض له الإسلاميون).. وكان هذا البيان آخر ما صدر باسم الدعوة السلفيّة بالإسكندرية حتى الإطاحة بالرئيس مبارك في ١١ فبراير.

٢ ـ أما (جمعيّة أنصار السنّة المحمديّة) فقد أصدرت بياناً واحداً بتاريخ ٢ فبراير، دعت فيه المُتظاهرين للعودة إلى منازلهم.. ومما ورد في البيان: (لا شك ـ أيها العقلاء ـ أن ما آل إليه أمر البلاد في هذه الأيام أحزن القلوب، وأراق الدموع، كيف لا؟ وقد دمرت منشآت، ونُهبت أموال، وأريقت دماء، وعم البلاد الخوف والذعر والرعب، حتى شمت العدو، وبكى الصديق.. فهل آن الأوان أن نستجيب

لنداء الرحمن ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾؟ هل آن الأوان أن نرجع إلى بيوتنا بعد أن سُمِعت أصواتنا، وعُرِفت مطالبنا؟ هل لنا أن نعطي الحكومة الجديدة الفرصة لتحقيق مطالبنا؟ هل لنا أن نُفوِّت الفرصة على أعدائنا وأعداء وطننا؟ هل لنا أن نستجيب لربنا؟).. وأضاف البيان: (عودوا إلى بيوتكم، واحرصوا على سلامتكم وسلامة وطنِكم، ارحموا الصغير والكبير، والأرملة والمسكين، وفَوِّتوا الفرصة على من سَعِد بمُصابكم).

٣ ـ (الجماعة الإسلامية) بدورها لم تُصدر طيلة أيام الثورة (من ٢٥ يناير وحتى تنحي الرئيس) سوى بياناً واحداً، يدعم ويُشيد بالحوار الذي جرى بعد تاريخ ٤ فبراير بين نائب الرئيس عمر سليمان وقوى المعارضة.. وذكر البيان أن من أسباب دعوتهم لقبول الحوار: (خاصة أن الملفات التي أثيرت في الحوار كانت مناطق محظورة لا يجوز الاقتراب منها)، وهو ما اعتبره البيان بادرة إيجابيّة.

من جانبه نشر المُنظِّر الشرعي للجماعة الإسلاميّة الشيخ د.ناجح إبراهيم مقالاً بتاريخ ٣ فبراير بعنوان (ارحموا عزيز قوم).. دعا فيه إلى تصديق الكلمة (المؤثرة) للرئيس حسني مبارك، التي ألقاها في ليلة ٢ فبراير وقال فيها إنه لن يترشح لفترة رئاسية أخرى، وأنه يُريد أن يموت على أرض مصر.. ودعا الشيخ ناجح إبراهيم إلى الثقة في نائب الرئيس عمر سليمان الذي هو بمثابة الرئيس الفعلي للبلاد، وأثنى على خِبراته السياسيّة الداخلية والخارجية.. ودعا إلى إتاحة الفرصة للإصلاح، وعدم تصديق من يقول إن خِطاب الرئيس عبارة عن خدعة للالتفاف على مطالب الثوّار.. وقال أن

الرئيس قد استجاب إلى ٩٠٪ من مطالب الثوّار.. ثم طلب من المتظاهرين العودة إلى منازلهم، وعدم (العِناد)، وأن الاستمرار بالمطالبة بإسقاط النظام هو بمثابة المُزايدة في طلب المُستحيل، وأن ذلك قد يحرِق مصر ويُدخلها في الفوضى.

٤ ـ أما مواقف العُلماء والدُعاة المُستقلّين من أبناء التيار السلفي.. فكان غالبها يصب في ذات الاتجاه.. فالشيخ مصطفي العدوي له موقف ثابت من أصل عدم مشروعية المظاهرات.. حيث قال في جواب له على سؤال بهذا الخصوص: (أنصح ألا يشارك المسلمون في هذه الإضرابات لأنها لم ترِد عن رسولنا ـ ص ـ ولا أصحاب نبينا محمد ـ ص ـ).. وبعد بدء الاحتجاجات في ٢٥ يناير، خرج الشيخ مصطفى العدوي على شاشة التِلفزيون المصري ودعا المُتظاهرين إلى العودة لمنازلهم، نافياً صِفة الشهادة عن ضحايا الثورة.

أما الشيخ محمد حسين يعقوب فبدوره رفض ما يحصل في ثورة ٢٥ يناير، ووصفها بالفتن المُتلاطمة، وسمّاها (هيشات الأسواق)، ودعا الثوار للعودة إلى ديارهم ولزوم المساجد وعدم الجدل واللجاجة بشأن ما يحدث في مصر.

أما الشيخ أبو إسحاق الحويني فقد التزم الصمت طيلة فترة الثورة وحتى نهايتها، ولم يصدر عنه أي تصريح.. أما الشيخ محمد إسماعيل المقدَّم فهو من أبرز شيوخ الدعوة السلفيّة بالإسكندرية ومحسوبٌ على مواقفها.

الشيخ محمد حسّان كان له موقف متذبذب.. فكان له موقف سابق لثورة ٢٥ يناير يرفض فيه المُظاهرات والإضرابات، حيث قال: (لن تخرج أمتنا من أزمة الفقر هذه بالفهلوة، ولا بالإضرابات المُخربة التي تُسفك فيها الدماء والتي تتحطم فيها المحال والسيارات).. وبعد بداية الثورة خرج محمد حسّان في لقاءات تِلفزيونية يحذر فيها من التخريب والفوضى.. ثم في ٣ فبراير، نزل الشيخ محمد حسّان إلى ميدان التحرير، وأشاد بالشباب المتظاهرين الذين اعتبرهم يُطالبون بحقوقهم المشروعة.. واستمر يُطالب الجميع بالتهدئة والحذر من الفوضى والنهب والتخريب.

أما الموقف الذي يُمكن اعتباره مُختلفاً في الوسط السلفي المصري، فكان موقف الشيخ محمد عبدالمقصود، الذي يُعد من أبرز وجوه التيار السلفي الحركي في القاهرة.. ومن وجوه هذا التيار أيضاً الشيخان نشأت أحمد، وفوزي السعيد.. هذه الشخصيات الثلاثة شاركت في ثورة ٢٥ يناير منذ اليوم الأول، وكان لها حضور وسط ميدان التحرير، وألقى بعضهم كلماتٍ وخطباً في المتظاهرين.. وقد أصدر الشيخ محمد عبدالمقصود تسجيلاً صوتياً ـ نُشر في ٣ فبراير- يؤصل فيه مشروعيّة المشاركة في الثورة.. وأكد فيه أن المشاركة في المظاهرات القائمة لا يُعدُّ (خروجاً على الحُكّام)، وأنها من باب رفع الظُلم، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر.. ثم بعد الثورة شكّلت بعض شخصيات هذا التيار حزباً سياسياً تحت اسم (حزب الأصالة)، وشارك في الانتخابات البرلمانية، ولكن لم يحظ سوى بعددٍ بسيط من المقاعد لا تتجاوز الخمسة.

موقف التيار السلفي المصري من الديمقراطية والعمل الحزبي:

قبل الثورة.. كانت كافة تنوعات التيار السلفي المصري تكاد تتفق في موقفها الرافض للنظام الديمقراطي، والعمل الحزبي، ومن المُشاركة في انتخابات مجلس الشعب.

فالدعوة السلفيّة بالإسكندرية كان لبعض قادتها ـ قبل تأسيس حزب النور ـ تصريحات عديدة تؤكد الرفض الكامل لفكرة الديمقراطية.. فالمتحدث الرسمي باسم الدعوة السلفيّة الشيخ عبدالمنعم الشحّات قال في إحدى محاضراته ـ موجودة على اليوتيوب -: (نحن لا نقول فقط إن الديمقراطيّة حرام.. بل الديمقراطيّة كفر).. وقال الشحّات في محاضرة أخرى له ضمن سلسلة محاضرات «السلفيّة ومناهج الإصلاح»: (إن الديمقراطية هي إحدى فروع العلمانيّة، التي هي فصل للدين عن الحياة.. فالديمقراطية مرفوضة شرعاً.. سواء وظفها الإسلاميون أم لم يوظفوها).. ووصف الشحّات من يُشرِّعون المُشاركة في العمل البرلماني: (إن مَن ينتهجون الحل البرلماني يضعون أنفسهم في مشكلة عقائدية خطيرة، إذ إنه لا يمكن تمرير الشريعة إلا من تحت الديمقراطية.. فتكون ـ أي الأخيرة ـ هي الأعلى).

وللشيخ ياسر برهامي إشارات عديدة في محاضراته إلى ذات المعنى.. حيث اعتبر في إحداها: (أن المُشاركة في الانتخابات تتطلب تقديم تنازلات كثيرة جداً عن مبادئ الدين.. ويترتب على ذلك خللٌ كبير).

وكان واحدٌ من أبرز شيوخ الدعوة السلفيّة بالإسكندريّة

وهو الشيخ سيّد بن سعدالدين الغباشي قد ألف بشكل مُبكّر ـ في الثمانينيّات ـ كتاباً يُمثل المنهج الذي كانت تعتمده الدعوة السلفيّة في موقفها من النظام الديمقراطي، اسمه (القول السديد في بيان أن دخول مجلس الشعب مُنافٍ للتوحيد) ـ اعتزل الغباشي بعد ذلك العمل الدعوي العلني وابتعد عن نشاطات الدعوة السلفيّة ـ وتضمّن هذا الكتاب تأصيلاً لحُرمة المشاركة في مجلس الشعب المصري لأنها مؤسسة تشرِّع الكفر.

من جانبه.. قرر الشيخ محمد عبدالمقصود ذات المعنى.. ففي محاضرة شهيرة له ـ موجودة على اليوتيوب ـ أكد على حُرمة المشاركة في انتخابات مجلس الشعب، وقال: (هذا المجلس يتحاكم إلى غير شريعة الله عز وجل، ويجعل الدستور الذي وضعه المجلس حاكماً على شريعة الله عز وجل.. وأعضاء هذا المجلس جعلوا في دستورهم هذا أن للأعضاء حقاً في أن يوافقوا على تطبيق الشريعة أو يرفضوا ذلك.. وهذا كفرٌ بإجماع المُسلمين.. لذلك يجب ألا تلتفتوا إلى الترهات التي يشوش بها مُرجئة العصر على عقيدة أهل السنة والجماعة).. ووصف الشيخ محمد عبدالمقصود من يقبل المشاركة بمجلس الشعب: (إن من يفعل ذلك ينطبق عليه حديث الرسول عليه الصلاة والسلام الوارد في صحيح البخاري: «ومبتغ في الإسلام سنّة الجاهليّة».. فهذه الأحكام أحكامٌ جاهليّةٌ.. وقد أمرنا الله عز وجل أن نتحاكم إلى شريعته.. وذمّ من قَبِل بغير حُكمه وقال: «أفَحُكم الجاهليّة يَبْغون»).

وثمة نصوص عديدة منثورة في كتب ومحاضرات شيوخ السلفيّة المصرية بكافة أطيافها تشير إلى ذات الموقف.

ما الذي حصل بعد ثورة ٢٥ يناير؟

بعد الثورة.. انكشف المشهد السياسي المصري بشكلٍ غير مسبوق.. وغدت ساحة المُنافسة الحزبيّة والجماهيرية مُشْرَعةً على مِصراعيها.. وبات الطريق إلى التأثير والسُلطة والقرار لابد وأن يمرَّ عبر جسر البرلمان والعمل الحزبي.. وهنا صار التيار السلفي أمام وسطٍ سياسي يتضاد فيه المبدأ مع التأثير والنفوذ.. فكل التنظير السابق الرافض للعمل البرلماني والحزبي سيعني حتماً الغياب عن خارطة القرار السياسي بمِصر.. وهو ما استدعى أن يتم التعاطي بشكلٍ مُختلف مع هذا الواقع الجديد.. حتى لو أدى ذلك إلى إجراء عمليات جِراحيّة سريعة على التنظير السياسي السابق، بحيث يُقدِّم للجمهور تفسيراً لسبب تغيُّر الموقف من المُمارسة الديمقراطية.

ودخل المشهد السلفي المصري في فضاءٍ صاخب من الجدل حول مشروعية المشاركة في الانتخابات، وتكوين الأحزاب السياسيّة، وإعلان القبول بالتعددية السياسية وتداول السُلطة.. ففي الوقت الذي بقيت فيه بعض الجمعيات والشخصيات السلفيّة على موقفها السابق الرافض للمشاركة في الانتخابات البرلمانية وتكوين الأحزاب.. قررت الجمعيات والشخصيات السلفيّة الأكثر جماهيريّة دخول المُعترك السياسي وتكوين أحزاب.

فرغم الرفض الصارم الذي أبداه الشيخ محمد عبدالمقصود لمبدأ المشاركة في الانتخابات، لكون هذه المجالس تتحاكم إلى غير شريعة الله، وأن أعضاء هذا المجلس لهم الحق في رفض الشريعة، وهو ما اعتبره (كفراً بإجماع المسلمين).. إضافة لوصفه من يرون جواز المشاركة

بأنهم (مُرجئة العصر).. إلا أنه بعد ثورة ٢٥ يناير كان الشيخ محمد عبدالمقصود من أوائل من قرر تأسيس حزب سياسي ـ حزب الأصالة ـ خاض الانتخابات البرلمانيّة.. ثم شدد في محاضرة له على وجوب المُشاركة في الانتخابات، وقال: (إن عدم المُشاركة في الانتخابات هو كتمانٌ للشهادة). . بل وزاد على ذلك حين اعتبر من يرفضون تشكيل الأحزاب والمشاركة في الانتخابات يُمارسون (الطعن من الخلف)!

أيضاً.. رغم الموقف الواضح الذي أبداه شيوخ الدعوة السلفيّة بالإسكندرية من النظام الديمقراطي.. ومع أن المتحدث الرسمي باسم الدعوة السلفيّة عبدالمنعم الشحات كان قد صرّح قبل تأسيس حزب النور: (أن نظام الأحزاب يخالف النظام الإسلامي.. وأن الدعوة السلفيّة بالإسكندرية لن تؤسس حزباً سياسياً). . قررت الدعوة السلفيّة بعد حينٍ تأسيس حزب سياسي تحت اسم (حزب النور).. ومع أن قادة الحزب هم قيادات في الدعوة السلفيّة.. إلا أن الشيخ ياسر برهامي أكد أيضاً في حوارٍ له على طبيعة العلاقة الأبويّة التي تُمارسها الدعوة السلفيّة تجاه الحزب: (حزب النور أسسه أشخاص من الدعوة.. ناقشنا الأمر وبعد ذلك وافقنا عليه، ووافقنا على أن ندعمهم.. أبناء الدعوة هم من أسس الحزب، وهل يخرج الابن عن طاعة أبيه؟).

وبعد تكون الحزب السياسي.. وانفتاح قادة الحزب والدعوة السلفيّة على المشهد الإعلامي عبر إجراء الكثير من الحِوارات التِلفزيونيّة والصحفيّة.. يلمس المُتابع اختلاف تعاطي شيوخ الدعوة مع فكرة الديمقراطية.. فبعد أن كانت (كفراً).. صار شيوخ الدعوة السلفيّة يلجؤون إلى بعض

التفصيل في موقفهم.. وبات الحديث يتكرر عن أن هناك فرقاً بين: آليات الديمقراطية، وفلسفتها.. وأننا يُمكن أن نقبل بالآليات ونرفض الفلسفة.. وقد كرر الشيخ عبدالمنعم الشحّات هذا الموقف الجديد في عددٍ من البرامج التلفزيونيّة.. كما في حواره مع عمرو أديب على التلفزيون المصري حيث أكد أن: (الديمقراطية عبارة عن فلسفة وآليات.. الآليات مقبولة وليس فيها ما يخالف الشرع.. وأما الفلسفة، فلو أضفنا لها مرجعيّة الشريعة الإسلامية عندها سنكون قد حللنا المُشكلة).

وبسبب الاضطراب بين الموقف القديم والجديد.. رفض بعض المُقرّبين من الدعوة السلفيّة ـ كالشيخ أحمد النقيب ـ موقف الدعوة بتأسيس حزب.. وانتقد ذلك في عِدة محاضرات.. كما تلقى شيوخ الدعوة السلفيّة عدداً من الأسئلة التي استغربت هذا التحوّل.. أحدها مثلاً نشره موقع (صوت السلف) الذي يُشرف عليه الشيخ ياسر برهامي.. حيث ورد السؤال التالي: (كنتُ استمعتُ قديماً لشرائط شرح الحاكمية، وشرائط السلفية ومناهج الإصلاح للشيخ عبد المنعم الشحات. وقد قال نصاً: «إن مَن ينتهجون الحل البرلماني يضعون أنفسهم في مشكلة عقائدية خطيرة؛ إذ أنه لا يمكن تمرير الشريعة إلا من تحت الديمقراطية فتكون ـ أي الأخيرة ـ هي الأعلى».. وأرى الآن نقيض ما تعلمته من شرائطكم من إنشاء الأحزاب، والترشح في الانتخابات تحت مظلة الديمقراطية! وقد تعلمت منكم أن مبدأ الغاية تبرر الوسيلة هو مبدأ يخالف الإسلام، وأنه لا بد للوصول للغاية التي نرجوها بوسيلة مشروعة لا تخالف الشرع والعقيدة. فهل هذا يعتبر رضا بالديمقراطية وقبولاً لها؟).

فرد عليه الشيخ ياسر برهامي: (الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد.. فالديمقراطية التي قَبِلنا آلياتها هي كما صرح به برنامج الحزب منضبطة بضوابط الشريعة، نعني أننا لا نقبل أن يكون الحكم لغير الله.. ولكننا نقبل مسألة الانتخابات على ما فيها من بعض المخالفات إلا أنها أقل مفسدة من ترك المجال للعلمانيين والليبراليين ومن يوافقونهم ممن ينتسبون إلى العمل الإسلامي.. ونقبل مراقبة البرلمان للحاكم، وإمكانية عزله ومنع استبداده، ونقبل قيام المؤسسات في الدولة على مبدأ الشورى الذي يتم من خلال الانتخاب الذي يلزم شرعا أن يكون ممن هو أهل له، وسنسعى لتحقيق ذلك.. فنحن لم نقبل «الفكرة الفلسفيّة للديمقراطية في أن الشعب هو مصدر السلطة التشريعية»، بل الحكم لله، صرحنا بذلك مرات ومرات.. فكيف ينسب لنا الموافقة على ضد ذلك؟!.. فليس ما حدث هو من مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة»، بل هو من مبدأ «موازنة الحسنات والسيئات، والمصالح والمفاسد» بميزان الشريعة).. إلى آخر الرد.

بل إن شيوخ الدعوة السلفيّة تجاوزوا مسألة تجويز تكوين أحزاب والمشاركة في الانتخابات.. إلى تأثيم من لم يُشارك بها فضلاً عمّن يُحرِّم المشاركة.. كما ورد في إجابة الشيخ ياسر برهامي في موقع (صوت السلف) حين ورده السؤال التالي: (ما حكم المشاركة في الانتخابات يا شيخ؟.. وهل يأثم مَن لم يشارك ولم يدلِ بصوته أم لا يأثم؟).. فأجاب برهامي: (عدم المشاركة في الانتخابات تمكين للعلمانية والليبرالية، ومن يناصرهم مِن غير المسلمين مِن

فرض رؤيتهم على الدستور القادم والدولة القادمة (...) فلو تمكنوا من ذلك من خلال صناديق الانتخابات، لكان كل إثم يقع من ذلك هو في آثام مَن لم يسعَ إلى المشاركة، أو حرّمها وحذّر الناس منها، أو حثهم على اختيار مَن لا يناصر الدين، ويسعى لحفظه وحمايته).

وكان الموقف السابق ـ قبل الثورة ـ للدعوة السلفيّة من الديمقراطية يعتمد أساساً في رفضه وتكفيره للنظام الديمقراطي على أنه يجعل تطبيق الشريعة من عدمه خاضعاً لتصويت البرلمان.. وأنها لن تكون مفروضة عليهم وخارج دائرة التصويت.. لكن بعد الثورة.. أكد الشيخ عبدالمنعم الشحّات في برنامج تِلفزيوني على القناة المصرية ـ موجود باليوتيوب ـ أنهم كسلفيين لن يفرضوا الشريعة على الناس بالقوة في حال لم يختاروها: (أقول بمُنتهى الصراحة.. نحن دعوة إلى الله.. نقول للمُسلم أنه لا يسعه ترك الشريعة.. ونقول أنه يجب وضع الشريعة في الدستور، حتى تحكُم قرارات البرلمان.. فإذا وافق الناس على ذلك، فسنكون معهم.. وإذا رفضوا ذلك، فسنترك السياسة ونعود للدعوة إلى الله بالحسنى، حتى يعرفوا أن دينهم لا يُجيز لهم مُخالفة الشريعة.. ونحن في الدعوة السلفيّة عبر تاريخها الذي يمتد لقرابة الأربعين سنة كنّا دوماً نرفض أن يُطبَّق شيءٌ على الناس بالقوة).

وإذا كان هذا التغيّر في موقف بعض القوى السلفيّة ـ بمعزل عن دوافعه ـ قابله كثيرٌ من الإسلاميين بالترحاب، باعتباره تطوراً إيجابياً يصبّ باتجاه دمج الإسلاميين في الفضاء السياسي.. إلا أن بعض التصريحات التي أدلى بها قادة في الحِزب كانت غير مفهومة وغير مُبررة.. كالحديث الذي أجراه

الدكتور يسري حمّاد المتحدث الرسمي باسم حزب النور مع إذاعة الجيش الإسرائيلي ـ وهو فعلٌ لم تُقدم عليه أي قوة سياسية في مصر لكونه يُعد سلوكاً تطبيعيّاً مع إسرائيل ـ والذي قاله فيه إن الحزب سيحترم اتفاقيّة كامب ديفيد.. وإن أي تعديلات في الاتفاقية ستتم عبر طاولة مفاوضات.. وإن أي سائح إسرائيلي سيأتي إلى مِصر سيكون مُرحباً به بلا شك.. إضافةً إلى تأكيد د.يسري حمّاد ما نقله له المُراسل الإسرائيلي من أن التصريحات السابقة لقادة في حزب النور التي تؤكد احترام معاهدة كامب ديفيد أوجدت ارتياحاً في المُجتمع الإسرائيلي.

هذه التحولات في بعض الأوساط السلفيّة ـ بمعزل عن تقييمها ـ خلال مدة وجيزة من عُمْر الثورة تُشير إلى أن المستقبل يشي بمزيدٍ من التطور الفكري والانفتاح الذي ستشهده الحالة السلفيّة المصريّة إثر دخولها إلى المُعترك السياسي، وخضوعها لمُتطلبات والتزامات الوصول إلى البرلمان والمُشاركة في السُلطة.

* * *

بعد هذا الاستعراض السريع، يُمكن الإشارة إلى بعض المُلاحظات:

١ ـ بالطبع لم يكن هذا العرض الموجز لبعض التطور الذي شهِده الموقف والفكر السلفي يهدف إلى تتبع تناقضات أو إثبات ازدواج في الخِطاب.. بل للإشارة إلى وهم الصلابة الأيديولوجية المتأبية على التغيير عند المُنظمات العقائدية (ما يُسميه لينين بلشفة الحركة).. وأن التيارات

التي تخوض الصراع السياسي ـ أيّاً كانت خلفيتها ـ تملك دوماً بوصلةً شديدة الحساسية، قادرة على التقاط مناطق التأثير والنفوذ، من ثمّ السير باتجاهها ـ أياً كانت الدوافع لذلك: مصالح حزبيّة أم مصالح الأمة ـ وتكييف الإطار النظري ليتوافق مع الواقع الجديد.

٢ ـ إذا أصرّت الأحزاب السلفيّة على أن يبقى الإطار العقائدي الصلب هو الوشيجة الجامعة لقيادات الحزب ومرشحيه للبرلمان وللمناصب التنفيذيّة، فهذا سيأذن بدخول هذه الأحزاب إلى فضاء مفتوح من الصِراعات العقائدية والانقسامات.. ولكنها في حال استطاعت تحقيق قدر من التجاوز، عبر الانتقال إلى تكوين روابط قائمة على المشروعات والبرامج السياسيّة والتنمويّة، فإنها يُمكن أن تُحقق كثيراً من النجاح.

٣ ـ قد تبدو قدرة المجموعات السلفيّة على تطوير أفكارها وإجراء بعض التغيير مثار انتقاد وانتقاص عند بعض الراصدين والمثقفين فضلاً عن الخصوم السياسيين.. ولكنه برأيي يُعدُّ تفاعلاً إيجابياً مع الواقع السياسي، ويُشير إلى وجود مُركَّب عملي قادر على التعاطي بإيجابيّة مع أي أزمات قد تمرّ بالمجتمع.. وهذه التركيبيّة تُشير إلى أن مُفردات التصوّر الذهنيّ لأولويات المجتمع عند التيارات السلفيّة، أو «الخريطة الإدراكية» كما يُطلق عليها د.عبدالوهاب المسيري، هي مساحة تعيش دوماً صيرورة من التفاعل مع ضغوطات الواقع.. وتملك قدراً مُهمّاً من المرونة المطلوب توافرها عند أي تشكيل سياسي.

٤ ـ رغم هامش التفاعل الذي يفرضه الدخول إلى الفضاء

السياسي.. إلا أنه يجب ألا تبقى الأحزاب السلفيّة على مقاعد المُعارضة داخل البرلمان.. لأن المُعارضة تحتفظ دوماً بقدر من المثاليّة النقديّة، وتبقى غير خاضِعة لضغوطات والتزامات الواقع.. ولأن مشاركتها في السُلطة التنفيذيّة سيُضفي على سلوكها السياسي مزيداً من الواقعيّة، وفهماً أعمق لهموم الشارع.. فالناخب السلفي حتى لو اختار هذه الأحزاب لأسبابٍ يرتبط بعضها بالإطار الفكري، إلا أن الدوافع الخَدَميّة والماديّة ستبقى حاضرة وبقوة في انتخابه القادم.. خاصة في ظل وجود بدائل سياسيّة تشترك مع الأحزاب السلفيّة في الحِفاظ على الطابع الهوياتي للمجتمع.. وإذا كان أكثر الأوساط طهورية عند المُسلم ـ مجتمع الصحابة ـ لم يخلُ من التحفيز المادي حتى في لحظات الجِهاد والموت (من قَتَلَ قتيلاً فله سَلَبُه).. فكيف بمُجتمعاتنا المُعاصرة التي تعيش تحت ضغوطات حياتيّة صعبة.

٥ ـ لستُ ممن يستشرف فشل الإسلاميين في تجربة الحُكم.. بل أظن أن الحركات الإسلامية تملك ذكاءً سياسياً يجعلها دوماً قادرة على التكيّف مع أي واقع صعب.. وفي صفوف أعضائها والمُتعاطفين معها من التكنوقراط والمهنيين ـ إضافة إلى نظافة اليد ـ ما يجعلها قادرة على تقديم أداء جيد في إدارة القِطاعات الخَدميّة والتنمويّة.. خاصة أن تجربة الحكومات السابقة مرّت بفشلٍ ذريع في إدارة أجهزة الدولة، بسبب ارتفاع معدلات المحسوبيّة، والفساد المالي، وتشابك دوائر الاستنفاع.

ورغم قسوة الإعلام في تعامله مع الحركات الإسلاميّة،

وترصّده النقدي الحاد، إلا أن هذا الفِعل سيختصر الزمن على الإسلاميين في تفادي الأخطاء، بسبب إدراكهم أنهم يخضعون دوماً لرقابة إعلامية صارمة، إضافة إلى كونه سيُسهم برفع معدل احترافهم في التعاطي مع الوسط السياسي والإعلامي.. وقد أكدت تجربة الانتخابات المصريّة صِحة نظريات الاتصال التي تُشير إلى أن التواصل (البين شخصي) مع الجماهير، والامتداد الاجتماعي والسياسي، إضافة لرصيد الثِقة والسُمعة، هي العوامل الحاسِمة في تحديد الخَيار الانتخابي للناس، لا الفضائيات وبقيّة وسائل الإعلام.

٦ ـ القلق الذي يُساور كثيراً من الأوساط الثقافيّة والسياسيّة بسبب حصول التيار السلفي على مساحة غير متوقعة من مقاعد البرلمان.. والخشية من أن يُسهم ذلك في تراجع مدنيّة الدولة والمجتمع.. لا أظن أن له ما يُبرره.. بل إن تقدم التيار السلفي، وقبول شريحة كبيرة منه بالدخول إلى المُعترك السياسي.. يشي بأن المجتمع نجح في سحب قطاع واسع ـ كان معزولاً ومُحافظاً ـ كي ينخرط في الفضاء السياسي بشروط النِظام الديمقراطي.. وحتى وإن بدا هذا القبول براغماتيّاً في البداية.. إلا أن كثيراً من التجارب السياسيّة المُشابهة تُشير إلى أن المُمارسة العمليّة تُفضي إلى التنامي المُستمر في تطبيع علاقة هذه التيارات بالنظام الديمقراطي، وتشريع هذا الموقف مستقبلاً كي يتحوّل من قبولٍ تحت لافتة (المصلحة أو الضرورة)، إلى المشاركة في إطار الشرعيّة السياسيّة القائمة على العقد الاجتماعي.

ملحق الصور

جميع الصور بكاميرا المؤلف

في ميدان التحرير .. القاهرة



وسط المتظاهرين في ميدان التحرير



الأعداد تتزايد كل يوم



الميدان يكتظ بالحشود



مقر الحزب الوطني يحترق



في جمعة الغضب أعلن الشباب بدء الاعتصام



اللوحات الساخرة تملأ الميدان



قلق من موقف الجيش



رسائل للرئيس بالطريقة المصرية الساخرة



المقر الجديد للحزب الوطني .. والبحث عن هارب العباسيّة



على خطى الرئيس المخلوع زين العابدين بن علي



الهتافات لاتتوقف طوال اليوم



المتظاهرون في كل أنحاء الميدان



الشعب يريد إسقاط النظام



في موقعة الجمل .. إشعال النار على أطراف الميدان



المتاريس الحديديّة توضع في خطوط المواجهة



لحظات الهجوم بالقرب من ميدان طلعت حرب



جمع الحجارة للمدافعين عن الميدان



سجود شكر بعد صد هجوم للبلطجية



الدمار بقرب ميدان طلعت حرب المُجاور لميدان التحرير



أمام اعتصام مجلس الوزراء في شهر ديسمبر

في ساحة البريد.. الرباط



تجمع المتظاهرين في ساحة البريد



الحشود أمام البنك المركزي



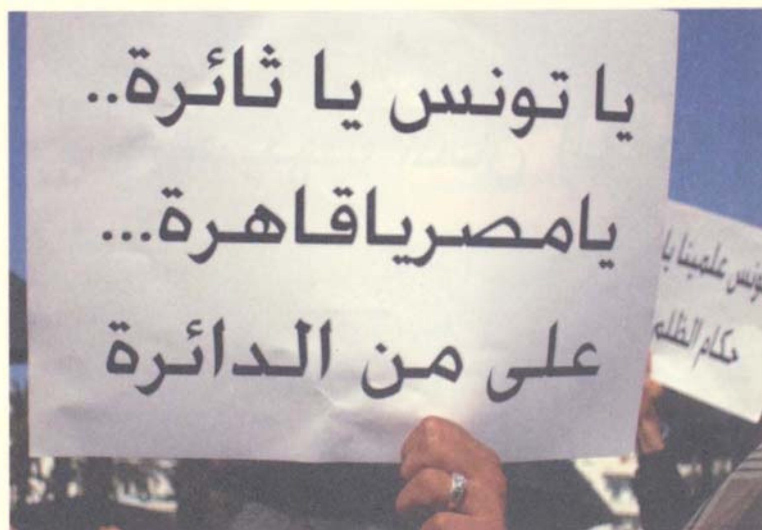
باركاااا .. أيّ يكفي



شعارات عديدة تندد بفساد السلطة



مقربون من الملك



تلويح بما حصل في تونس ومصر



أجندتي: المساواة، الديمقراطية، دستور جديد، الشغل، الصحة، السكن، توقيع / مواطن مغربي



مدونة سير سياسية

Twitter: @ketab_n



شباب ٢٠ فبراير يقودون الساحة



حتى النصر دائماً.



مجموعة من صور معتقلي السلفيّة الجِهاديّة



يظهر في الصورة أحد المندسين



أمام منزل محمد البوعزيزي.. وحدود المنزل فقط على امتداد الجدار الأبيض



منزل البوعزيزي من الداخل



جامع الرحمة الذي شهد الشرارة الأولى.. وكانت عربة البوعزيزي تقف في موقع الوانيت أسفل الصورة



قبر محمد البوعزيزي



قصر البلديّة



مقر الولاية.. وأمام هذه البوابة أحرق محمد البوعزيزي نفسه



شعارات على جدران سيدي بوزيد



بالعاصمة تونس، في ضيافة الشيخ راشد الغنوشي بصحبة د.العثماني قبل رحلتي إلى سيدي بوزيد

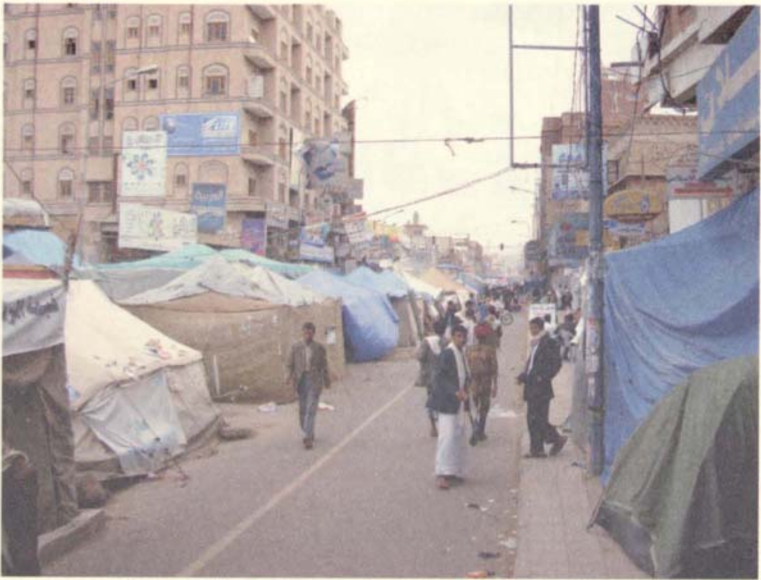
في ساحة التغيير .. صنعاء



مع الصديق شوقي القاضي في ساحة التغيير



لوحة ارحل في أحد مداخل الساحة



خيام الاعتصام في الطريق الدائري



الاعتصام أمام بوابة جامعة صنعاء



شهداء جمعة الكرامة



اشتراكيون على الطريقة اليمنيّة



البردوني الحاضر الغائب



فنان تشكيلي وسط ساحة التغيير



في منزل د.عبدالملك المتوكل



ندوة سياسية تجرى في المنصة الرئيسية



وسط الخيام في ساحة التغيير



يوم الجمعة في شارع الستين .. حشود ممتدة حتى الأفق



الشيخ عبدالله صعتر يخطب الجمعة



لوحات تعبّر عن مضمون هذه الجمعة



جنائز عديدة صلت عليها الحشود



رفع قبضات الأيدي وترديد الشعارات خلف الإمام



مع د.محمد قحطان الناطق الرسمي باسم اللقاء المشترك، والصديق فؤاد الحميري



استمرار الأهازيج والرقصات حتى منتصف الليل



مطعم على أطراف الساحة، والمعلّم قايد يُخلي مسؤوليته



شاي الأحرار، أهمّ المحفزات للثورة

هذا الكتاب

يا مُحمد البوعزيزي.. هل تعرف ما فعل اللهيب المُشتعل في كرامتك بوطننا العربي المُمتد بحجم الوجع من المُحيط إلى الخليج؟!.. هل تعرف ما فعل جسدك المُحترق في الوجوه المُنهكة، والسواعد المكدودة، والأرواح المُثقلة بكل عذابات السنين؟!

لقد أشعل الثورة في عروق أوطاننا المطمورة تحت أكوام الفاسدين وأبناء الذوات.. وأوقد نيران الغضب فوق أرضنا التي أعياها التعب.. وبعث الحياة في أرواحٍ كان نبضها يتداعى على أجهزة الإنعاش.

أنينُك الموجوع لم يهدأ بعدُ في النفوس الثائرة بميادين التحرير.. وغضبُك مازال مُشتعلاً في ملايين الحناجر التي تهتف كل يوم بساحات التغيير.. والشجى مازال يبعثُ الشجى يا مُحمد.

في صدورنا لك عَهدٌ أن نقطع كل الجذوع الغليظة في غابات الظلم والقهر.. وفي نفوسنا لك دَينٌ أن نبتهل إلى الله في الخلَوَات كي يُعليك بقدر ما هَوَت عروش الظالمين في الدَرَكات.. وفي أعناقنا لك بيعة أن نُشعل الجسد قبل انتهاك الكرامة.. فلهيبُ كرامتك يا مُحمد صنع في أوطاننا ثورة.

الثمن: ١٠ دولارات
أو مايعادلها

ISBN 978-9953-533-83-4



الشبكة العربية للأبحاث والنشر
بيروت - لبنان
هاتف: ٧٣٩٨٧٧ (١-٩٦١) - ٢٤٧٩٤٧ (٧١-٩٦١)
E-mail: info@arabiyanetwork.com